

تفسير الفخر الرازي

المشتمل على التفسير الكبير ومنتزعاته

لقد سماه محمد الرازي فخر الدين ابن العارفين عبد الله بن محمد
المشتمل على تفسير الرازي لفتح الله بالبيان
١٤١١ هـ - ١٩٩١ م



حقوق الطبع محفوظة للناشر
الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

المجلد الثامن

دار الفكر

طبع في دار الفكر - بيروت

قُلْ أَنفَلَهُمْ مَلَكَ الْعَالَمِ تُؤْتِي الْمُلُوكَ مَن تَشَاءُ وَتَنَزِعُ الْمُلُوكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ
وَتُذَلِّلُ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْغَلَبَةُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهْرِ
وَتُخْرِجُ النَّهْرَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَن
تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وترجع من تشاء وتخل من تشاء جدد الخلفاءك على كل شيء قدير . تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما ذكر دلائل التوحيد والنبوة ، ومحنة دين الإسلام ، ثم قال نرسوه
(فإن حاحوك فحق أسلمت وجهي لله ومن اتبع) ثم ذكر من صفات المخالفين كفرهم بالله ،
وقتلهم الأنبياء ، والمصالحين بغير حق ، وذكر نسبة عنادهم وتمردهم في قوله (ألم تر إلى الذين
أوتوا نصيب من الكتاب) ثم ذكر شدة غرورهم بقوله (لن نمسك الأمر إلا بأيام معدودات) ثم
ذكر وعيدهم بقوله (فكيف إذ حملناهم ليلوم لا ريب فيه) أمر رسول الله ﷺ بدعاء وتحجيد
بدل عن حياجة ضربه وتوبيخ أنبيائه ، نظريته هؤلاء الكافرين المعاندين المعرضين ، فقال
معلما نبيه نيف بمحمد ويعظم ويدعو ويطلب (قل اللهم مالك الملك) وفي الآية مسائل .

﴿ السُّلْطَةُ الْأُولَى ﴾ : اختلف النحويون في قولهم (اللهم) فقد اختلفوا وبسمويه (اللهم) معناه : يا الله ، واليهم المنددة عوض من : يا ، وقال الفراء : كبر أصلها : يا الله أم بحير : فلي كثر في الكلام حذفوا حرف المنددة ، وحذفوا المعزة من : أم ، فصار (اللهم) ونظيره قول العرب : هلم ، والأصل : هني ، فقصم : أم ، إليها ، حجة الأولين على فساد قول الفراء وجوه (الأول) لو كان الأمر على ما قاله الفراء لما صح أن يقال : اللهم افعل كذا إلا بحرف العطف ، لأن التفسير : يا الله أمنا ونعبر لنا ، ولم نجد أحدا يذكر هذا الحرف العطف

(والثاني) وهو حجة الزواج أنه لو كان الأمر كما قال ، لجاز أن يتكلم به على أصله ، فيقال (الله أم) كما يقال (ويلم) ثم يتكلم به على الأصل فيقال (ويل أمه) (الثالث) لو كان الأمر على ما قاله الفراء لكان حرف النداء محدوقاً ، فكان يجوز أن يقال : يا اللهم ، فلها لم يكن هذا جائزاً علمنا فساد قول الفراء بلى فنقول : كان يجب أن يكون حرف النداء لازماً ، كما يقال : يا الله اغفر لي ، وأجاب الفراء عن هذه الرجوع ، فقال : أما الأول فضعيف ، لأن قوله (يا الله أم) معناه : يا الله قصد ، فلو قال : واغفر لكان المعطوف مغايراً للمعطوف عليه فحينئذ يصير السؤال سألين (أحدهما) قوله (أمنا) (والثاني) قوله (واغفر لنا) أما إذا حذفنا المعطف صار قوله : اغفر لنا تفسيراً لقوله : أمنا . فكان المطلوب في الحالين شيئاً واحداً فكان ذلك أكد ، ونظائره كثيرة في القرآن ، وأما الثاني فضعيف أيضاً ، لأن أصله عندنا أن يقال : يا الله أمنا . ومن الذي ينكر جواز التكلم بذلك ، وأيضاً فلأن كثيراً من الألفاظ لا يجوز فيها إقامة الفرع مقام الأصل ، ألا ترى أن مذهب التحليل وسيبويه أن قوله : ما أكرمه ، معناه أي شيء أكرمه ثم إنه فاعل لا يستعمل هذا الكلام الذي زعموا أنه الأصل في معرض التعجب فكذا ههنا ، وأما الثالث فمن الذي سلم لكم أنه لا يجوز أن يقال : يا ألهم وأنشد الفراء :

وأما عليك أن تقولي كلمي سبحت أو صليت يا اللهم

وقول البصريين إن هذا الشعر غير معروف ، فحاصله فكذب البطل ، ولو فتحنا هذا الباب لم يبق شيء من اللغة والنحو سليماً عن الطعن ، وأما قوله : كان يلزم أن يكون ذكر حرف النداء لازماً فجوابه أنه قد يحذف حرف النداء كقوله (يوسف أيها الصديق افتنا) فلا يبعد أن يختص هذا الاسم بالزام هذا الحذف ، ثم احتج الفراء على فساد قول البصريين من وجوه (الأول) أنا لرجعنا الميم قائماً مقام حرف النداء فكنا قد أخرنا النداء عن ذكر المنادي ، وهذا غير جائز البتة ، فإنه لا يقال البتة (الله يا) وعلى قولكم يكون الأمر كذلك (الثاني) لو كان هذا الحرف قائماً مقام النداء لجاز مثله في سائر الأسماء ، حتى يقال : زيدم . ويكرم ، كما يجوز أن يقال : يا زيد ويا بكر (الثالث) لو كان الميم بدلاً عن حرف النداء لما اجتمعا ، لكنهما اجتمعا في الشعر الذي رويته (الرابع) لم نجد العرب يزيئون هذه الميم في الأسماء التامة لإفادة معنى بعض الحروف المباشرة للكلمة الداخلة عليها ، فكان المصدر إليه في هذه اللفظة الواحدة حكماً على خلاف الاستفراء العام في اللغة وأنه غير جائز ، فهذا جملة الكلام في هذا الموضع .

في المسألة الثانية (مالك الملك) في نصب وجهان (الأول) وهو قوله سيبويه أنه منصوب على النداء ، وكذلك قوله (قل اللهم فاطر السموات والأرض) ولا يجوز أن يكون

نفس القول (اللهم) لأن قولنا (اللهم) عموم لاسم الحرف . وهذا المبدوع لا يمكن وصفه (والشيء) وهو آتون البرد والزجاج أن (مالك) وصف لستاد المريد . لأن هذا الاسم ومعناه ليس بمنزلة ومعناه (يا) ولا ينتم الصفقة مع الميم ، كما لا ينتم مع الفاء

﴿ المسألة الثالثة ﴾ روي أن النبي صلى الله عليه وسلم حين افتتح مكة وعد أمته ملك فارس والروم ، فقال القذافيون واليهود : هيهات هيهات من أين نجد ملك فارس والروم . وهم أعز وأمنع من ذلك . وروى أنه عليه الصلاة والسلام لما حط الخندق عام الأحزاب . وقطع لكل عشرة أربعين فراسخا . وأخذوا يحفرون حرج من بطن الحلق صحرة كائنا العظيم لم يعمل فيها المعاول . فوجهوا سليمان إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فأخذ المعول من سليمان فلما صر بها أخرجه صدعها وبرق منها برق أضواء ما بين لآتيها كأنه مصباح في جوف ليل مظلم . فكبر وكبر المسلمون . وقال عليه الصلاة والسلام : أضاءت لي منها قصور الحيرة كأنها أضاءت الكلاب : ثم صرت الثانية . فقال : أضاءت لي منها القصور الحمراء من أرض الروم . ثم ضرب الثالثة فقال : أضاءت لي منها قصور صنعاء . وأحيرني حريق عليه السلام أن أمتي خلفه على كلها فأشروا . فقال المشركون : ألا تعجبون من نبيكم بعدكم الباطل وتحبركم أنه يصبر من يترك قصور الحيرة وما دأب كسرى . وأنها تمنح لكم برأئهم تحفرون الخندق من الخوف لا تستطيحون أن تخرجوا فبركت هذه الآية والله أعظم . وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما : إن سألته أن يعطيه ملك فارس والروم ويبدد ذلك العرب عليهما . وأمره بذلك دليل على أنه يستجيب . له هذا الدعاء . وهكذا منازل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا أمروا بدعاء استجيب دعاءهم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ (الملك) هو القدرة . والمالك هو القادر . فقوله (مالك الملك) معناه القدرة على القدرة . والمعنى إن قدرة الخلق على كل ما يقدر الله عليه ليست إلا بإقدار الله تعالى فهو الذي يقدر كل قادر عن مقدوره . ويملك كل مالك مملوكه . قال صاحب الكشاف (مالك الملك) أي يملك حسن الملك فيصرف فيه تصرف الملاك في مملوكه . وأعلم أنه تعالى لما مر كونه (مالك الملك) على الإطلاق . فصل بعد ذلك وذكر أنوعاً خمسة

﴿ النوع الأول ﴾ قوله تعالى (تَوَهَّيْتُ الْمُلْكَ مِنْ تَشَاءُ) وتوزع الملك من تشاء (وذكرنا فيه وجوهاً الأول) المراد منه : ملك النبوة والرسالة كما قال تعالى (فقد أتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وأتيناهم ملكاً عظيماً) والنبوة أعظم مراتب الملك لأن تعالى لهم أمر عظيم على مواطن الخلق والجليلة لهم أمر على طواهر الخلق والأنبياء أمرهم نافذ في البيروطن والضاوهر . فأنما على البيروطن فلاه يجب على كل أحد أن يسبل دينهم وشريعتهم . وأن يعتقد أنه هو الحق . وأما

على الظواهر فلاهم لو فردوا واستكروا لاسترجبوا القتل ، وما يؤكد هذا التأويل أن بعضهم كان يستبعد أن يجعل الله تعالى بشراً رسولاً فتحكى الله عنهم قوهم (أبعد الله بشراً رسولاً) وقال الله تعالى (ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً) وقوم آخرون جوزوا من الله تعالى أن يرسل رسولاً من البشر ، إلا أنهم كانوا يقولون : إن محمداً فقير بيشم ، فكيف يليق به هذا المنصب العظيم على ما حكى الله عنهم أنهم قالوا (لولا نزل هذا القرآن على رجل من الخريئين العظيم) وأما اليهود فكلوا يقولون النبوة كانت في آبائنا وأسلافنا ، وأما قريش فهم ما كانوا أهل النبوة والكتاب فكيف يليق النبوة بمحمد ﷺ ؟ وأما المخاضون فكلوا يمسدونه على النبوة ، على ما حكى الله ذلك عنهم في قوله (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) .

وأيضاً فقد ذكرنا في تفسير قوله تعالى (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم ورش المهاد) أن اليهود تكبروا على النبي ﷺ بكثرة عددهم وسلاحهم وشيئتهم ، ثم إنه تعالى رد على جميع هؤلاء الطوائف بأن بين أنه سبحانه هو ملك المؤمنين ملكه من يشاء ، فقال : « تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء » .

فان قيل : فإذا حتمت قوله (تؤتي الملك من تشاء) على إتياء ملك النبوة ، وجب أن يحملوا قوله (وتنزع الملك ممن تشاء) على أنه قد يزل عن النبوة من جعله نبياً ، ومعلوم أن ذلك لا يجوز .

قلنا : الجواب من وجهين (الأول) أن الله تعالى إذا جعل النبوة في نفس رجل ، فإذا أخرجها الله من نفسه وشرفها بإنساناً آخر من غير ذلك النسل ، صح أن يقال إنه تعالى نزعها منهم ، واليهود كانوا معتقدين أن النبوة لا بد وأن تكون في بني إسرائيل ، فلما شرف الله تعالى محمداً ﷺ بها ، صح أن يقال إنه ينزع ملك النبوة من بني إسرائيل إلى العرب . (والجواب الثاني) أن يكون المراد من قوله (وتنزع الملك ممن تشاء) أي تحرمهم ولا تعطهم هذا الملك لا على معنى أنه يسلبه ذلك بعد أن أعطاه ، ونظيره قوله تعالى (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) مع أن هذا الكلام يتناول من ثم يكن في ظلمة الكفر فط ، وقال الله تعالى غيراً عن الكفار أنهم قالوا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام (ولتعودن في ملتنا) وأولئك الأنبياء قالوا (وما يكون لنا أن نعود إلا أن يشاء الله) مع أنهم ما كلوا فيها قط فهذا جملة الكلام في تقرير قول من فسر قوله تعالى (تؤتي الملك من تشاء) بملك النبوة .

(القول الثاني) أن يكون المراد من الملك ، ما يسمى ملكاً في العرف ، وهو عبارة عن مجموع أشياء (أحدها) تكبير المال وإخاءه ، أما تكبير المال فيدخل فيه ملك الصاكت والناطق

والدور والضباع ، والحراث ، والنسل ، وأما تكثير الخد فهو أن يكون مهيبا عند النفس ، مقبول القول ، مطاعا في الخلق (والثاني) أن يكون بحيث يجب على غيره أن يكون في حاجته ، ونحت أمره ونبيه (والثالث) أن يكون بحيث لو نازعه في ملكه أحد ، قدر على فهم ذلك المنازع ، وعلى غلبته ، ومعلوم أن كل ذلك لا يحصل إلا من الله تعالى ، أما تكثير المال فقد نرى جمعا في غاية الكياسة لا يحصل لهم مع الكد الشديد ، والعناء العظيم قليل من المال ، ونرى الأبله الغافل قد يحصل له من الأموال ما لا يعلم كميته ، وأما الجاه فلا أمر أظهر ، فإننا رأينا كثيرا من الملوك بذلوا الأموال العظيمة لأجل الخد بوكوا كل يوم أكثر حضارة ومهانة في عيون الرعية ، وقد يكون على العكس من ذلك وهو أن يكون الإنسان معظما في العقائد ، مهيبا في القلوب ، ينادى له الصغير والكبير ، ويتواضع له الغاصي والداني ، وأما القسم الثاني وهو كونه وسب الطاعة ، فمعلوم أن هذا شريف يشرف الله تعالى به بعض عباده ، وأما القسم الثالث ، وهو حصول الصبر والظفر فمعلوم أن ذلك مما لا يحصل إلا من الله تعالى ، فكم شاهد من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بأذن الله ، وعند هذا يظهر بالبرهان العقلي صحة ما ذكره الله تعالى من قوله (تَزْنِي الْمَلِكُ مِنَ الْمَاءِ) .

واعلم أن لمعزلة ههنا بحثا قال الكعبي قوله (تَزْنِي الْمَلِكُ مِنَ الْمَاءِ) وتنزع الملك عن تشاء ليس على سبيل المختارة ، ولكن بالامتثال في قوته من يقوم به ، ولا ينزعه إلا ممن فسق عن أمر ربه ويدل عليه قوله (لا يَبْنِي عَهْدِي الظَّالِمِينَ) وقال في حق العبد الصالح (إن الله اصطفاك عليه كرم وزاده سطه في الحُجْمِ واخسِم) فجعله سيئا لتعلمك ، وقال أجباني : هذا الحكم مختص بملوك العدل ، فأما ملوك الظلم فلا يجوز أن يكون ملكهم بآباء الله ، وكيف يصح أن يكون ذلك بآباء الله ، وقد ألزمهم أن لا يمتلكوه ، ومنعهم من ذلك فصح بما ذكرنا أن الملوك العادلين هم المختصون بأن الله تعالى تاهم ذلك الملك ، فأما الظنون فلا ، قالوا : وتظلم هذا ما قلناه في الرزق أنه لا يتدخل تحت الحرام الذي زجره الله عن الانتفاع به ، وأمره بأن يرد على مالكه فكذا ههنا ، قالوا : وأما النزع فيخلاف ذلك لأنه كما ينزع الملك من الملوك العادلين المصلحة تقتضي ذلك فقد ينزع الملك عن الملوك الظالمين وتنزع الملك يكون بوجود : منها بالمولود ، وإزالة العقل ، وإزالة القوى ، وقدر والحواس ، ومنها سورد الملاك والتلف في الأموال ، ومنها أن يأمر الله تعالى المحق بأن يسلب الملك الذي في يد المتعبد البطل وبزائه القوة والصرة ، فإذا حارب المحق وفهره وسلب ملكه حاز أن يضاف هذا السلب والنزع إليه تعالى ، لأنه وقع عن أمره ، وعلى هذا الوجه نزع الله تعالى ملك فارس على يد الرسول ، هذا جملة كلام المعزلة في هذا الباب .

واعلم أن هذا الموضوع مقام بحث مهم وذلك لأن حصول الملك النظام ، إما أن يقال :

إنه وقع لا عن فعل وإذ حصل بفعل ذلك التغلب ، أو بما حصل بالأسباب الربانية ، والأول نفي المصانع والتعني باطل لأن كل أحد يريد تحصيل الملك ، والدولة لنفسه ، ولا يتيسر له أنه فتم بين إلا أن يقال بأن ملك الظالمين إنما حصل ببقاء الله تعالى ، وهذا الكلام ظاهر وما يؤكد ذلك أن الرجل قد يكون بحيث نهيه النفوس ، وتقبل إليه الغلوت ، ويكون النصر مريباً له والمظفر جلياً معه وإنما توجه حصل مقصوده وقد يكون على الضد من ذلك ، ومن تأمل في كيفية أحوال الملوك اضطر إلى العلم بأن ذلك ليس إلا بتقدير الله تعالى ، ولذلك قال حكيم الشعراء :

لو كان الخيل التي لوجدني بأجل أسباب السماء تحصى
لكن من رزق الحيا حرم التي صمدان مفترقان أي تفرق
ومس السبل على القضاء وكونه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

❖ والقول الثاني ❖ أن قوله (توتى الملك من تشاء) محمول على جميع أنواع الملك فيدخل فيه ملك البوة ، وملك العلم ، وملك العقل ، والصحة والاختلاص الحسن ، وملك الشفاة والعمارة وملك المحبة ، وملك الأموال ، وذلك لأن اللفظ عام والتخصيص من غير دليل لا يجوز .

وأما قوله تعالى (وتعر من تشاء) ونذكر من تشاء) فاعلم أن المعنى قد تكون في تدبير ، وقد تكون في الحدب ، أما في التدبير فتشرف أنواع العزة بالإيمان فإن الله تعالى لا يه العزة والرسالة والمؤمنين) إذا ثبت هذا فنقول : فما خار أن الأشيء المرجية لعزة هو الإيمان ، وأول الأشياء المرجية لسمدة هو الكفر . فلو كان حصول الإيمان والكفر مجرد مشيئة العبد ، لكان بقرار الحسد نفسه بالإيمان وبإزالة نفسه بالكفر أعظم من عزاء الله عنه بكل ما أعزاه به . ومن إدلان الله عنه بكل ما أدله به ولو كان الأمر كذلك لكان حظ أحد من هذا الوجه . أنهم وأكبر من حظ الله تعالى به ، ومعلوم أن ذلك باطل قطعاً . فاعلم أن الإيماء بالإيمان والحق ليس إلا من الله ، والإيدان بالكفر وباطل ليس إلا من الله . وهذا وجه قوي في المسألة ، فإن انقاضي : الإعرار المصائب يثي تعالى قد يكون في العيين ، وقد يكون في الذنوب أما الذي في الدين فهو أن الشوا لا بد وأن يكون مقتضياً على التعظيم والدرج والخرامة في الدنيا والآخرة . وأيضاً فإنه تعالى يدهم مزيد الألفاظ ويعلمهم على الاعتناء بحسب فصحة . وأما ما يتعلق بأمتي والمقطاة الأموال الكثيرة من الثمن في الصامت وتكثير الحوت وتكثير الفتح في السموات ، وإلقاء أخيه في قلوب الخلق .

واعلم أن كلامنا يأتي ذلك لأن كل ما يفعله الله تعالى من التعظيم في ذات الثواب فهو حق وبحسب على الله تعالى وتوكله يفعل ما يشاء من الإهانة والخراب عن كونه إغناء للخلق فهو تعالى باعطاء هذه التعظيمات يحفظ إهانة نفسه عن الزوال فأما العبد ، فلما غرس نفسه بالإيمان أبدى بوجوب هذه التعظيمات فهو الذي أعز نفسه فكان إعزازه لنفسه أعظم من إعزاز الله تعالى إياه ، فعلمنا أن هذا الكلام المذكور لازم على القوم .

أما قوله (ونزل من تشاء) فقال الجبائي في تفسيره : إنه تعالى إنما يدل أعداءه في الدنيا والآخرة ولا يدل أحد أس أوليائه وإن أفقرهم وأمرضهم وأحوجهم إلى غيرهم ، لأنه تعالى إنما يفعل هذه الأشياء لجرهم في الآخرة ، إما بالثواب ، وإما بالعوض فيفسد ذلك كالفصد وإحسانه فيها وإن كانا يؤك في الحال إلا أنها لما كانتا مستعبدتان لنعماء عظمى لا جرم لا بد أن فيها إيهاماً بتدبير ، قال وإذا وصف الفقير بأنه ذل فعلى وجه المحار كما سمي الله تعالى ابن المؤمن فلا سؤله (أدلة على تومئ) .

إذا عرفت هذا فقول : إذلال الله تعالى عبده المبطل إنما يكون بوجوه منها بالدم والذم ومنها بأن يذلهم بالحجة والنصرة ، ومنها بأن يجعلهم خولاً لأهل دينه ، ويجعل ما لهم غيبة ضرتها بالعقوبة هي في الآخرة هذا جملة كلام المسترلة ، ومذهبنا أنه تعالى يحرر البعض بالإيمان والمعرفة ، ويدل البعض بالكفر والضلالة ، وأعظم أنواع الإعزاز ، والإذلال هو هذا والذي يدل عليه وجوه (الأول) وهو أن عز الإسلام وذل الكفر لا بد فيه من عامل وذلك العامل إنما أن يكون هو العبد أو الله تعالى والأول باطل ، لأن أحداً لا يجترأ الكفر لنفسه ، بل إنما يريد الإيمان والمعرفة والهداية فلما أراد العبد الإيمان ولم يحصل له بل حصل له الجهل ، علماً أن حصوله من الله تعالى لا من العبد (الثاني) وهو أن يجعل الشيء يحصل للعبد إما أن يكون بواسطة شبهة وإما أن يقال : يفعله العبد ابتداء ، والأول باطل إذ لو كان كذلك لكان الجهل يحصل بجهل آخر يسبقه ويتقدمه لزم التسلسل وهو محال ، فبقي أن يقال : تلك الجهات تستهي إلى جهل يفعله العبد ابتداء من غير سبب موجب البتة لكننا نجد من أنفسنا أن العاقل لا يرضى لنفسه أن يصير على الجهل ابتداء من غير موجب فعلمنا أن ذلك باذلال الله عبده وبخلاله إياه (الثالث) ما بيننا أن الفعل لا بد فيه من الداعي والمرجح . وذلك المرجح يكون من الله تعالى فإن كان في طرف الخبر كان إعزازه ، وإن كان في طرف الجهل ولشره واتصلاته كان إذلاله ، ثبت أن المحر والذل هو الله تعالى .

أما قوله تعالى (بيدك الخير)

فعلمه أن المراد من اليد هي القدرة ، والمعنى بقدرك الخير والألف والسلام في الخير

يوجبان العموم ، فالعنى بقدرتك تحصل كل البركات والخيرات ، وأيضاً ضوله (بيدك الخير) يفيد اختصار كأنه قال بيدك الخير لا بيد غيرك ، كما أن قوله تعالى (لكم دينكم ولي دين) أي لكم دينكم أي لا تخبركم وذلك الاختصار يتأني حصول الخير بيد غيره ، فثبت دلالة هذه الآية من هذين الوجهين على أن جميع أخيرات منه ، وبكونه وتخليقه وإيجاده وإيداعه ، إذا عرفت هذا فنقول : أفضل الخيرات هو الإيمان بالله تعالى ومعرفة ، فوجب أن يكون الخير من تخليق الله تعالى لا من تخليق العبد ، وهذا استدلال ظاهر ومن الأصحاب من زاد في هذا المنقري فقال : كل فاعلين فعل أحدهما أشرف وأفضل من فعل الآخر كان ذلك الفاعل أشرف وكمل من الآخر ، ولا شك أن الإيمان أفضل من الخير ، ومن كل ما سوى الإيمان فلو كان الإيمان بخلق العبد لا بخلق الله لوجب كون العبد زائداً في الخبرة على الله تعالى ، وفي الفضيلة والكمال ، وذلك كفر فيصح قللت هذه الآية من هذين الوجهين على أن الإيمان بخلق الله تعالى .

قال قيل : فهذه الآية حجة عليكم من وجه آخر لأنه تعالى لما قال (بيدك الخير) كان معناه أنه ليس بيدك إلا الخير ، وهذا يقتضي أن لا يكون الكفر والمعصية والتعصم بتخليق الله .

(والجواب) أن قوله (بيدك الخير) يفيد أن بيده الخير لا بيد غيره ، وهذا يتأني أن يكون بيد غيره ولكن لا يتأني أن يكون بيده الخير وييده ما سوى الخير إلا أنه خص الخير بالذكر لأنه الأمر المتفق به فوقع التخصيص عليه لهذا المعنى قال القاضي : كل خير حصل من جهة العباد فلو لا أنه تعالى أقرهم عليه وهذا هم إليه لما تمكنوا منه ، فلهذا السبب كان مضافاً إلى الله تعالى إلا أن هذا ضعيف لأن على هذا التقدير يصير بعض الخير مضافاً إلى الله تعالى ، ويصير أشرف الخيرات مضافاً إلى العبد ، وذلك على خلاف هذا النص .

أما قوله (إنك على كل شيء قدير) فهذا كالتأكيد لما تقدم من كونه مالئاً لايتاء الملك وزعه والإعزاز والإدلال .

أما قوله تعالى (تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل) فيه وجهان (الأول) أنه يجعل الليل قصيراً ويجعل ذلك المقدر الرائد داخل في النهار وتارة على العكس من ذلك وإقفاً فعل سبحانه وتعالى فذلك لأنه علق نوام العالم ونظامه بذلك (والثاني) أنه المراد هو أنه تعالى يأتي بالليل عقب النهار ، فليس الدنيا ظلمة بعد أن كان فيها ضوء النهار ، ثم يأتي بالنهار عقب الليل فليس الدنيا ضياء فكان المراد من إيلاج أحدهما في الآخر إيجاد كلي واحد منهما عقب الآخر ، والأول أقرب إلى اللفظ ، لأنه إذا كان النهار طويلاً فجعل ما نقص منه زيادة في الليل كان ما نقص منه داخل في الليل .

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ

بِأَحَدٍ مِنْهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِيهِمْ شَرٌّ عَظِيمٌ (نور ٢٤)

﴿ مسألة الأولى ﴾ : أولاً نافع وحمة والكسائي (ميت) بالتشديد ، والبخاري
بالتخفيف ، وهما لغتان بمعنى واحد ، قال الميرد : أجمع البصريون على أنهم سواء وأنشدوا :

إنما الميت ميت الأحياء

وهو مثل قوله : هير ، هير ، ولين ، ولين ، وقد ذهب ذهبون إلى أن الميت من قدمات ،
والميت من لم يموت .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر المفسرون فيه وجوهاً (أحدها) يخرج المؤمن من الكافر
كإبراهيم من أزر ، والكافر من المؤمن مثل كنعان من نوح عليه السلام (والثاني) يخرج
الطيب من الخبيث وبالعكس (والثالث) يخرج الحيوان من النطفة ، والطير من البيضة
وبالعكس (والرابع) يخرج السنبلة من الحبة وبالعكس ، والجنة من النواة وبالعكس ، قال
القضال رحمه الله : والكلمة محتملة للكل أما الكفر والإيمان فقال تعالى (أو من كان ميتاً
فأحييناه) يريد كان كافراً فهديناه فجعل الموت كفراً وأحيانا إيماناً ، وسمى إخراج النبات من
الأرض إحياء ، وجعل قبلي ذلك ميتة فقال (يحيى الأرض بعد موتها) وقال (صفناه إلى بلد
ميت فأحييناه به الأرض بعد موتها) وقال (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم
ثم يحييكم) .

أما قوله (وترزق من تشاء بغير حساب) ففيه وجوه (الأول) أنه يعطي من يشاء ما
يشاء لا بحسابه على ذلك أحد ، إذ ليس فوقه ملك يحاسبه بل هو الملك يعطي من يشاء بغير
حساب (والثاني) ترزق من تشاء بغير مقدور ولا محدود ، بل تبسطه له وتوسع عليه كما
يقال : فلان يفرق بغير حساب إذا وصف عطوفه بالكثرة ، ونظيره قولهم في تكثير مال الإنسان :
عنته مال لا يحصى (والثالث) ترزق من تشاء بغير حساب ، يعني على سبيل التفضل من غير
استحقاق لأن من أعطى على قدر الاستحقاق فقد أعطى بحساب ، وقال بعض من ذهب إلى
هذا المعنى : إنك لا ترزق عبادة على مقدير أعمالهم والله أعلم .

قوله تعالى : لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من

مِنْ أَهْلِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا وَبِحَذْرِكُمْ اللَّهِ نُفْسٌ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١١﴾

الله في شيء - إلا أن تتقوا منهم تقاتوا ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير ﴿١١﴾ .

في كيفية النظم وجهان (الأول) أنه تعالى لما ذكر ما يجب أن يكون المؤمن عليه في تعظيم الله تعالى ، ثم ذكر بعده ما يجب أن يكون المؤمن عليه في المعاملة مع الناس ، لأن كمال الأمر ليس إلا في شيئين : التعظيم لأمر الله تعالى ، والشفقة على خلق الله قال (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) (الثاني) لما بين أنه تعالى مالك الدنيا والآخرة بين أنه ينبغي أن تكون الرغبة فيها عنده ، وعند أولياءه دون أعدائه .

وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في سبب النزول وجوه (الأول) جاء قوم من اليهود إلى قوم المسلمين ليفتنوهم عن دينهم فقال رفاعة بن الملو ، وعبد الرحمن بن جبير ، وسعيد بن جبلة لأرئلك اتفر من المسلمين : اجنبتوا هؤلاء اليهود ، واحذروا أن يفتنوكم عن دينكم فنزلت هذه الآية (والثاني) قال مقاتل : نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وغيره ، وكانوا يتولون اليهود والمشركين ويخبرونهم بالأخبار ويرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية (الرابع) أنها نزلت في عبادة بن الصامت وكان له حلفاء من اليهود ، ففي يوم الأحزاب قال يا نبي الله إن معي خمسمائة من اليهود وقد رأيت أن يخرجوا معي فنزلت هذه الآية .

فلان قيل : إنه تعالى قال (ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء) وهذه صفة الكافر .

قلنا : معنى الآية فليس من ولاية الله في شيء ، وهذا لا يوجب الكفر في تحريم موالاة الكافرين .

واعلم أنه تعالى أنزل آيات كثيرة في هذا المعنى منها قوله تعالى (لا تتخذوا بظنكم دينكم) وقوله (لا تعبدوا هؤلاء الذين آمنوا باليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) وقوله (لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) وقوله (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء) وقال (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) .

واعلم أن كون المؤمن موالياً للكافر بمنزل ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون راضياً بكفره ويتولاه لأجله ، وهذا ممنوع منه لأن كل من فعل ذلك كان مصروباً له في ذلك الدين ، وتصريب

الكفر كفر والرضا بالكفر كفر ، فيستحيل أن يبقى مؤمناً مع كونه بهذه الصفة .

فإن قيل : ليس أنه تعالى قال (ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء) وهذا لا يوجب الكفر فلا يكون داخلًا تحت هذه الآية ، لأنه تعالى قال (يا أيها الذين آمنوا) فلا بد وأن يكون مخاطباً في شيء يبقى المؤمن معه مؤمناً (وثانيها) المعاصرة الجميلة في الدنيا بحسب الظاهر ، وذلك غير محتج منه .

❖ والقسم الثالث ❖ وهو كالمقوسط بين القسمين الأولين هو أن موالاته الكفار بمعنى انكون إليهم والمعونة ، والمظاهرة ، والتصرة إما بسبب القرابة ، أو بسبب المحبة مع اعتقاد أن دينه باطل فهذا لا يوجب الكفر إلا أن مهى عنه ، لأن الموالات بهذا المعنى قد غمره إلى إسحسان طريقته والرضا بدينه ، وذلك يخرج عن الإسلام فلا يجرم هذه الله تعالى فيه فقال (ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء) .

فإن قيل : لم لا يجوز أن يكون المراد من الآية النهي عن اتحاد الكافرين أولياء بمعنى أن يتولواهم دون المؤمنين ، فلما بدأ بتولواهم ونولوا المؤمنين معهم فذلك ليس بمنهي عنه ، وأيضاً فضوله (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء) فيه زيادة مزية ، لأن الرجل قد يوالي غيره ولا يتخذ مالياً فالنهي عن اتحاد مواليا لا يوجب النهي عن أصل مولاه .

فلما : هذان الاحتمالان وإن قاما في الآية إلا أن سائر الآيات الدالة على أنه لا تخور موالاتهم ذلك على سقوط هذين الاحتمالين .

❖ المسألة الثانية ❖ إنما كسرت الذال من يتخذ لأنها مجزومة للمهي ، وحركت لاجتماع الساكنين فإن الزجاج : ولو رفع على الخبر لجاز ، ويكون المعنى على الرفع أن من كان مؤمناً فلا ينبغي أن يتخذ الكافر ولياً .

واعلم أن معنى النهي ومعنى الخبر يضاربان لأنه متى كانت صفة المؤمن أن لا يوالي الكافر كان لا محالة منهيًا عن موالاته الكافر ، ومتى كان منهياً عن ذلك ، كان لا محالة من شأنه وطريقته أن لا يفعل ذلك .

❖ المسألة الثالثة ❖ قوله (من دون المؤمنين) أي من غير المؤمنين كقوله (وادعوا شهداءكم من دون الله) أي من غير الله ، وذلك لأن لفظ دون يختص بالمكان ، تقول : زيد جلس دون عمبرو أي في مكان أسفل منه ، ثم إن من كان مبيئاً للغير في المكان فهو متباير له

فجعل لفظ دور مستعملاً في معنى غير ، ثم قال تعالى (ومن بعد ذلك فليفرق بين الله في شيء) وفيه حذف ، والمعنى فليس من ولاية الله في شيء ، يقع عليه اسم لولاية يعني أنه مسح من ولاية الله تعالى رأساً ، وهذا أمر معقول فإن موالاة الأولى ، وموالاة عدوه مبدل في الشاعر :

تسود حادوي ثم نزعهم أنسي هديفك ليس اليك عنك معازب

ويجئ من أن يكون المعنى : فليس من دين الله في شيء ، وهذا المفع

ثم قال تعالى (إلا أن تنفوا عنهم نفاء) وفيه مساند

في المسألة الأولى في قول الكسائي : نفاء الإملة ، وإفرا يافع ، وهرزة : بين التصحيح والإملة ، والياقوت بالفخيم ، وإفرا يعنوب لقبه ، وإنما جاءت الإملة لخود أن الألف من الياء ، ونفاء وزنها فعلة نحو نودة ونخمة ، ومن فخم فلاجل حرف المستعمل وهو التثاقف .

في المسألة الثانية في قول التوحيدي : تقيته نفاء ، وتقي ، وتقية ، وتنبوي ، فلا فحش في التقيت كان مصدره الانتفاء ، وإنما قال تنفوا له قال نفاء ولم يقل نفاء اسم وصح موقع المصدر ، كي يقال : جلس جلسة ، وركب ركبة ، وقال الله تعالى (تفضلها زهبا بغير حساب) وأنها توباً حسناً ، وقال الشاعر

وبعد عطائك ، ثلاثة الرزاعا

فجاءه شري الإعطاء ، قال : ويجوز أن يجعل نفاء ههنا مثل رماة فيكون حالاً مؤكداً

في المسألة الثالثة في قول الحسن أحد مسيلمة الكذاب رحلين من أصحاب رسول الله ﷺ فقال لأحدهما : أشهد أن محمداً رسول الله ﷺ قال : نعم بعد نعم ، فقال : فشهدت أني رسول الله ﷺ قال : نعم ، وكان مسيلمة يزعم أنه رسول بني حنيفة ، ومحمد رسول قريش ، فتركه ودعا الآخر فقال أشهد أن محمداً رسول الله ﷺ قال : نعم ، قال : أشهد أني رسول الله ﷺ فقال : بئس أصحاب ثلاثاً ، فصدعه وفنله فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : أما هذا المقول فمضى على يديه وصدقته فمئباً له ، وأما الآخر فقد رخصه الله فلا تبعة عليه

واعلم أن ضمير هذه الآية قوله تعالى (إلا من أكره) وفيه مظهران (الإنكار) .

في المسألة الرابعة في قوله أن تلتفئة أحكاماً كثيرة وسحق تذكر بعضها .

في الحكم الأول في أن التفتية إنما تكون إذا كان المرحل في قوم كفار ، ويجلب منهم على

نفسه وماله قيد ريبهم باللسان ، وذلك بأن لا يظهر العدواة باللسان ، بل يجوز أيضاً أن يظهر التكلام المنوهم للمعصية والموالاة ، ولكن بشرط أن يضمّر خلافه ، وأن يعرض في كل ما يقول ، فإن النقية تأثيرها في الطاهر لا في أحوال القلوب .

﴿ الحكم الثاني للنقية ﴾ هو أنه لو اضمحج بالإيمان والحق حيث يجوز له النقية كان ذلك أفضل ، ودليله ما ذكرناه في قصة مسيلمة .

﴿ الحكم الثالث للنقية ﴾ أب إنما يجوز بها يتعلق باظهار الموالاة والعداوة ، وقد يجوز أيضاً ما يتعلق باظهار الدين دأباً ما يرجع ضرره إلى الغير كالقتل والثرثا ونصب الأموال والشهادة بالزور وبذات المحصنات وإطلاع الكفار على عورات المسلمين ، فذلك غير جائز البتة .

﴿ الحكم الرابع ﴾ ظاهر الآية يدل أن النقية بما نخل مع لكفار الغالبيين إلا أن مذهب الثنفي رضي الله عنه أن الحانة بين المسلمين إذا شاكلت الحانة بين المسلمين والمشركيين حلت النقية محاربة على النفس .

﴿ الحكم الخامس ﴾ النقية جائزة لصون النفس ، وعلى هي جائزة لصون المال بخمس أن يحكم فيها بالجواز ، لقوله ﷺ : حرمة مال المسلم كحرمة دمه ، وقوله ﷺ : من قتل دون ماله فهو شهيد ، ولأن الحاجة إلى المال شديدة والماء إذا بيع بالخمس سقط فرض الوصوه ، وحز الاقتصار على التجم دفعاً لذلك القدر من نقصان المال ، فكيف لا يجوز ههنا دفعه أعلم .

﴿ الحكم السادس ﴾ فإن محاهد : هذا الحكم كان ثالثاً في أول الإسلام لأجل ضعف المؤمنين فأما بعد قوة دولة الإسلام فلا ، وروى عوف عن الحسن : أنه قال النقية جائزة للمؤمنين إلى يوم القيامة ، وهذا القول أولى ، لأن دفع الضرر عن النفس واجب بغض الإمكان . ثم قال تعالى (ويجزركم الله نفسه) وقوله فولان (الأول) أن فيه محدوداً ، والتقدير : ويجزركم الله عقاب نفسه ، وقال أبو مسلم المعنى (ويجزركم الله نفسه) أن تعصوه وتسنحوا عتبه والغاشية في ذكر النفس أنه لو قال : ويجزركم الله فهذا لا يبيد . أن الذي أريد التحذير منه هو عقاب يصدر من الله أو من غيره ، فلما ذكر النفس زال هذا الاستنباه ، ومعلوم أن العقاب الصادر عنه يكون أعظم أنواع العقوب بكونه عادواً على ما لا نهاية له ، وأنه لا قدرة لأحد على دفعه وصحه مما أورد .

﴿ والقول الثاني ﴾ أنه النفس ههنا تنمرد إلى اتخاذ الأولياء من الكفار ، أي بنهاهم الله

قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
 وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٥﴾

عن نفس هذا الفصل

ثم قال (وبي الله البصير) والمعنى : رب الله يحذركم عقابه عند خبركم إلى الله

قوله تعالى ﴿ قل إن تحفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في
 لأرض والله على كل شيء قدير ﴾

اشهد أنه تعالى لا يبي المؤمنين عن اتحاد الكافرين أو بقاء ظاهراً أو باخياً واستثنى عنه
 لظنية في الظاهر أتبع ذلك بالوعيد على أن يصير اليقين موافقاً لمظهر في وقت الغيبة ، وذلك
 لأن من أتته عند التنبؤ على إظهار المولاة ، فقد يصير بعدائه على ذلك العمل بحسب الظاهر
 سبباً لحصول تلك المولاة في الباطن ، فلا جرم من تعالى أنه تعالى بالباطن كعلمه الظاهر ،
 ويعلم الباطن أنه لا يد أن يجاريه على كل ما عزم عليه في قلبه ، وفي الآية سوالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ هذه الآية حكمة شرعية فقوله ﴿ إن تحفوا ما في صدوركم أو تبدوه ﴾
 شرط وقوله (يعلمه الله) جزاء ولاشك أن الجزاء مترتب على الشرط متأخر عنه ، فهذا يقتصر
 حدوث علم الله تعالى .

(والجواب) أن تعالى علم الله تعالى بأنه حصل الآن لا يحصل إلا عند حصوله الآن ،
 ثم إن هذا التعليل المحدد إما وقع في السبب والإضافات والتعليقات لا في حقيقة العلم . بهذه
 المسألة ما غور عظيم وهي مذكورة في علم الكلام .

﴿ السؤال الثاني ﴾ عن البواطن والضرائر هو القلب ، فمن قال (إن تحفوا ما في
 صدوركم) ولم يقل (إن تحفوا ما في قلوبكم) ؟

(الجواب) لأن القلب في الصدر ، محذرة إقامة الصدر مقام القلب كما قال (سوسيس في
 صدور انفس) وقال (فانها لا تعني الابصار ولكن تعني القلوب التي في الصدور) .

﴿ السؤال الثالث ﴾ إن كانت هذه الآية وعيداً على كل ما يخفى بالباطن فهو تكليف ما لا
 يطاق .

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ
أَمَدًا يَمِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٥٠﴾

(الحوار) ذكرنا تفصيل هذا الكلام في آخر سورة البقرة في قوله (الله ما في السماوات وما في الأرض وإن تبلوا ما في أنفسكم أو تخفوه بحاسبكم به الله) .

ثم قال تعالى (ويعلم ما في السماوات وما في الأرض) .

وانتم أنه رفع على الاستئناف وهو كقوله (قاتلوهم بعدهم الله) جزم الأفاعيل ، ثم قال (ويتوب الله) فرفع ، ومثله قوله (فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل) رفعا ، وفي قوله (ويعلم ما في السماوات وما في الأرض) غاية التحذير لأنه إذا كان لا يخفى عليه شيء فيها فكيف يخفى عليه الصغير .

ثم قال تعالى (والله على كل شيء قدير) إغماضا للتحذير ، وذلك لأنه لما بين أنه تعالى عالم بكل المعلومات كان عالما بما في قلبه ، وكان عالما بمقادير استحقاقه من الثواب والعقاب ، ثم بين أنه قادر على جميع المقدورات . فكان لا محالة قادرا على إيصال حق كل أحد إليه ، فيكون في هذا تمام الوعد والترعيد ، والترغيب والترهيب .

قوله تعالى ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد ﴾ .

اعلم أن هذه الآية من باب الترغيب والترهيب ، ومن تمام الكلام الذي تقدم .

وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكرنا في العامل في قوله (يوم) وجوها (الأول) قال ابن الأنباري : اليوم متعلق بالمصير والتقدير : وإلى الله المصير يوم تجد (الثاني) العامل فيه قوله (ويحذركم الله نفسه) في الآية السابقة ، كأنه قال : ويحذركم الله نفسه في ذلك اليوم (الثالث) العامل فيه قوله (والله على كل شيء قدير) أي قدير في ذلك اليوم الذي تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وخص هذا اليوم بالذكر ، وإدكان غيره من الأيام بمنزلة في قدرة الله

تعالى تفضيلاً له لعظم شأنه كقوله (مالك يوم الدين) (الرابع) أن العامل فيه قوله (تود) والمعنى : تود كل نفس كذا وكذا في ذلك اليوم (الخامس) يجوز أن يكون متصلاً بـتفسر ، والتقدير : وأذكر يوم تجد كل نفس .

❖ المسألة الثانية ❖ اعلم أن العمل لا يبقى ، ولا يمكن وجدانه يوم القيامة ، فلا مد فيه من التأويل وهو من وجهين (الأول) أنه يجد صحائف الأعمال ، وهو قوله تعالى (إننا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) وقال (فيثبتهم مما عملوا أحصاه الله وتسوده) (الثاني) أنه يجد جزاء الأعمال وقوله تعالى (محضراً) بمقتضى أن يكون المراد أن تلك الصحائف تكون محضرة يوم القيامة ، ويحتمل أن يكون المعنى : أن جزاء العمل يكون محضراً ، كقوله (ووجدوا ما عملوا حاضراً) راعى كلا الوجهين ، فالترغيب والترهيب حاصلان .

أما قوله (وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً) ففيه سؤالان :

❖ المسألة الأولى ❖ قال الواحدي . الأظهر أن يجعل (ما) ههنا بمنزلة الذي ، ويكون (عملت) صلة له ، ويكون معطوفاً على (ما) لأول ، ولا يجوز أن تكون (ما) شرطية ، ولا كان يلزم أن ينصب (تود) أو يخفضه ، ولم يقره أحد إلا بارتفاعه ، فكان هذا دليلاً على أن (ما) ههنا بمعنى الذي .

فإن قيل : فهل يصح أن تكون شرطية على قراءة عبد الله ، ردت

قلنا : لا كلام في صحته لكن الحمل على الابتداء والخبر أوقع ، لأنه حكاية حال الكافر في ذلك اليوم ، وأكثر مواضع القراءة المشهورة .

❖ المسألة الثانية ❖ الواو في قوله (وما عملت من سوء) فيه قولان (الأول) وهو قول أبي مسلم الأصفهاني : الواو واو انعطاف ، والتقدير : تجد ما عملت من خير وما عملت من سوء ، وأما قوله (تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً) ففيه وجهان (الأول) أنه صفة للسوء ، والتقدير : وما عملت من سوء الذي تود أن يجد ما بينها وبينه (الثاني) أن يكون حالاً ، والتقدير : يرم تجد ما عملت من سوء محضراً حال ما تود بعتد عنها .

❖ والمقول الثاني ❖ أن الواو للاستئناف ، وعلى هذا الفسوف لا تكون الآية دليلاً على القطع بوجوب المدببين ، وموضع الكرم واللفظ هذا . وذلك لأنه نص في جانب الثوب عن كونه محضراً وأما في جانب العصاب فلم ينص على الحضور ، بل ذكر أنهم يودون الغرار منه ، والبعث عنه ، وذلك ينه على أن جانب الوعد أولى بالوقوف من جانب الوعيد .

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الأمد . العدة التي تنتهي إليها . ونظيره قوله تعالى (يا ليت بيي وبينك بعدة المخترين فيمن الغفريين) .

واعلم أن المراد من هذا المقتضى معلوم ، سواء حملت لفظ الأمد على الزمان أو على المكان . إذا اقتضود معنى بعدة ، ثم قال (ويحذركم الله نفسه) وهو تأكيد لتوحيد (والله رؤف بالعباد) وفيه وجوه (الأول) أنه رؤف بهم حيث حذرهم من نفسه ، وعمرهم كمال علمه بقدرته ، وأنه يهمل ولا يهمل ، ورغبتهم في استبجاف رحمته ، وحذرهم من استحقاق عصبه ، قال الحس : ومن رؤفته بهم أن حذرهم نفسه (الثاني) أنه رؤف بالعباد حيث أمهلهم للتوبة والتذكر والتلاقي (الثالث) أنه لما قال (ويحذركم الله نفسه) وهو لتوبيد أتبعه بقوله (والله رؤف بالعباد) وهو لتوبيد ليعلم العبد أن وعدة ورحمته ، عاب على وعده وسخطه (والرابع) وهو أن لفظ العباد في القرآن يختص : قال تعالى (وعبدوا الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا) وقال تعالى (عينا يشرب بها عباد الله فكأن المضي أنه لما ذكر رعب الكفار والفاسق ذكر وعد أهل الطاعة فقال (والله رؤف بالعباد) أي كما هو مستحق من الفاسق ، فهو رؤف بطغيين والمحبين .

قوله تعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبك الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ .

اعلم أنه تعالى لا يدعو القوم إلى الإيمان به ، ولا يثبت برسله على سبيل التهديد والوعيد ، دعاهم إلى ذلك من طريق آخر وهو أن اليهود كانوا يقولون (نحن أبناء الله وأحباؤه) فنزلت هذه الآية ، وبروي أنه لما وقف على قريش وهم في المسجد أحرام يسجدون للأصنام فقال يا معشر قريش والله لقد خالفتم ملة إبراهيم ، فعالت قريش : إنما نعبد هذه حبا لله تعالى ليسربونا إلى الله زلفى ، فنزلت هذه الآية ، وبروي أن النصارى قالوا : إنما نعظم المسيح حبا لله ، فنزلت هذه الآية ، وباحتمال فكل واحد من مرقى لعقلاء يدعي أنه يحب الله ، ويطلب رضاه وعلاقته فقال لرسوله ﷺ : قل إن كنتم صادقين في ادعاء محبة الله تعالى فتكونوا متقدين لأوامره وعثرين من محبته ، وتقليد الكلام : أن من كان محبا لله تعالى لا بد وأن يكون في

غاية الجدل من يوجب سقوطه ، وإذا قامت الدلالة القطعية على نية محمد ﷺ وحيث متابعتها ، فإن لم تحصل هذه المتابعة دل ذلك على أن تلك المحبة ما حصلت .

وفي الآية مسائل :

❖ المسألة الأولى : أما الكلام نستقصي في المحبة ، فقد تقدم في تفسير قوله تعالى (والذين آمنوا بشهد حيا لله) والمتكلمون معصرون على أن محبة الله تعالى عبارة عن محبة إعظامه وإجلاله ، أو محبة طاعته ، أو محبة شؤبه ، قالوا : لأن المحبة من حبس الإرادة ، والإرادة لا تتعلق له إلا بالحوادث ولا بالمفاهيم .

واعلم أن هذا القول ضعيف ، وذلك لأنه لا يمكن أن يقال في كل شيء إنه إنما كان محبوباً لأجل معنى آخر وإلا لزم التسلط والدور ، فلا بد من الانتهاء إلى شيء يكون محبوباً بالذات ، كما أننا نعلم أن الندة محبوبة لذاتها ، فكذلك نعلم أن الكمال محبوب لذاته ، وكذلك أنا إذا سمعنا أحداً يستمر واستغنى في شجاعته ما كان القلب يليق مع أنا نفهم بأنه لا فائدة لنا في ذلك الكمال ، من ربما يعتقد أن تلك المحبة محبة لا يجوز ما أنصر عليها ، فعلمت أن الكمال محبوب لذاته ، كما أن الندة محبوبة لذاتها ، وكما أن الكمال لله سبحانه وتعالى ، فكان ذلك يقتضي كونه محبوباً لذاته من ذاته ومن المقربين عنده الذين تجل بهم أثر من آثار كماله وجلاله قال المتكلمون : وأما محبة الله تعالى للعبد فهي عبادة عن إرادته تعالى يعصاها الخيرات والمنافع في الدين والدنيا إليه .

❖ المسألة الثانية : أقوم كانوا يدعون أنهم كانوا محبين لله تعالى ، وكانوا يطهرون الرغبة في أن يحبهم الله تعالى ، والآية مشتملة على أن الإكراه من وجهين (أحدهما) إن كنتم تحبون الله فاتبعوني ، لأن المحرمات دلت على أنه تعالى أوجب عليكم متابعتي (الثاني) إن كنتم تحبون أن يحبكم الله فاتبعوني لأنكم إن اتبعتموني فقد أضعتم الله ، والله تعالى يحب كل من أطاعه ، وأيضاً طيسر في متابعتي إلا أبي دعوتكم إلى طاعة الله تعالى وتعظيمه وترك تعظيم غيره ، ومن أحب الله كان راعياً فيه ، لأن المحبة توجب الإقبال بالكلية على المحبوب ، والإعراض بالكلية عن غير المحبوب .

❖ المسألة الثالثة : نحاض صاحب الكشف في هذا المقام في النظم في أولياء الله تعالى وكتب ههنا ما لا يلحق بالعاقل أن يكن مثله في كتب المنحش ههنا أنه اجترأ على الطعن في أولياء الله تعالى فكيف اجترأ على كنية مثل ذلك الكلام المنحش في تفسير كلام الله تعالى ، نسأل الله العصمة والهداية ، ثم قال تعالى (وبغفر لكم ذنوبكم) والمراد من محبة الله تعالى

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾

له إظهاره الشراب ، ومن عفران ذنبه إزالة العقاب ، وهذا غاية ما يطلبه كل عاقل ، ثم وإن (والله غفور رحيم) يعني غفور في الدنيا يستتر على العبد أنواع المعاصي رحيم في الآخرة بفضله وكرمه .

قوله تعالى ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ .

يرى أنه لما نزل قوله (هل إن كنتم تحبون الله) الآية قال عبد الله بن أبي : إن محمداً يجعل طاعته كطاعة الله ، وبما نزلنا أن نجه كما أحبت النصارى عيسى . فنزلت هذه الآية ، وتحقير الكلام أن الآية الأولى لا تقتض وجوب طاعته ، ثم إن المذاق ألقى شبهة في الدين ، وهي أن محمداً يدعي لنفسه مثل ما يقوله النصارى في عيسى ، ذكر الله تعالى هذه الآية إزالة ذلك شبهة ، فكان (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ) يعني إنما أوجب الله عليكم طاعتي لا كما تقول النصارى في عيسى بل تكوني رسولاً من عند الله ، بل كان مبلغ التكليف من الله هو الرسول لئلا أن تكون طاعته واجبة فكان يجب المتابعة هذا المعنى لأجل الشبهة التي ألقاها المنافق في الدين

ثم قال تعالى (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ) يعني إن أعرضوا فإنه لا يحصل ضمعة الله ، لأنه تعالى إنما أوجب الشاء والملاح من أطاعه ، ومن كفر استوجب الدنة والإهانة ، وذلك صدق الحق والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذَرِيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين أن محمداً لا تتم إلا باتباعه الرسول بين علو درجات الرسل وتبرف مناصبهم فقال (إن الله اصطفى آدم) وفي الآية مسائل

﴿ المسألة الأولى ﴾ : علم أن المحلوفات على نسمين : المكلف وغير المكلف وتغزو على أن المكلف أصل من غير المكلف ، وتغزو عن أن أصناف المكلف أربعة : الملائكة ، والإنس ، والجِن والنباطين . أما الملائكة ، فقد روي في الأخبار أن الله تعالى خلقهم من الریح ومنهم من احتج بوجود عقابه على صحة ذلك (فالأول) أنهم لهذا السب قد ذروا على الضدان على أسرى الوجوه (والثاني) لهذا السب قد ذروا على عمل النرجس ، لأن الریح تقوم بحسن الأشياء

إِنْ أَلَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا ۖ وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ ۖ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

(الثالث) لهذا السبب سموا وحاشين ، وجاء في رواية أخرى أنهم خلقوا من النور ، ولهذا صفت واخلفت الله تعالى والأولى أن يجمع بين القولين فيقول : أبدانهم من الريح وأرواحهم من النور فهذا هم سكان عالم السموات ، أما الشياطين فهم كفرة أما إبليس فكفره ظاهر لقوله تعالى (وكان من الكافرين) وأما سائر الشياطين فهم أيضاً كفرة بتبليغ قوله تعالى (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن طمعتموهم إنكم لمشركون) ومن خواص الشياطين أنهم بأسرها أعداء تبشر قال تعالى (فضق عن أمر ربه اتخذونه وذرئته أولياء من دوني وهم لكم عدو) وقال (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن) ومن خواص الشياطين كونهم مخلوقين من النار قال الله تعالى حكاية عن إبليس (خلقتني من نار وخلقتني من طين) وقال (والجن خلقناه من قبل من نار السموم) فاما نحن فنعلم كفر ومنهم مؤمن ، قال تعالى (وأن من المسلمين ومن الفاسقون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً) وأما الإنس فلا شك أن هم والدأ هو والذهب الأول ، وإلا للذهب إلى ما لا نهاية والقرآن دل على أن ذلك الأول هو آدم عليه السلام على ما نقل تعالى في هذه السورة (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) وقال (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها) .

إذا عرفت هذا فيقول : انقض العناء على أن البشر أفضل من الجن والشياطين ، واختلفوا في أن البشر أفضل أم الملائكة ، وقد استغنيا هذه المسألة في تفسير قوله تعالى (مسجوداً لآدم فسجدوا) والمائلون بأن البشر أفضل تمسكوا بهذه الآية ، وذلك لأن الاصطفاء يدل على مزيد الكرامة وعلو الدرجة ، فلما بين تعالى أنه اصطفى آدم وأولاده من الأنبياء على كل العالمين وجب أن يكونوا أفضل من الملائكة لكونهم من العالمين .

فإن قيل : إن حملنا هذه الآية على تفضيل المذكورين فيها على كل العالمين أهى إلى التنقض لأن الجميع الكثير إذا وصفوا بأن كل واحد منهم أفضل من كل العالمين يلزم كون كل واحد منهم أفضل من كل العالمين يلزم كون كل واحد منهم أفضل من الآخر وذلك محال ، ولو حملناه على كونه أفضل عالمي زمانه أو عالمي جنسه ثم يلزم التنقض ، فوجب حملها على هذا المعنى دفعاً للتنقض وأيضاً قال تعالى في صفة بني إسرائيل (وإني فضلكنم على العالمين) ولا

يلزم كونهم أفضل من محمد ﷺ بل قلنا : المراد به عالمو زمان كل واحد منهم ، والجواب يظهر في قوله : اصطفى آدم على العالمين ، يتناول كل من يصح إطلاق لفظ العالم عليه فيدرج فيه الملك . غاية ما في هذا الباب أنه ترك العمل بعمومه في بعض الصور لدليل قائم عليه . فلا يجوز أن يترك في سائر الصور من غير دليل .

﴿ مسألة الثانية ﴾ (اصطفى) في اللغة اختار . فمعنى : اصطفاه ، أي جعلهم صفوة خلقه ، تشبيهاً بما شاهد من الشيء الذي يصفى ويبقى من الكدورة ، ويقال عن ثلاثة أوجه : صفوة ، وصفوة وصفوة ، ونظير هذه الآية قوله لوسى (إني اصطفتك على الناس برسالتي) وقال في إبراهيم (وسحق ويعقوب وبهم عهدنا لمن المصطفىين الأخير) .

إذا عرفت هذا فنقول . في الآية قولان (الأول) المعنى أن الله اصطفى دين آدم ودين نوح فيكون الاصطفاء راجعاً إلى دينهم وشرعهم وملتهم ، ويكون هذا المعنى على تقدير حذف النضاف (والثاني) أن يكون المعنى : يد الله اصطفاهم ، أي صفاهم من الصفات الذميمة ، وزينهم بخصال الحميدة ، وهذا القول أولى لوجهين (أحدهما) أننا لا نحتاج فيه إلى الإيضاح (والثاني) أنه موافق لقوله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وذكر الخبيث في كتاب المنهاج أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا بد وأن يكونوا محامدين لمبرهم في لقوى اجسانية ، والقوى الروحانية ، « ما القوى الجسانية ، فهي إم مدركة ، وإما عمركة .

﴿ أما المدركة ﴾ فهي إم الحواس الظاهرة ، وإما الحواس الباطنة ، أم الحواس الظاهرة فهي خمسة (أحدها) القوة الباصرة ، ولقد كان الرسول ﷺ محصوراً بكماله هذه الصفة وبدل عليه وجهان (الأول) قوله ﷺ « زويت لي الأرض فأريت مشارقتها ومغارها » (والثاني) قوله ﷺ « أخيموا صغوفكم وتراصوا فأنى أراكم من وراء ظهري » ونصير هذه القوة ما حصل لإبراهيم ﷺ وهو قوله تعالى (وكذلك يرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض) ذكر وفي نصيبه أنه تعالى قرى بصره حتى شاهد جميع الملكوت من الأعلى والأسفل فإن الخليقي رحمه الله : وهذا غير مستبعد لأن البصر يتفاوتون فروقاً أزفاً الهامة كانت بصر الشيء من سيرة ثلاثة أيام ، فلا يبعد أن يكون بصر النبي ﷺ أقوى من بصرها (وثانيها) القوة السامعة . وكان ﷺ أقوى البصر في هذه القوة ، وبدل عليه وجهان (أحدهما) قوله ﷺ « أظنت السماء ، حتى إذا أن نظمت فيها موضع قدم إلا وجهي ملك ساجد لله تعالى » نسمع أظنت السماء (والثاني) أنه سمع دويماً وذكر أنه هوى صخرة فذهبت في جهنم فيه تبلغ قعرها إلى الآن ، قال الخليقي : ولا سبيل للتلاسل إلى استبعاد هذا ، فإنهم زعموا أن فينا عورت راض نفسه حتى سمع حفيف الغلظك ، ونظير هذه القوة لسلطان عليه السلام في قصة النمل (قالت

ثُمَّ يَا أَيُّهَا الثَّمَلِ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ) فإله تعالى أسمع سليمان كلام الثمل وأوقفه على معتبه وهذا داخل أيضاً في باب تقوية المفهم ، وكان ذلك حاصلاً لمحمد ﷺ حين تكلم مع الغائب ومع اليعرب (وثالثها) تقوية قوة الشم ، كما في حق يعقوب عليه السلام ، فإن يوسف عليه السلام لما أمر بحمل قميصاً إليه وإلقائه على وجهه ، قلما فصلت العبر غالب يعقوب (إنني لأجد ريح يوسف) فأحس بها من مسيرة أيام (ورابعها) تقوية قوة الذوق ، كما في حق رسولنا ﷺ حين قال : إن هذا الذراع يجبرني أنه سموم (وخامسها) تقوية القوة الثلاثة كما في حق الخليل حيث جعل الله تعالى النار برداً وسلاماً عليه ، فكيف يستبعد هذا وشاهد مثله في السمندل والنعامة ، وأما الحواشي الباطنية فمعناها قوة الحفظ ، قال تعالى (سنقرئك فلا تنسى) ومنها قوة الذكاء قال علي عليه السلام : علمني رسول الله ﷺ ألف باب من العلم واستبقيت من كل باب ألف باب ، فإذا كان حال الولي هكذا ، فكيف حال النبي ﷺ .

﴿ وأما القوى المحركة ﴾ فمثل عروج النبي ﷺ إلى المعراج ، وعروج عيسى حياً إلى السماء ، ورفع إدريس إلياس على ما وردت به الأخبار ، وقال الله تعالى (قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرند إليك طرفك) .

﴿ وأما القوى الروحانية العملية ﴾ فلا بد وأن تكون في غاية الكمال ، ونهاية الصفاء .

ولعلم أن تمام الكلام في هذا الباب أن النفس القدسية النبوية مخالفة عمايتها لساير النفوس ، ومن لوازم تلك النفس الكمال في الذكاء ، والفتنة ، والحرية ، والاستعلاء ، والترفع عن الجسديات والشهوات ، فإذا كانت الروح في غاية الصفاء والشرف ، وكان البدن في غاية النقاء والظهور كانت هذه القوى المحركة والمدركة في غاية الكمال لأنها جارية بحرى أنوار فائضة من جواهر الروح واصله إلى البدن ، ومتى كان الفاضل والقابل في غاية الكمال كانت الأثر في غاية القوة والشرف والصفاء .

إذا عرفت هذا بقوله (إن الله اصطفى آدم ونوحاً) مناه : إن الله تعالى اصطفى آدم إما من سكان العالم السفلي على قول من يقول : الملك أفضل من البشر ، أو من سكان العالم العلوي على قول من يقول : البشر أشرف المخلوقات ، ثم وضع كمال القوة الروحانية في شعبة معتبة من أولاد آدم عليه السلام ، هم شيث وأولاده ، إلى إدريس ، ثم إلى نوح ، ثم إلى إبراهيم ، ثم حصل من إبراهيم شعبتان : إسماعيل وإسحق ، فجعل إسماعيل مبداً لظهور الروح القدسية لمحمد ﷺ ، وجعل إسحق عبداً لشعبتين : يعقوب ويعيسو ، فوضع النبوة في نسل يعقوب ، ووضع الملك في نسل يعيسو ، واستمر ذلك إلى زمان محمد ﷺ ، فلما ظهر محمد

﴿ نَفَل تَوْر السَّوَّة وَوَر اَمَلَك اِلَى مَحْمَدٍ ﴾ ، وَبَقِيَ اَعْنَى لَدِيْن وَالْمَلِك لِاَتْبَاعِهِ اِلَى قِيَامِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ تَأَمَّلَ فِي هَذَا الْبَابِ يَحْصُلُ اِلَى سِرِّرٍ عَجِيْبَةٍ

﴿ تَسْأَلُهُ الْاِثْنَانِ ﴾ مِنْ النَّاسِ مَنْ قَالَ : الْمُرَادُ بِأَلْ إِبْرَاهِيْمَ الْيُوسُفَ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ (اَدْخُلُوا اِلَ فِرْعَوْنَ) ، وَالصَّحِيْحُ اَنْ الْمُرَادُ بِهِمُ الْاَوْلَادُ ، وَهَمَّ اَمْرٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى (اِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ اِمَامًا ذَاكٌ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنْتَ اِلَّ عَهْدِي اَتَقَاتِلِيْنِ) وَاَمَّا اَنْ عَمْرُوْنَ عِنْدَ اَخْتِلَافٍ فِيهِ ، فَهَمَّهُمْ مَنْ قَالَ الْمُرَادُ عَمْرَانُ وَالِدُ مُوسَى وَهَارُونَ ، وَهُوَ عَمْرَانُ بْنُ يَصْغَرٍ بْنِ قَاهِتٍ بْنِ لَازِيٍّ مِنْ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيْمَ ، فَيَكُونُ الْمُرَادُ مِنْ أَلْ عَمْرَانُ مُوسَى وَهَارُونَ وَأَبْنَاؤُهُمَا مِنْ الْاَنْبِيَاءِ ، وَهَمَّهُمْ مَنْ قَالَ : سَلِ الْمُرَادُ : عَمْرَانُ بْنُ مَاتَانَ وَالِدُ مَرْيَمَ ، وَكَانَ هُوَ مِنْ نَسْلِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ بْنِ إِدْرِيسَ ، وَكَانُوا مِنْ نَسْلِ جُونَا بْنِ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيْمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامَةُ وَالسَّلَامُ ، قَالُوا : وَبَيْنَ الْعَمْرَانِيْنِ اَلْقَبِيلَتَانِ ثَلَاثَةُ سَنَةٍ ، وَاسْتَحْجَ مِنْ قَالَ هَذَا الْخَطْبُ عَلَى صَحْتِهِ بِأَمْرٍ (أَحَدُهُمَا) اَنْ الْمَذْكُورَ عَقِبَ قَوْمِهِ (وَالْاُخَرُ عَمْرَانُ عَمَلِي الْعَالِي) هُوَ عَمْرَانُ بْنُ مَاتَانَ جَدُّ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ قَبْلِ الْاَمِّ ، فَكَانَ صَرَفَ الْكَلَامِ اِلَيْهِ اَوَّلِي (وَثَانِيَا) اَنْ الْمَقْصُودُ مِنَ الْكَلَامِ اَنْ النَّصَارَى كَانُوا يَحْتَجُونَ عَلَى اِفْتِيْ عَيْسَى بِالْخَوَارِجِ الَّتِي ظَهَرَتْ عَلَى يَدِيهِ ، فَالْتَفَتَ تَعَالَى بِقَوْلٍ : اِنَّمَا ظَهَرَتْ عَلَى يَدِيْ اِكْرَامًا مِنْ اَللّهِ تَعَالَى (يَدِيْ) ، وَذَلِكَ لِاَنَّهُ تَعَالَى اصْطَفَاهُ عَلَى الْعَالِيْنَ وَحَصَّهُ بِالْاِكْرَامَاتِ الْعَظِيْمَةِ ، فَكَانَ حُلُّ هَذَا الْكَلَامِ عَمَلِي عَمْرَانُ بْنُ مَاتَانَ اَوَّلِي فِي هَذَا الْمَقَامِ مِنْ حَمْدِهِ عَلَى عَمْرَانُ وَالِدِ مُوسَى وَهَارُونَ (وَثَالِثَا) اَنْ هَذَا الْمَقْصُودُ شَدِيدُ الْمَطَابَقَةِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى (وَجَعَلْنَاهَا اَوَسَاءَ اَلِ الْعَالِيْنَ) وَاعْلَمْ اَنْ هَذِهِ الرَّجُوحُ لَيْسَتْ دَلَالِلُ قَوِيَّةٌ ، بَلْ هِيَ اُمُورٌ ظَنِّيَّةٌ ، وَاحْصُلُ الْاِحْتِيَالِ قَائِمٌ .

أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى (ذَرِيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ) فَفِيهِ مَسْأَلَتَانِ :

﴿ الْمَسْأَلَةُ الْاَوَّلَى ﴾ فِي نَسَبِ قَوْلِهِ (ذَرِيَّةٌ) وَجَوَانِ (الْاَوَّلُ) اَنَّهُ يَدُلُّ مِنْ أَلْ إِبْرَاهِيْمَ (وَثَانِي) اَنْ يَكُونُ نَسَبًا عَلَى اِخْتِلَافٍ : اَيُّ اصْطِفَاهِمُ فِي حَالِ كَوْنِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ .

﴿ الْمَسْأَلَةُ الْاِثْنَانِيَّةُ ﴾ فِي تَأْوِيلِ لَايَةٍ وَجَوِّ (الْاَوَّلُ) ذَرِيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ فِي التَّوْحِيدِ وَالْاِحْلَاصِ وَالطَّاعَةِ ، وَتَفْظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ) وَذَلِكَ بِسَبَبِ اِشْتِرَاكِهِمْ فِي الْفَنَاءِ (وَالثَّانِي) ذَرِيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ بِمَعْنَى اَنْ غَيْرِ اَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانُوا مَوْلَدِيْنَ مِنْ اَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَيَكُونُ الْمُرَادُ بِالذَّرِيَّةِ مَنْ سِوَى اَدَمَ .

أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى (وَهُوَ سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ) فَقَدْ اَلْفَعَالُ : الْمَعْنَى وَهُوَ سَمِيْعٌ لِقَوْلِ الْعِبَادِ ، عَلَيْهِ بَضَائِرُهُمْ وَأَفْعَالُهُ ، وَإِنَّمَا يَصْطَلِقُ مِنْ خِصْمِهِ مَنْ يَعْلَمُ سَفَاهَتَهُ قَوْلًا وَفِعْلًا ، وَتَفْظِيرُهُ قَوْلُهُ

إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الْأَكَرُّ كَالْأُنْثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ بِمَ يُرِيكُ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنِّي آتِيَةٌ بِهِ رِزْقًا مِنْ فَيَسَّاءَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٧﴾

تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وقوله (أنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا منا خاشعين) وفيه وجه آخر . وهو أن اليهود كانوا يقولون : نحن من ولد إبراهيم ومن آل عمران ، فعن أبناء الله وأحباؤه ، والنصارى كانوا يقولون : المسيح ابن الله . وكان بعضهم عالما بأن هذا الكلام باطل ، إلا أنه لتطبيب قلوب العوام بني مصر أعليه ، فالتعالى كأنه يقول : والله سمع هذه الأقوال الباطلة منك ، عسى بأعراضكم انفساد من هذه الأقوال فيجاريكم عليها . فكان أول الآية بياناً لشرف الأنبياء والرسل . وآخرها تهديد لظنلاء الكذابين الذين يرفعون أنهم مستفزون على أديبهم .

واعلم أنه تعالى ذكر غريب هذه الآية فصلاً كثيرة :

القصة الأولى

واقعة حنة أم مريم عليها السلام

قوله تعالى ﴿ إِذْ نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۖ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ

كالأنثى وتبي مسجنتها مريم وإسي أعتبها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ، ففعلها ربها بقول حسن وأينتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا كلها دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أني لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴿٥﴾ .

وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في موضع (إذ) من الإعراب أقوال (الأول) قال أبو عبيدة : إنها زائدة لغواً ، والمعنى : قالت امرأة عمران ، ولا موضع لها من الإعراب ، قال الزجاج : ثم يصنع أبو عبيدة في هذا شيئاً ، لأنه لا يجوز إغناء حرف من كتاب الله تعالى ، ولا يجوز حذف حرف من كتاب الله تعالى من غير ضرورة (والثاني) قال الأخفش والمبرد : التقدير (أذكر إذ قالت امرأة عمران) ومثله في كتاب الله تعالى كثير (الثالث) قال الزجاج ، التقدير : واصطفي آل عمران علي المعلنين إذ قالت امرأة عمران ، وضمن ابن الأنباري فيه وقال : إن الله تعالى قرن اصطفاؤه آل عمران باصطفاء آدم ونوح ، ولما كان اصطفاؤه تعالى آدم ونوحاً قيل قوله امرأة عمران اسمحال أن يقال : إن هذا الاصطفاء مقيد بذلك ، لوقت الذي قالت امرأة عمران هذا الكلام فيه ويمكن أن يجاب عنه بأن أمر اصطفاؤه كل واحد إما ظهر عند وجوده ، وظهر عند طاعته ، فجاء أن يقال : إن الله اصطفي آدم عند وجوده ، ونوحاً عند وجوده ، وآل عمران عندما قالت امرأة عمران هذا الكلام (الرابع) قال بعضهم : هذا متعلق بما قبله ، والتقدير : والله سميع عليم إذا قالت امرأة عمران هذا القول

فإن قيل : إن الله سميع عليم قبل أن قالت المرأة هذا القول ، فما معنى هذا التقيد ؟

قلنا : إن سمعه تعالى وذلك الكلام مقيد بوجود ذلك الكلام فلهذا تعالى بأنها تذكر ذلك مقيد بذكرها لذلك والتعبر في العلم والسمع بما يقع في النسب والمتعلقات

﴿ المسألة الثانية ﴾ أن زكريا بن اذن ، وعمران بن ماثان ، كانا في عصر واحد ، وامرأة عمران حنة بنت قافوذ ، وقد تزوج زكريا بامته إيشاح أخت مريم ، وكان يعصى ويعصى عليها السلام ابني لحالة ، ثم في كيفية هذا القدر روايات :

﴿ الرواية الأولى ﴾ قال عكرمة : إنها كانت عاقراً لا تلد ، وكانت تغبط النساء بالاولاد ، ثم قالت : اللهم إن لك علي نذراً إن رزقتني ولداً أن أتصدق به علي بيت المقدس ليكون من سدنة .

﴿ والرواية الثانية ﴾ قال محمد بن إسحق : إن أم مريم ما كان يحصل لها ولد حتى شاخت ، وكانت يوماً في ظل شجرة قرأت طائراً يطعم فرحاله فتحركت نفسها للولد ، عدعت ربه أن يب لها ولداً فحملت بمريم ، وهلك عمران ، فلما عرفت جعلته لله محرراً ، أي خادماً للمسجد ، قال الحسن البصري : إنها إنما فعلت ذلك بإفهام من الله ولولاه ما فعلت كما رأي إبراهيم ذبح ابنه في المنام فلم أن ذلك أمر من الله وإن لم يكن من وحى ، وكما ألهم الله أم موسى فهدته في اليم وليس بوحى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المحرر الذي يجعل محرراً خالصاً ، يقال : حررت العبد إذا خلصته عن الرق ، وحررت الكتاب إذا أصلحته ، وخلصته فلم يبق فيه شيء من وجوه بطله ، ورجل حر إذا كان خالصاً لنفسه ليس لأحد عليه نعلن ، والطين الحر الخالص عن الرجل والحجارة والعمارة والمعسوب أما الضمير قليل مخلصاً للعبادة عن الشعبي ، وقيل : خالصاً للبيعة ، وقيل : عتقاً من أمر الدنيا لخدمة الله ، وقيل : خالصاً لمن يدرس الكتاب ، ويعلم في البيع ، والمعنى أنها نذرت أن تجعل ذلك الولد وفقاً على طاعة الله ، قال الأصم : لم يكن لبني إسرائيل غيبة ولا سي . فكان تحريرهم جعلهم اولادهم على الصفة التي ذكرنا ، وذلك لأنه كان الأمر في دينهم أن الولد إذا صار بحيث يمكن استخداؤه كان يجب عليه خدمة الأبوين ، فكلنوا بالنذر يتركون ذلك النوع من الانتفاع ، ويجعلونهم محررين لخدمة المسجد وطاعة الله تعالى ، وقيل : كان المحرر يجعل في الكنيسة يقوم بخدمتها حتى يبلغ الحلم ، ثم يجير بين المقام والمذهب ، فإن أبى المقام وأراد أن يذهب ذهب ، وإن اختار المقام فليس له بعد ذلك خيار ، ولم يكن نبي إلا ومن نسله عمرو في بيت المقدس .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ هذا التحرير لم يكن جائزاً إلا في الغلمان أما الجارية فكانت لا تصلح لذلك لما يصحبها من الخفي والأذى ، ثم إن حنة نذرت مطلقاً إما لأنها بنت الأمر على التقدير ، أو لأنها جعلت ذلك النذر وسيلة إلى طلب الذكر .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ في انتصاب قوله (محرراً) وجهان (الأول) أنه نصب على الحال من (ما) وتقديره : نذرت لك الذي في بطني محرراً (والثاني) وهو قول ابن قتيبة أن المعنى نذرت لك أن أجعلن ما في بطني محرراً .

ثم قال الله تعالى حاكياً عنها (فتقبل مني إنك أنت السميع العليم) التيقن : أخذ الشيء ، على الرضا ، قال الواحدي : وأصله من المقابلة لأنه يقبل بالجزء ، وهذا كلام من لا يريد به فعله إلا الطلب لرضا الله تعالى والإخلاص في عبادته ، ثم قالت (إنك أنت السميع العليم) والمعنى : أنك أنت السميع لضرعي ودعائي وثنائي ، العليم بما في ضميري وقلبي ونيتي .

واعلم أن هذا النوع من التذکر كان في شرع بني إسرائيل وغير موجود في شرعنا ، والشرائع لا يمتنع اختلافها في مثل هذه الأحكام ،

قال تعالى (فلما وضعنها) واعلم أن هذا الضمير إما أن يكون عائداً إلى الأنثى التي كانت في بطنها وكان عالماً بأنها كانت أنثى أو يقال : إنها عادت إلى انفس والنسعة أو يقال : عادت إلى التذكرة .

ثم قال تعالى (قالت رب إنني وضعتها أنثى) واعلم أن الفائدة في هذا الكلام أنه تقدم منها التذکر في تحريرها في بطنها ، وكان الغالب على ظنّها أنه ذكر فلم تشترط ذلك في كلامها ، وكانت العادة عندهم أن الذي يحور ويفرغ لخدمة المسجد وطاعة الله هو الذكر دون الأنثى فضالت (رب إنني وضعتها أنثى) خائفة أن تدرها لم يقع الموقع الذي يعتد به ومعتدّة من إطلاوها التذکر المتقدم فذكرت ذلك لأعلى سبيل الإعلام لله تعالى ، تعالى الله عن أن يحتاج إلى إعلامها ، بل ذكرت ذلك على سبيل الاعتذار .

ثم قال الله تعالى (والله أعلم بما وضعت) قرأ أبو بكر عن عاصم وابن عباس (وضعت) مرفوع الثناء على تقدير أنها حكاية كلامها ، والفائدة في هذا الكلام أنها لما قالت (إنني وضعتها أنثى) خافت أن يظن بها أنها تغير الله تعالى ، فأزالت السهة بقولها (والله أعلم بما وضعت) وثبت أنها إنما قالت ذلك للاعتذار لا للإعلام ، والبقرون بالجرم على أنه كلام الله ، وعلى هذه القراءة يكون المعنى أنه تعالى قال : والله أعلم بما وضعت تعظيماً لولدها ، وتجهيلاً بما يقدر ذلك الولد ، ومعناه : والله أعلم بالشيء الذي وضعت وبما علق به من عظامه الأمور ، وأن يجعله وولده آية للعالمين ، وهي جاهلة بذلك لا تعلم منه شيئاً فذلك تحسرت ، وفي قراءة ابن عباس (والله أعلم بما وضعت) على خطاب الله لها ، أي : أنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب والله هو العالم بما فيه من العجائب والآيات .

ثم قال تعالى حكاية عنها (وليس الذكر كالأنثى) وفيه قولان (الأول) أن مرادها تفصيل الولد الذكر عن الأنثى ، وسبب هذا التفصيل من وجوه (أحدها) أن شرعهم أنه لا

بحوز تحرير المذكور تون لإثبات (والثاني) أن الذكر يصح أن يشعر على خدمة موضع العبادة . ولا يصح ذلك في الأنثى مكان الخيض وماء عوارض السوان (والثالث) الذكر يصلح لقوته وشدة الخدمة دون الأنثى فإنها ضعيفة لا تقوى على الخدمة (والرابع) أن الذكر لا يصح عيب في الخدمة . ولا خلاف بانفس وليس كذلك الأنثى (والخامس) أن الذكر لا يلحقه من النجاسة عند الاحتلام بلحق الأنثى بهذه الموجبة تقتضي فضل الذكر على الأنثى في هذا المعنى .

❖ والقول الثاني في أن المقصود من هذا الكلام ترجيح هذه الأنثى على الذكر . كأنها قالت الذكر مطلوب ومعه لاشى موهوبة الله تعالى . وليس الذكر الذي يكون مطلوب كالأشئ التي هي موهوبة لله . وهذا الكلام يدل على أن تلك المرأة كانت مستغرقة في معرفة حلال الله تعالى . لأن ما يفعله الرب بالعبد خير مما يريد العبد لنفسه

ثم حكى تعالى عهد كلاً ما أتياً وهو قوطها (وإني سئبتها مريم) وفي أبحاث
❖ البحث الأول في أن ظاهر هذا الكلام يدل على ما حكينا من أن عمران كان قد مات في حال حمز حنة مريم . ولذلك مولت الأم تسعنها . لأن العادة أن ذلك يتولد أولاً .

❖ البحث الثاني في أن مريم في لغتهم العبيدة . فأرادت بهذه التسمية أن تطلب من الله تعالى أن يحصنها من أفات الدين والدنيا . والذي يؤكده هذا قولها بعد ذلك (وإني أعيدها بك ودرتها من الشيطان الرجيم)

❖ البحث الثالث في أن قوله (وإني سئبتها مريم) معناه : وإني سئبتها بهذا اللفظ أي جعلت هذا اللفظ اسماً لها . وهذا يدل على أن الإسم والمسمى والتسمية أمور ثلاثة متفترقة

ثم حكى الله تعالى عنها كلاً ما أتياً وهو قوطها (وإني أعيدها بك ودرتها من الشيطان الرجيم) وذلك لأنه لا فلها ما كانت تريد من أن يكون رجلاً عادماً للمسحة تصرفت إلى الله تعالى في أن يحفظها من الشيطان الرجيم . وأن يجعلها من الصالحات المقاتلات . وتعتبر الشيطان الرجيم قد تقدم في أول الكتاب .

وقد حكى الله تعالى عن حنة هذه الكلمات قال (فقبليها ربهما يقبلون) وفيه ملأان .

❖ المسألة الأولى في إني قال (فقبليها ربهما يقبلون حسن) ولم يقل : فقبليها ربهما يقبل
لأن القبول والتقبل متفرقان فإن تعالى (والله أنبئكم من الأرض بياتاً أي إسائاً) والقبول مصدر قوطهم : قبل فلان الشيء قبولاً بقا رضى به . قال سيبويه : حنة مصادر جاءت عن

قبول : قبول وظهور ووضوء وقود ولوع ، إلا أن الأكثر في القود إذا كان مصدراً الضم ، وأجاز الفراء والزجاج : قبولاً بالضم ، وروى ثعلب عن ابن الأعرابي يقال : قبلته قبولاً وقبولاً ، وفي الآية وجه آخر وهو أن ما كان من باب التفضل قبله يدل على شدة اعتنا ذلك المعدل بإظهار ذلك الفعل كالصبر والتجمل ونحوهما فإنها يفيدان الجهد في إظهار الصبر والاجتهاد ، فكذا هنا التقبل يفيد المبالغة في إظهار القبول .

فإن قيل : قلتم لم يقل : فتقبلها رجا بتقبل حسن حتى صارت المبالغة أكمل ؟

(واجواب) أن لفظ التقبل وإن أهمل ما ذكرنا إلا أنه يفيد نوع تكلف على خلاف قطع . أما القبول فإنه يفيد معنى القبول على وفق الطبع فذكر التقبل يفيد الجهد والمبالغة ، ثم ذكر القبول ليفيد أن ذلك ليس على خلاف الطبع ، بل على وفق الطبع ، وهذه الوجوه وإن كانت مشتقة في حركاتها تعالى ، إلا أنها تدل من حيث الاستعارة على حصول العناية العظيمة في تربيتها ، وهذا الوجه مناسب معقول .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر المفسرون في تفسير ذلك لقبول الحسن وجوهاً :

﴿ الوجه الأول ﴾ أنه تعالى عصمها وعصم ولدها عيسى عليه السلام من مس الشيطان روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال : ما من مولود يولد إلا والشيطان يمه حين يولد فيستهل صرخته من مس الشيطان إلا مريم وإسحاق ثم قال أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم (وإني أعيدنها لك ودريتها من الشيطان) ضمن الغاضي في هذا الخبر وقال : إنه خير واحد على خلاف التلخيص فوجب رده ، وإجماعنا : إنه على خلاف الدليل لوجه (أحدها) أن الشيطان إنما يدعو إلى الفساد يعرف الخير والشر والعبي ليس كذلك (والثاني) أن الشيطان لو تمكن من هذا التحس لفعل أكثر من ذلك من إهلاك الصالحين وإفساد أحوالهم (والثالث) لم يخص بهذا الاستثناء مريم وعيسى عليهما السلام دون سائر الأنبياء عليهم السلام (الرابع) أن ذلك التحس لو وجد بقي أثره ، ولو بقي أثره لدام الصراخ والبكاء ، فلما لم يكن كذلك علمنا بطلانه ، واعلم أن هذه الوجوه محتملة ، وبما لا يجوز دفع الخير والله أعلم .

﴿ الوجه الثاني ﴾ في تفسير أن الله تعالى قبلها بقبول حسن ، ما روى أن حنة حين ولدت مريم لفتها في خرقه وجلتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار ابن هارون ، وهم في بيت الفندس كاخجية في الكعبة ، وقالت : عذوا هذه النذيرة ، فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم ، وكانت بنو مائان رؤس بني إسرائيل وأحبارهم وملوكهم فقال لهم زكريا : أنا أحق بها عندي خائنها فقالوا لا حتى نفرغ عليها ، فتنطقوا وكانوا سبعة وعشرين إلى سهر فالتوا فيه

أفلامهم التي كانوا يكتبون الوحي بها على أن كل من ارتفع علمه فهو الراجح ، ثم ألفوا أفلامهم ثلاث مرات ، ففي كل مرة كان يرتفع قلم ذكرها فوق الماء ويغيب أفلامهم فأخذها ذكرها .

﴿ الوجه الثالث ﴾ روى الففال عن الحسن أنه قال : إن مريم تكلمت في صباها كما تكلم المسيح ولم تلتم ثدياً قط ، وإن رزقها كان يأتيها من الجنة .

﴿ الوجه الرابع ﴾ في تفسير القبول الحسن أن المعتاد في تلك الشريعة أن التحرير لا يجوز إلا في حق الغلام حين يصير عاقلاً فافترأ على خدمة المسجد ، وههنا لما علم الله تعالى نضج تلك المرأة قبل تلك الجلوية حال صغرها وعدم قدرتها على خدمة المسجد ، فهذا كله هو الوجه المذكورة في تفسير القبول الحسن .

ثم قال الله تعالى (وَأَنْبِئْهَا نَبَاتًا حَسَنًا) قال ابن الأنباري : التفسير أنبئها فنبئت هي نباتاً حسناً ثم منهم من صرف هذا النبات الحسن إلى ما يتعلق بالدنيا ، ومنهم من صرفه إلى ما يتعلق بالدين ، أما الأول فقالوا : المعنى أنها كانت تنبت في اليوم مثل ما ينبت المولود في عام واحد ، وأما في الدين فلأنها نبتت في الصلاح والساد والعبادة والطاعة .

ثم قال الله تعالى (وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا) وفيه مسألان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ يقال : كفَّل يكفل كفالة وكفلاً فهو كفيل ، وهو الذي يتفق على إنسان ويتم بإصلاح مصالحه ، وفي الحديث « أنا وكافل اليتيم كهاتين » وقال الله تعالى (اكفليها) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ عاصم وحزرة والكسائي (وكفَّلها) بالتشديد ، ثم اختلفوا في زكريا فقرا عاصم بالمد ، وقرأ حمزة والكسائي بالقصر على معنى ضمها الله تعالى إلى زكريا ، فمن قرأ (زكريا) بالمد أظهر النصب ومن قرأ بالقصر كان في محل النصب وليأثرون قراؤا بالمد والرفع على معنى ضمها زكريا إلى نفسه ، وهو الإختيار ، لأن هذا مناسب لقوله تعالى (أيسم يكفل مريم) وعليه ضمها زكريا إلى نفسه ، وهو الإختيار ، لأن هذا مناسب لقوله تعالى (أيسم يكفل مريم) وعليه الأكثر ، ومن ابن كثير في رواية (كَفَّلَهَا) بكسر الفاء ، وأما القصر والمد في زكريا فهي لغتان ، كالمهجة والمهجا ، وقرأ مجاهد (كَفَّلَهَا رَبَّيْهَا) وأنبئها ، وكَفَّلَهَا على لفظ الأمر في الأفعال الثلاثة ، ونصب (ربيها) كأنها كانت تدعو الله فقالت : أفيلها يا ربها ، وأنبئها يا ربها ، وأجعل زكريا كفلاً لها

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتفظوا في كفالة زكريا عليه السلام بإياها متى كانت : فقال الأكثرون : كان ذلك حال طفوليتها ، وبه جاءت الروايات ، وقال بعضهم : بل إنما كفلتها بعد أن قطعت ، واحتجوا عليه بوجهين (الأول) أنه تعالى قال (وأنتها نباتاً حسناً) ثم قال (وكفلها زكريا) وهذا يوهم أن تلك الكفالة بعد ذلك النبات الحسن (والثاني) أنه تعالى قال : (وكفلها زكريا كَلِمًا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ بِأَعْرَبِمَ أَنْتَ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) وهذا يدل على أنها كانت قد فارقت الرضاع وقت تلك الكفالة ، وأصحاب القول الأول أجابوا بأن الواو لا توجب التعيين ، فلعل الآيات الحسن وكفالة زكريا حصلاً معاً .

﴿ وأما الحجة الثانية ﴾ ففعل دخول عليها وسؤاله سها هذا السؤال إنما وقع في آخر زمان الكفالة .

ثم قال الله (كَلِمًا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا) وفيه مسائل :

﴿ المسئلة الأولى ﴾ (المِحْرَاب) الموضع العالي الشريف ، قال عمر بن أبي ربيعة :

رِيفَةُ مِحْرَابٍ إِذَا جِئْتَهَا لَمْ أَدْنِ حَتَّى أَرْفُقَ سَلِمًا

والحجج الأصمعي على أن المِحْرَاب هو الغرفة بقوله تعالى (إِذْ نَسُوا وَالْمِحْرَابَ) والتصور لا يكون إلا من علو ، وقيل : المِحْرَاب أشرف المجالس وأرفعها ، يروى أنها لما صارت شرفة بني زكريا عليه السلام فمأثرة في المسجد ، وجعل بيها في وسطه لا يصعد إليه بسلم ، وكان إذا خرج أعلق عليها سبعة أبواب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج أصحابنا على صحة القول بكرامة الأولياء بهذه الآية ، ووجه الاستدلال أنه تعالى أخبر أن زكريا كَلِمًا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ : أَنْتِ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، فحصول ذلك الرزق عندها إما أن يكون حارقاً للعادة ، أو لا يكون ، فإن قلنا : إنه غير خارق للعادة فهو باطل من خمسة أوجه (الأول) أن على هذا التقدير لا يكون حصول ذلك الرزق عند مريم دليلاً على علو شأنها وشرف درجتها وتمييزها عن سائر الناس بذلك الخاصة ومعلوم أن المراد من الآية هذا المعنى (والثاني) أنه تعالى قال بعد هذه الآية (هَذَا كَلِمًا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا) والقرآن دل على أنه كان آيساً من الولد بسبب شيخوخته وشبهوخته زوجته ، فلما رأى انخفاف العادة في حق مريم طمع في حصول الولد فيستقيم قوله (هَذَا كَلِمًا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا) أما لو كان الذي شاهده في حق مريم لم يكن خارقاً للعادة لم تكن مشاهدة ذلك سبباً لطمعه في انخفاف العادة بحصول الولد من المرأة الشبيخة العاقر (الثالث) أن التكرار في قوله (وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا) يدل

عنى تعظيم حال ذلك الرزق ، كأنه قيل : رزقا ، أي رزق غريب عجيب ، وذلك إنما يفيد الغرض الملائق لسياق هذه الآية لو كان خارقاً للعادة (الرابع) هو أنه تعالى قال (وجعلناها وبها آية للعالمين) ولولا أنه ظهر عليها من الخوارق ، والألم يصح ذلك .

فان قيل : لم لا يجوز أن يقال : المراد من ذلك هو أن الله تعالى خلق لها ولداً من غير ذكر ؟

قلنا : ليس هذا بأية ، بل يحتاج تصحيحه إلى آية ، فكيف نحمل الآية على ذلك ، بل المراد من الآية ما يدل على صدقها وطهارتها ، وذلك لا يكون إلا بظهور خوارق المعاديات على يدها كما ظهرت على يد ولدها عيسى عليه السلام (الخامس) ما توثرت الروايات به أن زكريا عليه السلام كان يجد عنده فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء ، ثبت أن الذي ظهر في حق مريم عليها السلام كان فعلاً خارقاً للعادة ، فنقول : إما أن يقال : إنه كان معجزة لبعض الأنبياء ، أو ما كان كذلك ، والأول باطل لأن النبي الموجد في ذلك الزمان هو زكريا عليه السلام ، ولو كان ذلك معجزة له لكان هو عالماً بحاله وشأنه ، فكان يجب أن لا يشبه أمره عليه رَأْيُ لا يقول مريم (أنى لك هذا) ويضاً فتقوله تعالى (هالك دعا زكريا ربه) مشعر بأنه لم يسلط على أمر تلك الأشياء ثم أنها ذكرت له أن ذلك من عند الله فهالك ضمع في تخريف العادة في حصول الولد من المرأة العقيمة الشبيخة العاقر وذلك يدل على أنه ما وقف على تلك الأحوال إلا بأخبار مريم ، ومتى كان الأمر كذلك ثبت أن تلك الخوارق ما كانت معجزة لزكريا عليه السلام فلم يبق إلا أن يقال : إنها كانت كرامة لعيسى عليه السلام ، أو كانت كرامة لمريم عليها السلام ، وعلى التقديرين فالتقصود حاصل ، فهذا هو وجه الاستدلال بهذه الآية على وقوع كرامات الأولياء .

اعترض أبو علي الجبائي وقال : لم لا يجوز أن يقال إن تلك الخوارق كانت من معجزات زكريا عليه السلام ، وبيان من وجهين (الأول) أن زكريا عليه السلام دعاها على الإجمال أن يوصل الله إليها رزقاً ، وأنه ربما كان غفلاً عن تفاصيل ما يأتيها من الأرزاق من عند الله تعالى ، فإذا رأى شيئاً بعينه في وقت معين قال لها (أنى لك هذا قالت هو من عند الله) فثبت ذلك يعلم أن الله تعالى أظهر بدعائه تلك المعجزة (الثاني) بمقتضى أن يكون زكريا يشاهد عند مريم رزقاً معتاداً إلا أنه كان يأتيها من السماء ، وكان زكريا يسأها عن ذلك حفيراً من أن يكون يأتيها من عند إنسان يعته إليها ، فقالت هو من عند الله لا من عند غيره .

(في المقام الثاني) لما لا نسلم أنه كان قد ظهر على مريم شيء من خوارق المعاديات ، بل

معنى الآية أن الله تعالى كان قد سبب هارزنا على أيدي المؤمنين الذين كانوا يرغبون في الإنفاق على الزاهدات العابدات ، فكان ذكرنا عليه السلام إذا رأى شيئا من ذلك حاف أنه ربما أتاه ذلك البرزق من وجه لا ينبغي ، فكان يأنف من كيفية الحال ، هذا مجموع ما قاله الجبائي في تفسيره وهو في غاية الضعف ، لأنه لو كان ذلك محجوزاً لذكرنا عليه السلام كان مأذوناً به من عند الله تعالى في طلب ذلك ، ومعنى كان مأذوناً في ذلك الطلب كان علماً قطعاً بأنه يحصل ، وإذا علم ذلك امتنع أن يطلب منها كيفية الحال ، ولم يبق أيضاً لقوله (هنالك دعا زكريا ربه) فائدة ، وهذا هو الجواب بعنه عن الوجه الثاني .

وأما سؤاله الثالث ففي غاية الركاسة لأن هذا التقدير لا يبقى فيه وجه اختصاص لمريم بمثل هذه الواقعة ، وأيضاً فإن كان في قلبه احتمال أنه ربما أتاه هذا البرزق من الوجه الثاني لا ينبغي بمجرد إجبارها كيف يحفل زوال تلك التهمة فعلما سقوط هذه الأسئلة وبالله التوفيق .

أما المعترضة فقد احتجوا على امتناع الكرامات بأنها دلالات صدق الأنبياء ، ودليل النبوة لا يوجد مع غير الأنبياء ، كما أن الفعل المحكم لما كان دليلاً على العلم لا جرم لا يوجد في حق غير العالم .

والجواب من وجوه (الأولى) وهو أن ظهور الفعل الخارق للعادة دليل على صدق المدعي ، فإن ادعى صاحبه النبوة فدلت الفعل الخارق للعادة يدل على كونه نبياً ، وإن ادعى الولاية فذلك يدل على كونه ولياً (والثاني) قال بعضهم : « الأنبياء مأمورون بإظهارها ، والأولياء مأمورون بإحكامها » (الثالث) وهو أن النبي يدعى المعجز ويفطع به ، والسوى لا يمكنه أن يقطع به (والرابع) أن المعجزة يجب انفكاكها عن المعارضة ، والكرامة لا يجب انفكاكها عن المعارضة ، فهذا جملة الكلام في هذا الباب وبالله التوفيق .

ثم قال تعالى حكايه عن مريم عليها السلام (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) وهذا يقتضي أن يكون من جملة كلام مريم ، وأن يكون من كلام الله سبحانه وتعالى ، وقوته (بغير حساب) أي بغير تقدير لكفرته ، أو من غير مسألة سألها على سبيلي ينسب حصولها ، وهذا كقوله (ويرزقه من حيث لا يحتسب) وههنا آخر الكلام في قصة حبة .

هَذَاكَ دَعَا زَكْرِيَا رَبِّهِ قَالَ رَبِّ قَبْلِي مِنْ لَدُنْكَ خُرُوجَ صَبَةٍ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ

٢٨

القصة الثانية

واقعة زكريا عليه السلام

قوله تعالى ﴿ هَذَاكَ دَعَا زَكْرِيَا رَبِّهِ ﴾ قال رب هبني من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ﴿ وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن نوناً : ثم ، وهناك ، وهـالك ، يستعمل في المكان ، ولقطة : عند ، وحين يستعملان في الزمان ، قال تعالى (فاعلموا هـالك وانقلبوا صاعرين) وهو إشارة إلى المكان الذي كانوا فيه ، وقال تعالى : (إذا ألفوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبورا) أي في ذلك المكان الضيق ، ثم قد يستعمل لقطة (هـالك) في الزمان أيضاً ، قال تعالى (هـالك المولاة لله الحق) فهذا إشارة إلى الحال والربان

إذا عرفت هذا فنقول : قوله (هـالك دَعَا زَكْرِيَا رَبِّهِ) إن حملناه على المكان فهو جائز ، أي في ذلك المكان الذي كان قعداً فيه عند مريم عليها السلام ، وشاهد تلك الكرامات دعا ربّه ، وإن حملناه على الزمان فهو أيضاً جائز ، يعني في ذلك الوقت دعا ربّه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أن قوله (هـالك دَعَا) يقتضي أنه دعا بهذا الدعاء عند أمر عرفه في ذلك الوقت له تعلق بهذا الدعاء ، وقد اختلفوا فيه ، والجمهور للأعظم من العلماء للمفسرين والمفسرين قالوا : هو أن زكريا عليه السلام رأى عند مريم من فاكهة الصيف في الشتاء ، ومن فاكهة الشتاء في الصيف ، فلما رأى خوارق العادات عندها ، طمع في أن يجرها معه تعالى في حقه ، أيضاً فزقه الولد من الزوجة الشبهة العاقر .

﴿ والقول لثاني ﴾ وهو قول المعتزلة الذين يكرهون كرامات الأولياء ، وإرهاصات الأنبياء قالوا : إن زكريا عليه السلام لما رأى أثر صلاح والعفاف والنزوى مجتمعة في حق مريم عليها السلام اتشبه الولد ونمته فدعا عند ذلك ، واعلم أن القول الأول أولى ، وذلك لأن حصول الزهد والعفاف والسيرة المرضية لا يدل على انحراف العادات ، قرينة ذلك لا يحصل

فَنَادَاهُ الْمَلَائِكَةُ «هُوَ قَائِمٌ يُصَنِّي فِي الْمَحَارِبِ أَنَّ اللَّهُ يَشْرُكَ بِحَبِئِ مُصَدِّقًا بِحِكْمَةٍ
مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الْمُرْسَلِينَ» ٢٧ قَالَ رَبِّ اُنِّىْ يَكُوْنُ لِىْ غُلَامٌ وَقَدْ
بَلَغَنِى الْكِبَرُ وَامْرَأَتىْ عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ اللهُ يَفْعَلْ مَا يَشَاءُ ﴿٢٨﴾

والأنثى : والفرد منه هما : ولد واحد ، وهو مثل قوله (فيهى لى من لذك ، وليا) قال الفراء :
وَأُنْثِ (طيبة) لتأنيث الذرية فى الظاهر ، فالتأنيث والتذكير تارة يجرى على اللفظ وتارة على
الغنى ، وحذف إنما شذبه لى أسماء الأجناس . أعادى أسماء الأعلام فلا ، لأنه لا يجوز أن يضاف
جاءت الملح ، لأن أسماء الأعلام لا تعيد إلا ذلك الشخص ، فإذا كان ذلك الشخص مذكرا
لم يميز فيها إلا بالتذكير .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (إنك سمع الدعاء) ليس افراد منه أن يسمع صوت
الدعاء فذلك معلوم ، بل المراد منه أن يجيب دعاءه ولا ينجب رجه ، وهو كقول المصلين :
سمع الله لى حمده ، يرمون قبل حمد من حمد من المؤمنين ، وهذا مما أكد بما قال تعالى سبحانه
عن ركبنا عليه السلام فى سورة مريم (ولم أكن بدعائك رب شقيا) .

قوله تعالى ﴿ فناداه الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يشرك بحبي مصدقا بحكمة
من الله وسيدا وحصورا ونبيا من المرسلين » قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى
عاقرة قل كذلك الله يفعل ما يشاء ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة والكسائي : فناداه الملائكة ، على التذكير والإمالة ،
والباقيون على التأنيث على اللفظ ، وقيل : من ذكر فلان الفعل قبل الاسم ، ومن أنث فلان
الفعل للملائكة . وقرأ ابن عامر (المحراب) بالإمالة ، والباقيون بالتخفيف ، وفى قراءة ابن
مسعود : فناداه جبريل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ظاهر اللفظ يدل على أن النداء كان من الملائكة ، ولا شك أن هذا
فى الشترىف أعظم ، فإن دل دليل مفصل أن الشاذل كان جبريل عليه السلام فقط صوب إليه .
وحلنا هذا اللفظ على التأويل ، فإنه يقال : فلان يأكل الأطعمة الطيبة ، ويلبس الثياب
النفيسة ، أى يأكل من هذا الجنس ، ويلبس من هذا الجنس : مع أن المعلوم أنه لم يأكل

جميع الأطعمة ، ولم يلبس جميع الأثواب ، فكذلك ههنا ، ومثله في القرآن (الذين قال لهم
النفس) وهم نعم بن مسعود إن النفس : يعني أبا سفيان ، قال المفضل بن سلعة : إذا كان
القاتل رئيساً جاز الإعتبار عنه بالجميع لاجتماع أصحابه معه ، فلما كان جبريل رئيس الملائكة ،
ولما يبحث إلا ومعه جميع صبح ذلك .

أما قوله (وهو قائم يصلي في المحراب) فهو يدل على أن الصلاة كانت مشروعة في
دينهم ، والمحراب قد ذكرنا معناه .

أما قوله (إن الله يشرك بيحيى) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أما الإشارة فقد فسرناها في قوله تعالى (ويشرك الذين أسوأ
الصلوات) وفي قوله (يشرك بيحيى) وجهان (الأول) أنه تعالى كان قد عرف زكريا أنه
سيكون في الأنبياء رجل اسمه يحيى وله ذرية عالية ، فإذا قيل : إن ذلك النبي المسمى يحيى هو
ولذلك كان ذلك بشارة له يحيى عليه السلام (والثاني) أن الله يشرك بولد اسمه يحيى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ ابن عامر وحمة (إن) بكسر الهمزة ، والياءون يفتحها ، أما
الكسر فعل إرادة القول ، أو لأن النداء نوع من القول ، وأما الفتح فتقديره : فنادته الملائكة
بأن الله يشرك .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرأ حمزة والكسائي (يشرك) بفتح الياء ومكون الياء وضم
السين ، وقرأ اليعاقبة (يشرك) وقرأ أيضاً (يشرك) قال أبو زيد يقال : بشر يشرك بشراً ،
ويشرك يشركاً ، وأبشر يشرك ثلاث لغات .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرأ حمزة والكسائي (يحيى) بالإمالة لأجل الياء والياءون بالتخفيف ،
وأما أنه لم يسم يحيى فقد ذكرناه في سورة مريم ، وأعلم أنه تعالى ذكر من صفات يحيى ثلاثة
أنواع :

﴿ الصفة الأولى ﴾ قوله (مصدقاً بكلمة من الله) وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الواحدي قوله (مصدقاً بكلمة من الله) نصب على الحال لأنه
منكرة ، ويجوز معرفة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في المراد بكلمة (من الله) قولان (الأول) وهو قول أبي عبيد : أنها
كتاب من الله ، واستشهد بقوله : أنشد فلان كلمة ، والمراد به القصيدة الطويلة .

﴿ والقول الثاني ﴾ وهو اختيار الجمهور : أن المراد من قوله (بكلمة من الله) هو عيسى عليه السلام ، قال السدي : لقيت أم عيسى أم يحيى عليهما السلام ، وهذه حامل يحيى وتلك بعيسى ، فقالت : يا مريم أشعرتني حيلى ؟ فقالت مريم : وأنا أيضا حيلى ، قالت امرأة زكريا فإني وجدت ما في بطني يسجد لما في بطنك فذلك قوله (مصدقا بكلمة من الله) وقال ابن عباس : **إِنْ يَحْيَى كَانَ كَبِيرًا** من عيسى يسمة أشهر ، وكان يحيى أول من آمن وصديق ياتيه كلمة الله وروحه ، ثم قتل يحيى قبل رفع عيسى عليهما السلام ، فان قيل : لم سمى عيسى كلمة في هذه الآية ، وفي قوله (إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته) قلنا : فيه وجوه (الأول) أنه خشي بكلمة الله ، وهو قوله (كن) من غير واسطة الأب ، فلما كان تكوينه بمحض قول الله (كن) وبمحض تكوينه وتقليبه من غير واسطة الأب والبهنر ، لاجرم سمي : كلمة ، كما يسمى المخلوق خلقاً ، والمقدور قدراً ، والمرجو رجاء ، والمكتفى شهرة ، وهذا باب مشهود في اللغة (والثاني) أنه تكلم في الطفولية ، وآتاه الله الكتاب في زمان الطفولية ، فكان في كونه متكلياً بالغاً مبلغاً عظيماً ، فسمى كلمة بهذا التأويل وهو مثل ما يقال : فلان جود وإقبال إذا كان كلاماً فيها (والثالث) أن الكلمة كما أنها تليد المعنى والحقائق ، كذلك عيسى كان يرشد إلى الحقائق والأسرار الإلهية ، فسمى : كلمة ، بهذا التأويل ، وهو مثل تسميته روحاً من حيث إن الله تعالى أحياه من الضلالة كما يحيى الإنسان بالروح ، وقد سمي الله القرآن روحاً . فثبت (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) (والرابع) أنه قد وردت الإشارة به في كتب الأنبياء الذين كانوا قبله ، فلما جاء قبل : هذا هو تلك الكلمة ، فسمى كلمة بهذا التأويل قلوا : **أَوِجِءَ الْمَجْدُ فِي مَنْ مِنْ آخِرِ عَن حَدِيثِ أَمْرٍ** فإذا حدث ذلك الأمر قال : قد جاء قولي وجاء كلامي ، أي ما كنت أقول وأتكلم به ، ونظيره قوله تعالى (وكذلك حفت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار) وقال (ولكن حفت كلمة العذاب على الكافرين) (الخامس) أن الإنسان قد يسمى بمفضل الله ولطف الله ، فكذلك عيسى عليه السلام كان اسمه العلم : كلمة الله ، وروح الله ، وأعلم أن كلمة الله هي كلامه ، وكلامه على قول أهل السنة صفة قديمة قائمة بذاته ، وعلى قول المعتزلة أصوات بخلافها الله تعالى في جسم مخصوص دالة بالوضع على معان مخصوصة ، والعلم الضروري حاصل بأن الصفة القديمة أو الأصوات التي هي أعراض غير باقية يستحيل أن يقال : أنها هي ذات عيسى عليه السلام ، ولا كان ذلك بخلاف في بذهاب العقل ثم بين إلا التأويل .

﴿ الصفة الثانية ﴾ يحيى عليه السلام قوله (وسيداً) والمفسرون ذكروا فيه وجهها (الأول) قال ابن عباس : السيد الحليم ، وقال الجبائي : إنه كان سيداً للمؤمنين ، ربياً لهم

في الدين ، أعني في العلم والحلم والعبادة والنور ، وقال مجاهد : الكريم عن الله ، وقال ابن المسيب الفقيه لعالم ، وقال عكرمة الذي لا يقبله الغضب ، قال القاضي : السيد هو المتقدم المرجوع إليه ، فلما كان مبدأ في الدين كان مرجوعاً إليه في الدين وقدمه في الدين ، فدخل فيه جميع الصفات المذكورة من العلم والحلم والكرم واللطف والزهد والنور .

﴿ الصفة الثالثة ﴾ قوله : وحضوراً ، وفيه مسألان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في تفسير الحضور والحصر في اللغة الحبس ، يقال حصر حصره يحصره حصراً وحصر الرجل : أي اعتقل يقطره . والحضور الازدحام يكتم السر ويجسد ، والحضور الضيق البخل ، وأما المفسرون : فلهم قولان (أحدهما) أنه كان عاجزاً عن إتيان النسب ، ثم منهم من قال كان ذلك لحصر الآلة ، ومنهم من قال : كان ذلك لتعذر الإنزال ، ومنهم من قال : كان ذلك لعدم القدرة ، فعلى هذا الحضور فعول بمعنى مفعول ، كأنه قال محصور عنهم ، أي محبوس ، ومثله ركوب بمعنى مركوب وحلوب بمعنى مخلوب ، وهذا القول عندنا فاسد لأن هذا من صفات القصاص وذكر صفة القصاص في معرض المدح لا يجوز . ولأن على هذا التقدير لا يستحق به ثوباً ولا تعظيماً .

﴿ والقول الثاني ﴾ وهو اختيار المحققين أنه الذي لا يأتي النساء لا لتعجز بل للعة والزهد ، وذلك لأن الحضور هو الذي يكثر منه حصر النفس ومنعها كالأكل الذي يكثر من الأكل وكذا الشروب ، والظلم ، والغشوم ، والنفق إنما يحصل أن لو كان الفتى قائماً ، فنؤلا أن القدرة والمداغة كائنات موحودتين ، وإلا لما كان حاضراً لنفسه فضلاً عن أن يكون حضوراً ، لأن الحاجة إلى تكثير الحصر والدفع إنما تحصل عند قوة الرغبة والمداغة والقدرة ، وعلى هذا الحضور بمعنى الحاضر فعول بمعنى فاعل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أجنب أصحابنا هذه الآية على أن ترك النكاح أفضل وذلك لأنه تعالى مدحه ترك النكاح ، وذلك يدل على أن ترك النكاح أفضل في تلك الشريعة ، وبدايت أد الترتيب في تلك الشريعة أفضل ، وجب أن يكون الأمر كذلك في هذه الشريعة بالنسب والمفعول ، أما النص فقوله تعالى (أولئك الذين هدى الله فسادهم اقتده) وأما المفعول فهو أن الأصل في التثبت بقاؤه على ما كان وأنسخ عن خلاف الأصل .

﴿ الصفة الرابعة ﴾ قوله (وبياً) واعلم أن السيادة إشارة إلى أمرين (أحدهما) قدرته على ضبط مصالح خلقه فيما يرجع إلى تعليم الدين (والثاني) ضبط مصالحهم فيما يرجع إلى التلوذ بالمرءف والنهي عن التكر ، وأما الحضور فهو إشارة إلى الزهد انشام فلما

قوله تعالى : « قال رب أنى يكون لى غلام » الآية سورة آل عمران ٤٦

اجتماعاً حصلت النبوة بعد ذلك ، لأنه ليس بعدها إلا النبوة .

﴿ النصف الخامسة ﴾ قرنه (من الصالحين) وفيه ثلاثة أوجه (الأول) مجناه أنه من أولاد الصالحين (والثاني) أنه غير كما يقال في الرجل الخير (إنه من الصالحين) (والثالث) أن صلاحه كان أتم من صلاح سائر الأنبياء ، مدليل قوله عليه الصلاة والسلام : « من نبى إلا وفد عصى ، أو هم بمعضية عبر يحيى فاته لم يعص ولم يسم » .

فان قيل : لما كان منصب النبوة أعلى من منصب الصلاح فلما وصفه بالنبوة فلما الفائدة في وصفه بعد ذلك بالصلاح ؟

قلنا : أليس أن سلطان عليه السلام بعد حصول النبوة قال (وأدخل برحمتك في عبادة الصالحين) وتحقيق القول فيه : أن للأنبياء قدراً من الصلاح لو انتقص لأبغض النبوة ، فذلك القدر بالنسبة إليهم مجرى مجرى حفظ الواجبات بالنسبة إلينا ، ثم بعد استوراكتهم في ذلك القدر تعاوت درجاتهم في الزيادة على ذلك القدر ، وكل من كان أكثر نصيباً منه كان أعلى قدراً والله أعلم .

قوله تعالى (قال رب أنى يكون لى غلام) في الآية سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ قوله (رب) خطاب مع الله أو مع الملائكة ، لأنه جائز أن يكون خطاباً مع الله ، لأن الآية المقدمة دللت على أن الذين نادوه هم الملائكة ، وهذا الكلام لا بد أن يكون خطاباً مع ذلك المادى لا مع غيره ، ولا جائز أن يكون خطاباً مع الملك ، لأنه لا يجوز للإنسان أن يقول للملك : يا رب .

(والجواب) للمفسرين فيه قولان (الأول) أن الملائكة لما نادوه بذلك ، بشره به تعجب زكريا عليه السلام ورجع في إزالة ذلك التعجب إلى الله تعالى (والثاني) أنه خطاب مع الملائكة والرب إشارة إلى الربى ، ويجوز وصف المخلوق به ، فإنه يقال : فلان يربىني ويحس إلى .

﴿ السؤال الثانى ﴾ لما كان زكريا عليه السلام هو الذى سأل الولد ، ثم أجابه الله تعالى إليه فلم تعجب منه ولم يستعده ؟ .

(الجواب) لم يكن هذا الكلام لأجل أنه كان شاكاً في قدرة الله تعالى على ذلك والدليل عليه وجهان (الأول) أن كل أحد يعلم أن خلق الولد من النطفة إنما كان على سبيل العادة لأنه لو كان لا نطفة إلا من خلق ، ولا خلق إلا من نطفة ، لزم التسلسل ولزم حدوث الحوادث في

الأول وهو حال ، فعلمنا أنه لابد من الانتهاء إلى مخلوق خضعه الله تعالى لا من نطفة أو من نطفة خلقها الله تعالى لا من إنسان ..

﴿ والتوجه الثاني ﴾ أن زكريا عليه السلام طلب ذلك من الله تعالى ، فلو كان ذلك محالاً لمتنعاً لما طلبه من الله تعالى ، فثبت بيذين الوجهين أن قوله (أنى يكون لى غلام) ليس للاستبعاد ، بل ذكر العلماء فيه وجوهاً . (الأول) أن قوله (أنى) معناه : من أين ، ويمتثل أن يكون معناه : كيف تعطي ولدأ على القسم الأول أم على القسم الثاني ، وذلك لأن حدوث الولد يمتثل وجهين (أحدهما) أن يعيد الله شابه ثم يعطيه الولد مع شيخوخة ، فقوله (أنى يكون لى غلام) معناه : كيف تعطي الولد على القسم الأول أم على القسم الثاني ؟ فحين له كذلك . أي على هذا الخيال والله يفعل ما يشاء ، وهذا القول ذكره الحس والأصم (والثاني) أن من كان آيب من الشيء مستبعداً لحصوله ووقوعه إذا اتفق أن حصل له ذلك المقصود فربما صار كالحوش من شدة الفرح فيقول كيف وهبت هذه الأموال ، ومن أين سمحت نفسك بهبتها؟ فكذا هنا لما كان زكريا عليه السلام مستبعداً لذلك ، ثم اتفق إجابة الله تعالى إليه ، صار من عظم فرحه وسروره قال ذلك الكلام (الثالث) أن الملائكة لما بشروه بيبقى ثم يعلم أنه يورق الولد من جهة أنى أو من صلبه ، فذكر هذا الكلام لذلك الاحتمال (الرابع) أن العبد إذا كان في غاية الاشتياق إلى شيء نطلبه من السيد ، ثم إن السيد يعده بأنه سيعطيه بعد ذلك ، فالتد السائل يسأع ذلك الكلام ، فربما أعاد السؤال ليعيد ذلك الجواب فحينئذ يلتد يسأع تلك الإجابة مرة أخرى ، فالسبب في إعادة زكريا هذا الكلام يمتثل أن يكون من هذا الباب (الخامس) نقل سفيان بن عيينة أنه قال : كان دعلق قبل البشارة بستين سنة حتى كان قد نسي ذلك السؤال وقت البشارة فلما سمع البشارة زمان الشيخوخة لا حرم استبعاد ذلك على مجرى العادة لأشكا في فورة الله تعالى فذل ما قاله (السادس) نقل عن السدي أن زكريا عليه السلام جاءه الشيطان عند سماع البشارة فقال إن هذا الصوت من الشيطان ، وقد سخر منك فاشتبه الأمر على زكريا عليه السلام فقال (رب أنى يكون لى غلام) وكان مقصوده من هذا الكلام أن يريه الله تعالى أية تدل على أن ذلك الكلام من الوحي والملائكة لا من إلقاء الشيطان قال القاضي : لا يجوز أن يشتبه كلام الملائكة بكلام الشيطان عند الوحي على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذ لو جوزنا ذلك لارتفع الوثوق عن كل الشرائع ويمكن أن يقال : لما قامت المعجزات على صدق الوحي في كل ما يتعلق بالدين لا جرم حصل الوثوق هناك بأن الوحي من الله تعالى بواسطة الملائكة ولا مدخل للشيطان فيه . أما ما يتعلق بمصالح الدنيا وماله فربما لم يأكد ذلك المعجز فلا جرم بقي احتمال كون ذلك من الشيطان فلا جرم رجع إلى

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ ءَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَرَافُكُرًا
رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّعِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿١١﴾

الله تعالى في أن يزيل عن خاطره ذلك الاحتمال .

أما قوله تعالى (وقد بلغت الكبر) ففيه مسائل .

﴿ المسألة الأولى ﴾ الكبر مصدر كبر الرجل يكبر إذا أسن ، قال ابن عباس : كان يوم بشر بالولد ابن عشرين ومائة سنة وكانت امرأته بنت سبعين وثمان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال أهل المعاني : كل شيء صلافة وبلغته فقد صاदनك وصلحك ، وكلما جاز أن يقول : بلغت الكبر جاز أن يقول بلغني الكبر يدل عليه قوله العرب : نغيب الحائط ، وتلقاني الخائط .

فإن قيل : يجوز بلغني البلد في موضع بلغت البلد ، قلنا : هذا لا يجوز ، والمجاز بين الموضوعين أن الكبر كالشيء الطالب للإنسان فهو يأتيه بحدوده فيه ، والإنسان أيضاً يأتيه بمروور السنين عليه ، أما البلد فليس كالطالب للإنسان الذاهب ، فظهر الفرق .

أما قوله (وامرأتي عاقرة) .

اعلم أن العاقر من النساء التي لا تلد ، يقال : عقر يعقر عقرأ ، ويقال أيضاً عقر الرجل ، وعقر بالحركات الثلاث في العاق إذا لم يحمل له ، ورمل عاقر . لا يثبت شيئاً ، ويعلم أن زكروا عليه السلام ذكر كبر نفسه مع كون زوجته عاقراً لتأكيد حال الاستبعاد .

ما قوله (قال كذلك الله يفعل ما يشاء) ففيه بحثان (الأول) أن قوله (قال) عائد إلى المذكور سلق ، وهو الرب المذكور في قوله (قال رب أنى يكون لي غلام) وقد ذكرنا أن ذلك يشمل أن يكون هو الله تعالى ، وأن يكون هو حيريل .

﴿ البحث الثاني ﴾ قال صاحب الكشاف (كذلك الله) مبتدأ وخبر أي عل نحو هذه الصفة لله ، ويفعل ما يشاء بيان أنه ، أي يفعل ما يريد من الأنواع الخارقة للعادة .

قوله تعالى ﴿ قال رب اجعل لي آية قال 'يتك' ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا وادكر ربك كذباً ورسيحاً بالنسي والإبكار ﴾ .

واعلم أن زكريا عليه السلام لغرض سروره بما خبر به وثقته بكرمه وبه ، وإيمانه عليه أحب أن يجعل له علامة تدل على حصول العلق ، وذلك لأن العلق لا يظهر في أول الأمر فقال (رب اجعل لي آية) فقال الله تعالى (آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا) وفيه مسائل :

❖ المسألة الأولى ❖ ذكر ههنا ثلاثة أيام ، وذكر في سورة مريم ثلاثة ليالي فدل بحسب الأيتين على أن ثمة الآية كانت خاصة في الأيام الثلاثة مع لياليها .

❖ المسألة الثانية ❖ ذكرنا في تفسير هذه الآية وجوها (أحدها) أنه تعالى حبس لسانه ثلاثة أيام فلم يقدر أن يكلم الناس إلا رمزا ، وفيه فائدتان (إحداهما) أن يكون ذلك آية على علق الولد (والثانية) أنه تعالى حبس لسانه عن أمور الدنيا ، وأقدره على الذكر والتسبيح والتهليل ، فيكون في تلك اليلة مشتغلا بذكر الله تعالى ، وبالطاعة والشكر على تلك النعمة المحسنة وعلى هذا التفسير يصير الشيء الواحد علامة على التقصود ، وأداء لشكر تلك النعمة ، فيكون جامعا لكل المقاصد .

ثم اعلم أن تلك الواقعة كانت مشتملة على المعجز من وجوه (أحدها) أن قدرته على التكلم بالتسبيح والذكر ، وعجزه عن التكلم بأمور الدنيا من أعظم المعجزات (وثانيها) أن حصول ذلك المعجز في تلك الأيام المقدورة مع سلامة البنية واعتدال المزاج من جملة معجزات (وثالثها) أن إختياره بأنه متى حصلت هذه الحالة فقد حصل الولد ، ثم إن الأمر خرج على وفق هذا الخبر يكون أيضا من المعجزات .

❖ القول الثاني في تفسير هذه الآية ❖ وهو قول أبي مسلم . أن المعنى أن زكريا عليه السلام لما طلب من الله تعالى آية تدل على حصول العلق ، قال آيتك أن لا تكلم ، أي تصبر بأمرنا بأن لا تتكلم ثلاثة أيام بلياليها مع الجن ، أي تكون مشتغلا بالذكر والتسبيح والتهليل معرضا عن خلق الدنيا شاكرا لله تعالى على إعطائه مثل هذه الموهبة . فان كانت لك حاجة دل عليها بالرمز فإدا أمرت بهذه الطاعة فاعلم أنه قد حصل المطلوب ، وهذا أقول عندي حسن معقول . وأبو مسلم حسن الكلام في التفسير كثير الغوص عن الدقائق واللطائف .

❖ القول الثالث ❖ روى عن قتادة أنه عليه الصلاة والسلام عوقب بذلك من حيث سأل الآية بعنة بشدة الفلانكة فأخذ لسانه وصير بحيث لا يقدر على الكلام .

أما قوله (إلا رمزا) ففيه مسائل :

﴿ السألة الأولى ﴾ أصل الومز الحركة ، يقال : اومز إذا غرك ، ومنه قيل للمبحر : الراموز ، ثم تخلقوا في المراد بالرمز ههنا على أقوال (أحدها) أنه عبارة عن الإشارة كيف كانت بانيب ، أو الرأس ، أو الحاجب ، أو العين ، أو الشفة (والثاني) أنه عبارة عن تحريك الشفتين باللغة من غير نطق بصوت قالوا : وعلى الرمز على هذا المعنى أولى ، لأن الإشارة بالشفتين يمكن وقوعها بحيث تكون حركات الشفتين وقت الومز مطابقة لحركاتها عند انطق فيكون الاستدلال بتلك الحركات على المعاني الدهنية سهلاً (والثالث) وهو أنه كان يمكنه أن يتكلم بالكلام الخفي ، وأما رفع الصوت بالكلام فكان مجموعاً منه .
فإن قيل : الرمز ليس من جنس الكلام فكيف استثنى منه ؟ .

فالجواب : لما أدى ما هو المقصود من الكلام سمي كلاماً ، ويجوز أيضاً أن يكون استثناء منقطعاً فلما إن حذا الرمز على الكلام الخفي فإن الإشكال زال .

﴿ السألة الثانية ﴾ قرأ يحيى بن وثاب (إلا رمزاً) بصحتين جمع وموز ، كرسول ورسول ، وقوى (رمزاً) بفتح الراء والميم جمع ورمز ، كخادم وخادم ، وهو حال منه ومن التامر ، ومعنى (إلا رمزاً) إلا متر مزين ، كما يتكلم الناس مع الأغرس بالإشارة ويكنهمهم .

ثم قال الله تعالى (وأذكر رسك كثيراً) وفيه قولان (أحدهما) أنه تعالى حس لسنة عن أمور الدنيا (إلا رمزاً) فأما في الذكر والتسبيح ، فقد كان لسنة جيداً ، وكان ذلك من المعجزات الباهرة (والثاني) إن المراد منه الذكر مانعاً وذلك لأن المستغرقين في بحار معرفة الله تعالى عادتهم في الأول أن يواظبوا على الذكر المدايني مدة فإذا امتلأ القلب من نور ذكر الله سكنت اللسان وبقي للذكر في القلب ، ولذلك قالوا : من عرف الله كل لسنة ، فكأن زكراً عليه السلام أتمر بالسكوت واستحضار معاني الذكر والمعرفة واستدامتها .

(وسبح بالعشي والأبكر) وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (العشي) من حين تروى الشمس إلى أن تغيب ، قال الشاعر :

هلا أظلل من برد الضحى تنطيمه ولا الفسيء من برد العشي تذوق

والفسيء ، إنما يكون من حين زوال الشمس إلى أن ينتهي غروبها ، وأما الابتكار فهو مصدر بكر بئكر إذا خرج للامر في أول النهار ، ومنه بكر واشتكر وسكر ، ومنه الباكورة لأول الثمرة ، هذا هو أصل اللغة ، ثم سمي ما بين طلوع الفجر إلى الضحى : ابتكاراً ، كما سمي إصباحاً ، وثبوأ بعضهم (والأبكر) بفتح الهمزة ، جمع بكر كسحر وأسحار ، ويقال :

وإذا قالت الملائكة يَسْرِمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ
 (٤٦) يَسْرِمُ أَقْنِي رَبِّكِ وَأَحْضِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٧)

أثبتته بذكر أفتحين .

❖ المسألة الثانية ❖ في قوله (وسبح) قولان (أحدهما) المراد منه . وصل لأن الصلاة تسمى تسبيحاً قال الله تعالى (سبحان الله حين قمرون) وأيضاً الصلاة منسجمة على التسبيح ، فجاز تسمية الصلاة بالتسبيح ، وههنا الدليل دل على وقوع هذا المحتمل وهو من رحمة . (الأول) أنا لو حملناه على التسبيح والتهليل لم يبق بين هذه الآية وبين ما قبلها وهو قوله (واذكر ربك) فرق ، وحسنه يطل لأن عطف الشيء على نفسه غير جائز (والثاني) وهو أنه شديد الموافقة لقوله تعالى (أقم الصلاة طرفي النهار) (ولأيهما) أن قوله (واذكر ربك) معمول على الذكر باللسان .

الفصل الثالثة

وصفه طهارة مريم صلوات الله عليها

قوله سبحانه وتعالى ❖ وإذا قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاكِ وطهرك واصطفاكِ على نساء العالمين . يا مريم اقْنِي لِرَبِّكِ وَاحْضِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ❖ وفيه مسائل :

❖ المسألة الأولى ❖ حاصل الإعراب ههنا في (إذ) هو ما ذكرناه في قوله (إذ قالت امرأة عمران) من قوله (سبِّح عليم) ثم عطف عليه (إذ قالت الملائكة) وقيل . تقديره وذكر إذ قالت الملائكة .

❖ المسألة الثانية ❖ فالمراد بالملائكة ههنا جبريل وحده . وهذا كقوله (ينزل الملائكة بالروح من أمره) يعني جبريل ، وهذا وإن كان عدولاً عن المظاهر إلا أنه يجب التمسك إليه ، لأن سورة مريم دلت على أن المتكلم مع مريم عليها السلام هو جبريل عليه السلام ، وهو قوله

(فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرًا سريًا) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اعلم أن مريم عليها السلام ما كانت من الأنبياء لقوله تعالى (وما أُرْسِلَتْ من قبلك إلا رجالًا نوحي إليهم من أهل القرى) وإذا كان كذلك كان إرسلان جبريل عليه السلام إليها إما أن يكون كرامة لها . وهو مذعوب من يجوز كرامات الأولياء ، أو إرهاباً لعبس عليه السلام ، وذلك جازم عندنا ، وعند الكمي من المعتزلة ، أو معجزة لكرامتها عليه السلام ، وهو قول جمهور المعتزلة ، ومن الناس من قال : إن ذلك كان على سبيل النفث في الروع والإخاطم والإكفاء في القلب ، كما كان في حق أم موسى عليه السلام في قوله (وأوحينا إلى أم موسى) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اعلم أن المذكور في هذه الآية أولاً هو الاصطفاء ، وثالثاً التطهير ، وثالثاً الاصطفاء على نساء العديين ، ولا يجوز أن يكون الاصطفاء أولاً من الاصطفاء الثاني ، لما أن التصريح بالتكرير غير لائق ، فلا بد من صرف الاصطفاء الأول إلى ما انفق عنه من الأمور الحسنة في أول عمرها ، والاصطفاء الثاني إلى ما انفق لها في آخر عمرها .

﴿ النوع الأول من الاصطفاء ﴾ فهو أمور (أحدها) أنه تعالى قبل تحريرها مع أنها كانت أنثى ولم يحصل مثل هذا المعنى لغيرها من الإيثار (وثانيها) قال الحسن : إن أمها ما وضعها ما غلبت طرفة عين ، بل أُنْقِطَتْ إلى زكريا ، وكان رزقها بأنبياء من الجنة (وثالثها) أنه تعالى فرغها لعبادته ، حصصها في هذا المعنى بأنواع اللطف والهداية وانعصمة (ورابعها) أنه كفها أمر معيشتها ، فكان بأنبياء رزقها من عند الله تعالى على ما قال الله تعالى (ألمئ ذلك هذا قالت هو من عند الله) (وخامسها) أنه تعالى أسمى كلام الملائكة شهادتها ، ولم يتفر ذلك لأنثى غيرها . فهذا هو المراد من الاصطفاء الأول ، وأما التطهير فعبه (أحدها) أن تعالى طهرها عن الكفر والمعصية ، فهو كقوله تعالى في أزواج النبي ﷺ (ويظهركم تطهيراً) (وثانيها) أنه تعالى طهرها عن ميس الرجال (وثالثها) طهرها عن الخيصر ، قلنا : كانت مريم لا تحبص (ورابعها) وظهرت من الأعمال الذميمة ، والمعادات القبيحة (وخامسها) وظهرت عن مخالطة اليهود ويحيهم وكذبهم

﴿ وأما الاصطفاء الثاني ﴾ فنأخذ أنه تعالى وهب لها عيسى عليه السلام من غير أب ، وأنطق عيسى حال انفصاله منها حتى شهد بما يدل على برائتها عن لثمة ، وجعلها وإنها آية للعالمين ، فهذا هو المراد من هذه الألفاظ الثلاثة .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ روى أنه عليه الصلاة والسلام قال : حبك من نساء العالمين

أربع : مريم واسية امرأة عرسون ، وخديجة ، وفاطمة عليهن السلام ، فبذل هذا الحديث دل على أن هؤلاء الأربع أفضل من النساء ، وهذه الآية دللت على أن مريم عليها السلام أفضل من الكل ، وقرب من قال المراد إنها مصطفاة عن عالمي زمانها ، فهذا ترك انقطاع .

ثم قال تعالى (يا مريم اقنتي لربك واسجدي) وقد تقدم تفسير القنوت في سورة البقرة في قوله تعالى (وقوموا لله قانتين) وبالمجمل فيها بين تعالى أنها مخصوصة بمزيد المزايا والعطايا من الله أوجب عليها مزيد الطاعات ، شكراً لظلك لنعم النعمة ، وفي الآية سوالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم قدم ذكر السجود على ذكر الركوع ؟

والجواب من وجوه (الأول) أن الواو تفيد الاشتراك ولا تفيد الترتيب (الثاني) أن غاية قرب العبد من الله أن يكون ساجداً قال عليه الصلاة والسلام « أقرب ما يكون العبد من ربه إذا سجد » فلما كان السجود محتصاً بهذا النوع من الرتبة والفضيلة لا حرم قدمه عن سائر الطاعات .

ثم قال (واركعي مع الراكعين) وهو إشارة إلى الأمر بالصلاة ، فكأنه تعالى يأمرها بالمواظبة على السجود في أكثر الأوقات ، وأما الصلاة فلها تأتي بها في أوقاتها المعبية لها (والثالث) قال ابن الأثيري . قوله تعالى (قنتي) أمر بالعموم ، ثم قال بعد ذلك (اسجدي واركعي) يعني استعمل السجود في وقته الثلاث معاً ، واستعمل الركوع في وقته العتمة ، وليس المراد أن يجمع بينهما ، ثم يقدم السجود على الركوع والله أعلم (الرابع) أن الصلاة تسمى سجوداً كما قيل في قوله (وأنبأ السجود) وفي الحديث « إذا دخل أحدكم المسجد فليسجد سجدتين » وأيضاً المسجد سمي باسم منسوخ من السجود والمراد منه موضع الصلاة ، وأيضاً أشرف أجزاء الصلاة السجود وتسميته النبي به أشرف أجزائه نوع مشهور في المحار .

إذا ثبت هذا فنفذ قوله (يا مريم اقنتي) معناه يا مريم قومي ، وقوله (واسجدي) أي صلي فكان المراد من هذا السجود الصلاة ، ثم قال (واركعي مع الراكعين) إما أن يكون أمراً لها بالصلاة بالجماعة فيكون قوله (واسجدي) أمراً بالصلاة حال الانفراد ، وقوله (واركعي مع الراكعين) أمراً بالصلاة في الجماعة ، أو يكون المراد من الركوع التواضع ويكون قوله (واسجدي) أمراً بظاهر الصلاة ، وقوله (واركعي مع الراكعين) أمراً بالمخضوع والخضوع القلب .

﴿ الوجه الخامس في الجواب ﴾ لعله كان السجود في ذلك الدين متقدماً على الركوع .

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَمْ يَكُنْ لَمَرِّمْ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٩﴾

﴿ السؤال الثاني ﴾ ما المراد من قوله (واركعي مع الرائي) .

(والجواب) فيه معناه : افعل كفعلهم ، وقيل المراد به الصلاة في الجماعة كانت بأمره بأن تقبل في بيت المقدس مع المجاورين به ، وإن كانت لا تختلط بهم .

﴿ السؤال الثالث ﴾ لم لم يضر واركعي مع الرائي ؟

والجواب لأن الاقتداء بالرجال حال الاختفاء من الرجال أفضل ، من الاقتداء بالنساء .

واعلم أن المفسرين قالوا : لما ذكرت الملائكة هذه الكلمات مع مريم عليها السلام شفاعة ، قامت مريم في الصلاة حتى رمت قدميها . وسأل الدم والقبح من سمعها .

قوله تعالى ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (ذلك) إشارة إلى ما تقدم ، ولعل أن الذي مضى ذكره من حديث

حنة وذكريا ويحيى وعيسى بن مريم ، إنما هو من إخبار الغيب فلا يمكنك أن تعلمه إلا بالوحي .

فان قيل : لم نصبت هذه المشاهدة ، وانتفاؤها معلوم بغير شبهة ، وترك نفي إشباع هذه الأشياء من حفاظها وهو مرموم ؟

فما : كان معلوماً عندهم علماً يقينياً أنه ليس من أنباء الغيب والفرقة ، وكانوا منكروين للوحي ، فلم يبق إلا المشاهدة ، وهي وإن كانت في غاية الاستبعاد إلا أنها نصبت على سبيل التهكم بالنكروين للوحي مع عندهم بأنه لا سماع ولا قراءة ، ونظيره (وما كنت بجانب العربي ، وما كنت بجانب الطور ، وما كنت لديهم إذا أجمعوا أمرهم ، وما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الأنباء : الاخبار عما عاب عنك ، وأما الإجماع فقد ورد الكتاب به على معان مختلفة ، يجمعها تعريف الموحى إليه بأمر حفي من إنشأه أو كتابه أو غيره ، وهذا التفسير بعد الإجماع وحياً كتبه تعالى (وأوحى ربك إلى النحل) وقال في أنبياءه يوحى إلى أوليائهم ، وقال (فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا) فلما كان الله سبحانه العلى هذه الأشياء إلى الرسول بصفة بواسطة جبريل عليه السلام بحيث يخفى ذلك على غيره سواه وحياً أما قوله تعالى (إذ يقول أأنعامهم بهم يكفل مريم) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكرها في تلك الأعلام وحوهاً (الأول) المراد بالأعلام التي كانوا يكتبونها التوراة وسائر كتب الله تعالى ، وكان الفروع على أن كل من جرى قلمه على عكس سري الماء عالج معه ، فلم يفعلوا ذلك صار قلم زكريا كذلك ، فسلموا الأمر له وهذا قول الأكثرين (والثاني) أنهم ألغوا عصيتهم في الماء الجاري جرت عصا زكريا على ضد حورية الماء فغلبهم ، وهذا قول الربيع (الثالث) قال أبو مسلم : معنى يلقون أعلامهم بما كانت الأسماء تفعله من المساهمة عند التنازع فيظهر حوائ منها ما يكتبون عليها أسماءهم فمن خرج له السهم سلم له الأمر ، وقد قال الله تعالى (فساهم فكان من مدحذين) وهو شبه بأمر الفذاح التي تنقسم بها العرب لحم الحرور ، وإذا سبيت هذه السهام أعلاماً لأنها تعلم ونيري ، وكل ما فطعت منه شيئاً بعد شيء فقد فليمته ، وهذا السبب يسمى ما يكتب به نلماً .

قال القاضي : وقوع لفظ العلم على هذه الأشياء وإن كان صحيحاً نظراً إلى أصل الاشتقاق ، إلا أن التعريف أوجب اختصاص العلم بهذا الذي يكتب به ، فوجب حمل لفظ العلم على

﴿ المسألة الثانية ﴾ ظاهر الآية يدل على أنهم كانوا يلقون أعلامهم في شيء على وجه يصح به متبر بعضهم عن البعض في استحقاق ذلك المطلوب ، وإما ليس فيه دلالة على كيفية ذلك الإنشاء ، إلا أنه روي في الخبر أنهم كانوا يلقونها في الماء بشرط أن من جرى قلمه عن خلاف جرى الماء هاليد له ، ثم إنه حصل هذا المعنى لذكرها عليه السلام ، فلا حرج صار هو أولى بكلماتها والله أعلم .

إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٢﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا في السبب الذي لأجله رغبوا في كفالتها حتى أدت بهم تلك الرغبة إلى المنازعة ، فقال بعضهم : إن عمران أبوها كان رئيساً لهم ومقدماً عليهم ، فلأجل حق أبيها رغبوا في كفالتها ، وقال بعضهم : إن أمها حررتها لعبادة الله تعالى ولخدمة بيت الله تعالى ، ولأجل ذلك حرصوا على التكفل بها ، وقالوا آخرون : بل لأن في الكتب الإلهية كان بيان أمرها وأمر عيسى عليه السلام حاصلًا فتزبروا بهذا السبب حتى اختلفوا .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اختلفوا في أن أولئك المختصمين من كانوا ؟ فعنهم من قال : كانوا هم جندة البيت ، وعنهم من قال : بل العلماء والأخبار وكتاب الرعي ، ولا شبهة في أنهم كانوا من الخواص وأهل الفصل في الدين والرغبة في الطريق .

أما قوله (أيهم يكفل مريم) ففيه حذف والتقدير : يلقون أفلامهم لينظروا أيهم يكفل مريم وإنما حسن لكونه معلوماً .

أما قوله (وما كنت لديهم إذ يختصمون) فالمعنى وما كنت هناك إذ يتقارعون على التكفل بها وإذ يختصمون بسببها فيحتمل أن يكون المراد بهذا الاختصاص ما كان قبل الإجماع ، ويجتمل أن يكون اختصاصاً آخر حصل بعد الإجماع ، وبالحمل على المقصود من الآية شدة رغبته في التكفل بشأنها ، والقيام باصلاح مهياتها ، وما ذلك إلا لدعاء أمها حيث قالت (فتميل مني إنك أنت السميع العليم) وقالت (إني أعيدنها بك وفريتها من الشيطان الرجيم) .

قوله سبحانه وتعالى ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمع المصيح عيسى ابن مريم وجهياً في الدنيا والآخرة ومن المحربين ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما شرح حال مريم عليها السلام ، في أول أمرها وفي آخر أمرها شرح كيفية ولادتها العيسى عليه السلام ، فقال (إذ قالت الملائكة) وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتضوا في العمل في (إذ) قيل : العمل فيه . وما كنت لأخبرهم إذ قالت الملائكة ، وقيل : يختصمون إذ قالت الملائكة ، وقيل : إيه معصوف علي (إذ) الأولى في قوله (إذ قالت مريم عمران) وقيل التقدير : إذ ما وصفتها من أمور زكريا ، وهدية الله له بحسب كان إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يشرك ، وأما أبو عبيدة : فإنه يجري في هذا الباب على مذهب له معروف ، وهو أن (إذ) صلة في الكلام وزيدته ، وأعلم أن القولين الأولين فيهما بعض الصعق وذلك لأن مريم حال ما كانوا يفتنون الأعلام وكان ما كانوا يختصمون ما بلغت الجند الذي يشركه عيسى عليه السلام ، فلا قول الحسن : فإنه يقول إما كانت عاملة في حال الضعف ، فإن ذلك كان من كراماتها ، فإن صبح ذلك جاز في تلك الحال أن يرد عليها البشرى من الملائكة ، والأعلام من تأخر هذه البشرى إلى حين العقل ، ومنهم من مكلف الحوب ، فقال : يتمثل أن يقال الاختصاص والبشرى وقعا في زمان واحد ، كما يقول لقينه في سنة كذا ، وهذا الحوب بعيد والأصواب من الوجه الثالث ، والرابع ، أما قول أبو عبيدة : فقد عرفت صفة ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ظاهر قوله (إذ قالت الملائكة) بيد الجميع إلا أن المشهور أن ذلك إنشائي كان حبريل عليه السلام ، وقد قرئنا فيما تقدم ، وأما البشارة فقد ذكرت تفسيرها في سورة البقرة في قوله (وبشر الذي آمنوا وعملوا الصالحات)

وأما قوله تعالى (بكلمة منه) فقد ذكرنا تفسير الكلمة من وجوه وألقينا بهذا الموضع وجهان (الأول) أن كل علوق وإن كان غلوفاً بواسطة للكلمة وهي قوله (كن) إلا أن ما هو المتعارف كان مفترداً في حق عيسى عليه السلام وهو الال ، فلا جرم كان إضافة حدوث إلى الكلمة أكمل وأتم فحمل بهذا التأويل كأن نفس الكلمة كما أن من غلب عليه الجود والكرم والإقبال يقال فيه على سبيل المانعة به نفس الجود ، وعصى الكرم ، وصريح الإقبال ، فكذلك هو

﴿ والوجه الثاني ﴾ أن السلطان العبد قد يوصف بأنه علي الله في أرضه ، وبأنه نور الله لما أنه سبب لظهور ظل العبد ، ونور الإحسان ، فكذلك كان عيسى عليه السلام سبباً لظهور كلام الله عز وجل سبب كثرة بياضه وإزالة الشبهات والتعريفات عنه فلا يبعد أن يسمى بكلمة الله تعالى على هذا التأويل .

إذ قيل : ولم قلتم إن حدوث الشخص من غير نطفة الال ممكن قلت : أما على أصول المسلمين فالظاهر فيه ظاهر ويدل عليه وجهان (الأول) أن تركيب الأجسام وتأليفها على وجه

يحصل فيها الحياة والفهم ، والنطق أمر ممكن ، وثبت أنه تعالى قادر على امكانيات بأسرها ، وكان سبحانه وتعالى قادراً على إيجاد الشخص ، لا من نقطة الأب ، وإذا ثبت الإمكان ، ثم إن المعجز فلم على صدق السي . فوجب أن يكون صادقاً ، ثم أخبر عن وقوع ذلك الممكن ، والصادق إذا أخبر عن وقوع الممكن وجب القطع بكونه كذلك ، فثبت صحة ما ذكرناه (الثاني) ما ذكره الله تعالى في قوله (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم) فلما لم يبعد تخليق آدم من غير أب فلأن لا يبعد تخليق عيسى من غير أب كان أولى وهذه حجة ظاهرة ، وأما على أصول الفلاسفة فالأمر في تجويزه ظاهر وبدل عليه وجوه (الأول) أن الفلاسفة اتفقوا على أنه لا يمنع حدوث الإنسان على سبيل التولد من غير تولد فانوا : لأن بدن الإنسان إنما استمد لقبول النفس الناطقة التي تدبر بواسطة حصول الزواج المخصوص في ذلك البدن ، وذلك الزواج إنما جعل لامتزاج العناصر الأربعة على قدر معين في مدة معينة ، فحصول أجزاء العناصر على ذلك القدر الذي يناسب بدن الإنسان غير متسع وامتزاجها غير ممتنع ، فامتزاجها يكون عند حدوث الكيفية المزاجية واجباً ، وعند حدوث الكيفية المزاجية يكون تعلق النفس بذلك البدن واجباً ، فثبت أن حدوث الإنسان على سبيل التولد معقول ممكن ، وإذا كان الأمر كذلك فحدوث الإنسان لا عن الأب أولى ما لم يواز بالإمكان .

﴿ الوجه الثاني ﴾ وهو أننا نشاهد حدوث كثير من الحيوانات على سبيل التولد ، كنولد الفأر عن المدر ، واخبات عن الشعر ، والعقرب عن البافروج ، وإذا كان كذلك فتولد الولد لا عن الأب أولى أن لا يكون ممنوعاً .

﴿ الوجه الثالث ﴾ وهو أن التخيالات الذهنية كثيراً ما تكون أسباباً لحدوث الحوادث الكثيرة ليس أن تصور المثاني يوجب حصول الغضب ، ويوجب حصول الحوبة الشديدة في البدن ليس اللوح الطويل إذا كان موضوعاً على الأرض قدر الإنسان على المشي عليه ولو جعل كالمنظرة على وحدة لم يقدر على المشي عليه ، بل كلما مشى عليه سقط وما ذاك إلا أن تصور السقوط يوجب حصول السفوط ، وقد ذكروا في كتب الفلسفة أمثلة كثيرة لهذا الباب ، وجعلوها كالأصل في بيان جواز المعجزات والكرامات ، فما المانع من أن يقال إنه لما تحولت صورته عليه السلام كفى ذلك في علوق الولد في رحها ، وإذا كان كل هذه الوجوه ممكنة محتملاً كان القول بحدوث عيسى عليه السلام من غير وسطة الأب قولاً غير ممتنع ، ولو أنك طالبت جميع الأولين والآخرين من أرباب الطبائع والطب والفلسفة على إقامة حجة إيجابية في امتناع حدوث الولد من غير الأب ثم يجدوا إليه سبيلاً إلا الرجوع إلى استقراله العرف والعادة ، وقد اتفق علماء الفلاسفة على أن مثل هذا الاستقراء لا يفيد الظن القوي فضلاً عن

الحلم ، فلعننا أن ذلك أمر ممكن فلما أخبر العباد عن وقوعه وجب الجزم به والقطع بصحته .

أما قوله تعالى (بكلمة منه) فلفظة (من) ليست للتبعيض ههنا إذ لو كان كذلك لكان الله تعالى متجزئاً متبعضاً متجسماً للاجتماع والافتراق وكل من كان كذلك فهو عدت وتعالى الله عنه ، بل المراد من كلمة (من) ههنا ابتداء الغاية وذلك لأن في حق عيسى عليه السلام لما لم تكن واسطة الأب موجودة صار تأثير كلمة الله تعالى في تكوينه وتخليقه أكمل وأظهر فكان كونه كلمة (الله) مبداً لظهوره ولخودته أكمل فكان المعنى لفظ ما ذكرناه لا ما يترجمه النصارى والحلولية .

وأما قوله تعالى (اسمع المسيح عيسى ابن مريم) ففيه مؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ المسيح : هل هو اسم مشتق ، أو موضوع ؟ .

(والجواب) فيه قولان (الأول) قال أبو عبيدة والليث : أصله بالعبرانية منبجاً ، فعربته العرب وعبروا لفظه ، وعيسى : أصله يشوع كما قالوا في موسى : " صله موسى " ، أو مبشاً بالعبرانية ، وعلى هذا القول لا يكون له اشتقاق .

﴿ والقول الثاني ﴾ أنه مشتق وعليه الأكثر ، ثم ذكر رأييه وجوهاً (الأول) قال ابن عباس : إنما سمي عيسى عليه السلام مسيحاً ، لأنه ما كان بمسح بيده ذاعمة ، إلا برىء من مرضه (الثاني) قال أحمد بن يحيى : سمي مسيحاً لأنه كان بمسح الأرض أي يغطيها ، وبمه مساحة أقسام الأرض ، وعلى هذا المعنى يجوز أن يقال : لعيسى مسح بالتشديد على المتباعدة كما يقال للرجل فسبح وشرب (الثالث) أنه كان مسيحاً ، لأنه كان بمسح رأسه التمامي لله تعالى ، فعلى هذه الأقوال : هو فاعل بمعنى : فاعل ، كرحيم بمعنى : راحم (الرابع) أنه مسح من الأوزار والأثام (والخامس) سمي مسيحاً لأنه ما كان في قدمه خوص ، فكان مسح القدمين (والسادس) سمي مسيحاً لأنه كان مسحاً بدهن طاهر مبارك بمسح به الأنبياء ، ولا مسح به غيرهم . ثم فقلوا : وهذا الدهن يميز أنه يكون الله تعالى جعله علامة حتى تعرف الملائكة أن كل من مسح به وقت الولادة فإنه يكون نبياً (السابع) سمي مسيحاً لأنه مسح جبريل بدهن جناحه وقت ولادته ليكون ذلك صوناً له عن مس الشيطان (الثامن) سمي مسيحاً لأنه خرج من بطن أمه مسحاً بالدهن ، وعلى هذه الأقوال يكون المسيح ، بمعنى : المسحوق ، فعلى بمعنى : مفعول . قال أسعمر بن الصلاء المسح : الملك . وقال النعماني : المسيح الصديق والله أعلم . ولعنهما قالا ذلك من جهة كونه مدحاً لا لدلالة اللغة عليه ، وأما المسيح النجل فلما سمي مسيحاً لأحد وجهين (أحدهما) لأنه مسح أحد

العيني (الثاني) أنه يمسح الأرض أي : يقطعها في المدة القليلة ، قالوا : وهذا قيل له :
دجال لضربه في الأرض ، وقطعه أكثر مواضعه ، يقال : قد دخل الدخان يد فعل ذلك ،
وقيل : سمي دجالاً من فونه : دجل الرجل إذا موه ولس .

﴿ السؤال الثاني ﴾ المسيح كن كالقلب له ، وعيسى كالاسم فلم قدم القلب عن
الاسم ؟ .

(الجواب) أن المسيح كالقلب الذي يعيد كونه شريعاً رفيع المـدرجة ، مثل المصدين
والناروق فذكره الله تعالى أولاً بلفظه ليبيـد علم درجته ، ثم ذكره باسمه الخاص .

﴿ السؤال الثالث ﴾ لم قلـ عيسى بن مريم والخطاب مع مريم ؟

(الجواب) لأن الأنبياء يسبون إلى الأمان لا إلى الأمهات ، فلما نسب الله تعالى إلى الأم
دون الأب ، كان ذلك إعلـاماً لما بأنه محدث بعـي الأب ، فكان ذلك سبباً لزيادة فضله وعلو
درجته .

﴿ السؤال الرابع ﴾ النصير في قوله : باسمه عاشد إلى الكلمة وهي مؤنثة فلم ذكر
النصير ؟ .

(الجواب) لأن المسمى بها مذكر .

﴿ السؤال الخامس ﴾ لم قال اسمه المسيح عيسى بن مريم ؟ والاسم ليس الأعيسى ،
وأما المسيح فهو لقب ، وأما ابن مريم فهو صفة .

(الجواب) الاسم علامة المسمى ومعرف له ، فكأنه قيل : الذي يعرف به هو مجموع
هذه الثلاثة .

أما قوله تعالى (وجيهاً في الدنيا والأخرة) فعبه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ معنى الوجيه : ذو الحياء والشرف والقدـر ، بهذا : وجه الرجل ،
بوجه وجاعة فهو وجيه ، إذا صارت له منزلة رفيعة عند الناس والسلطان ، وقال مص أهل
اللفظ : الوجيه : هو الكريم ، لأن شرف أعضاء الإنسان وجهه فجعل الوجه استعارة عن
الكرم والكمال .

والمعلم أن الله تعالى وصف موسى بـ« كان وجيهاً » قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا
تذكروا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان معه الله وجيهاً) ثم لتفسير قول :

(الأول) قال الحسن : كان وجهها في الدنيا بسبب النبوة ، وفي الآخرة بسبب علو المنزلة عند الله تعالى (والثاني) أنه وجهه عند الله تعالى ، وأما عيسى عليه السلام ، فهو وجهه في الدنيا بسبب أنه يستجاب دعؤه ويحيى الموتى ويرى الأكمرة والأبرص بسبب دعائه ، وجهه في الآخرة بسبب أنه يجعله شفيح أمته المحققين ويقتل شفاعتهم فيهم كما يقتل شفاعته أكابر الأنبياء عليهم السلام (والثالث) أنه وجهه في الدنيا بسبب أنه كان مبرأ من العيوب التي وصفه اليهود بها ، وجهه في الآخرة بسبب كثرة ثوابه وعلو درجته عند الله تعالى .

فإن قيل : كيف كان وجهها في الدنيا واليهود عاملوه بما عاملوه ، قلنا : قد ذكرنا أنه تعالى سمى موسى عليه السلام بالوجه مع أن اليهود طعنوا فيه ، وأذوه إلى أن برأه الله تعالى عما قالوا ، وذلك لم يقدح في وجاهة موسى عليه السلام ، فكذلك هنا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الزجاج (وجهها) منصوب على الحال ، المعنى : أن الله يشرك بهذا الولد وجهها في الدنيا والآخرة ، والقراء يسمي هذا قطعاً كأنه قال : عيسى بن مريم الوجه قطع منه التحريف .

أما قوله (ومن القربين) ففيه وجه (أحدها) أنه تعالى جعل ذلك كاندح العظيم للملائكة فأخفه نزل منزلتهم ودرجتهم بواسطة هذه الصفة (وثانيها) أن هذا الوصف كالنبيه على أنه عليه السلام سيرفع إلى السماء وتصابه الملائكة (وثالثها) أنه ليس كل وجهه في الآخرة يكون مقرباً لأن أهل الجنة على منال ودرجات ، ولذلك قال تعالى (وكنتم أزواجاً ثلاثاً) إلى قوله (والسابقون السابقون أولئك المقربون) .

أما قوله تعالى (ويكلم الناس في المهد وكهلاً) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ انوار للمعطف على قوله (وجهها) والتقدير كأنه قال : وجهها ومكلاً للناس وهذا عندي ضعيف ، لأن عطف الجملة الفعلية على الإسمية غير جائز إلا للضرورة ، أو الفائدة والأولى أن يقال تقدير الآية (إن الله يشرك بكلمة من اسمه المسيح عيسى ابن مريم) الوجه في الدنيا والآخرة المعداد من القربين ، وهذا الجمع جملة واحدة ، ثم قال (ويكلم الناس) فقوله (ويكلم الناس) عطف على قوله (إن الله يشرك) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في المهد قولان (أحدهما) أنه حجر أمه (والثاني) هو هذا الشيء المعروف الذي هو مضجع العيسى وقت الرضاع ، وكيف كان فالمراد منه : فإنه يكلم الناس في الحالة التي يحتاج العصر فيها إلى المهد ، ولا يختلف هذا المقصود سواء كان في حجر أمه أو كان في المهد .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (وكهلاً) عطف على الطرف من قوله (في المهد) كأنه قيل : يكلم الناس صغيراً وكهلاً وههنا سوالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ ما الكهل ؟ .

(الجواب) الكهل في اللغة ما اجتمع قوته وكمل شبابه . وهو ما سود من قول العرب اكتهل النبات إذا قوى وتم قال الأصمى :

بضاحك الشمس منها كوكب شرق . مؤزر بحميم التبت مكتهل
أراد بالكتهل المتناهي في الحسن والكمال .

﴿ السؤال الثاني ﴾ أن نكلمه حال كونه في المهد من المعجزات ، فأما تكلمه حال الكهولة فليس من المعجزات ، فما الفائدة في ذكره ؟ .

(والجواب) من وجوه (الأول) أن المراد منه بين كونه متقبلاً في الأحوال من الصبا إلى الكهولة والتغير على الإله تعالى محال ، والمراد منه الرد على وفد نجران في قولهم : إن عيسى كان لغاً (والثاني) المراد منه أن يكلم الناس مرة واحدة في المهد لإظهار طهارة أمه . ثم عند الكهولة يتكلم بالوحي والنبوة (والثالث) قال أبو مسلم : معناه أنه يكلم حال كونه في المهد ، وحدث كونه كهلاً على حد واحد وصفة واحدة وذلك لا شك أنه غيبة في المعجز (الرابع) قال الأصمى : المراد منه أنه يبلغ حال الكهولة .

﴿ السؤال الثالث ﴾ نقل أن عمر عيسى عليه السلام إلى أن رفع كان ثلاثاً وثلاثين سنة وستة أشهر ، وعلى هذا التقدير : فهو ما بلغ الكهولة .

(والجواب) من وجهين (الأول) بينا أن الكهل في أصل اللغة عبارة عن الكامل النام ، وأكمل أحوال الإنسان إذا كان بين الثلاثين والأربعين ، فصيح وصفه بكونه كهلاً في هذا الوقت (والثاني) هو قول الحسين بن الفضل البجلي : أن المراد بقوله (وكهلاً) أن يكون كهلاً بعد أن ينزل من السماء في آخر الزمان ، ويكلم الناس ، ويفعل الدجال ، قال الحسين بن الفضل : وفي هذه الآية نص في أنه عليه الصلاة والسلام ميمون إلى الأرض .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أنكرت النصارى كلام المسيح عليه السلام في المهد ، واحتجوا على صحة قولهم بأن كلامه في المهد من أعجب الأسود وأغربها ، ولا شك أن هذه الواقعة لو وقعت لوجب أن يكون وقوعها في حضور الجميع العظيم الذي يحصل القطع واليقين بشوهم ،

قالت رب انى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى
أمراً فما تسمع يقول لم تكن قبك كون ﴿١٧﴾ ويمليه الكتيب والحكمة والتوراة والإنجيل ﴿١٨﴾

لأن تخصيص مثل هذا المعجز بالواحد والاثنين لا يجوز ، ومتى حدثت الواقعة العجيبة جداً عند حضور الجميع العظيم فلا بد وأن تتوفر الدواعي على النفل فيصير ذلك بالغاحد التواتر ، وإخفاء ما يكون بالغوا إلى حد التواتر مجتمع ، وأيضاً فلو كان ذلك لكان ذلك الإخفاء مهتماً لأن النصارى بالغوا في إفراط عبته إلى حيث قالوا إنه كان إلهاً ، ومن كان كذلك مجتمع أن يسمى في إخفاء منلقه ونضائله بل ربما يجعل الواحد ألفاً فثبت أن لو كانت هذه الواقعة موجودة لكان أولى الناس بمعرفتها النصارى ، ولنا أنطبقوا على تكرارها علمنا أنه ما كان موجوداً البتة .

أجاب المتكلمون عن هذه الشبهة ، وقالوا : إن كلام عيسى عليه السلام في المهد إنما كان للدلالة على براءة حاك مريم عليها السلام من الفاحشة ، وكان الحاضرون جمعاً قليلين ، فليسمعوا لذلك الكلام ، كان جمعاً قليلاً ، ولا يبعد في مثله التواطؤ على الإخفاء ، ويتقدير : أن يذكر ذلك إلا أن لليهود كانوا يكذبونهم في ذلك وينسبونهم إلى البهت ، فهم بضاً قد سكتوا هذه العلة فلأجل هذه الأسباب بقي الأمر مكتوماً مخفياً إلى أن أخبر الله سبحانه وتعالى محمداً ﷺ بذلك ، وأيضاً فليس كل النصارى ينكرون ذلك ، فإنه نقل عن جعفر بن عيسى ، وابن مالك : لما قرأ على النجاشي سورة مريم ، قال النجاشي : لا تفاوت بين واقعة عيسى ، وبين المذكور في هذا الكلام مذرة .

ثم قال تعالى (ومن الصالحين) .

فلن قيل : كون عيسى كلمة من الله تعالى ، وكونه (وجيهاً في الدنيا والآخرة) وكونه من لقربين عند الله تعالى ، وكونه مكملاً للناس في المهد ، وفي الكهولة كل واحد من هذه الصفات أعظم وأشرف من كونه صالحاً فلم ختم الله تعالى أو صاف عيسى بقوله (ومن الصالحين) ؟ .

قلنا : إنه لا رتبة أعظم من كون المرء صالحاً لأنه لا يكون كذلك إلا ويكون في جميع الأفعال والتروك مواظباً على النهج الأصلى ، والطريق الأكمل ، ومعلوم أن ذلك يتناول جميع المقامات في الدنيا والدن في نعمات القلوب ، وفي أفعال الجوارح ، فلما ذكر الله تعالى بعض التفاصيل أردفه بهذا الكلام الذى يدل على أربع المنرجات .

قوله تعالى هـ قالت رب انى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فالما يقول له كن فيكون ﴿١٧﴾ .

وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِقَائِمٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِي

قال المفسرون : إنها إذا قالت ذلك لأن النبش به يقتضي التعجب مما وقع على خلاف العادة وقد قررنا مثله في قصة زكريا عليه السلام ، وقوله (إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) تقدم تفسيره في سورة البقرة .

أما قوله تعالى ﴿ ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ : فرا نافع ، وعاصم (ويعلمه) بالياء والباءون بالنون ، أما الياء فعطف على قوله (يخلق ما يشاء) وقال المبرد عطف على يبرئ بكلمة ، وكذا وكذا (ويعلمه الكتاب) ومن قرأ بالنون قال تقدير الآية أنها : قالت رب أئني يكون لي ولد فقال لها الله (كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) فهذا وإن كان إخباراً على وجه المغلبة ، فقال (ونعلمه) لأن معنى قوله (كذلك الله يخلق ما يشاء) معناه : كذلك نحن نخلق ما نشاء (ونعلمه الكتاب والحكمة) والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ : في هذه الآية أمور أربعة معطوف بعضها على بعض بواو العطف ، والأقرب عندني أن يقال : المراد من الكتاب تعليم الخط والكتابة ، ثم المراد بالحكمة تعليم العنوم وتهذيب الأخلاق لأن كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به وعمومها هو المسمى بالحكمة . ثم بعد أن صار عالماً بالخط والكتابة ، ومحيطاً بالعلوم العقلية والشرعية ، يعلم التوراة ، وإنما أخرج تعليم التوراة عن تعليم الخط والحكمة : لأن التوراة كتاب إلهي ، وفيه أسرار عظيمة ، والإنسان ما لم يتعلم العلوم الكثيرة لا يمكنه أن يتفهم في البحث على أسرار الكتب الإلهية . ثم قال في المرتبة الرابعة والإنجيل ، وإنما أخرج ذكر الإنجيل عن ذكر التوراة لأن من تعلم الخط ، ثم تعلم علوم الحق ، ثم أحاط بأسرار الكتاب الذي أنزل الله تعالى على من قبله من الأنبياء فقد عظمت تربيته في العلم فإذا أنزل الله تعالى عليه بعد ذلك كتباً آخر وأوقفه على أسرارها فذلك هو المغلبة القصوى ، والمرتبة العليا في العلم ، والفهم والإحاطة بالأسرار العقلية والشرعية ، والإطلاع على الحكم العلوية والسفلية . فهذا ما عندني في ترتيب هذه الألفاظ الأربعة .

ثم قال تعالى ﴿ ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم ﴾ وفيه مسائل :

كَهَيْجَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ

﴿ المسألة الأولى ﴾ في هذه الآية وجوه (الأول) تقدير الآية : ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وينبئه رسولاً (إلى بني إسرائيل ، قائلًا : أني قد جعلتكم بآية من ربكم ، وأخذف حصن إذا لم يفسد إلى الاشقياء (الثاني) قال الزجاج : الإعتبار عسدي أن تقديره : ويحكم الناس رسولاً ، وإنما أضربنا ذلك لقوله (أني قد جعلتكم والمعنى : ويحكمهم رسولاً بأنني قد جعلتكم) (الثالث) قال الأخفش : إن شئت جعلت الواو زائدة ، والتقدير : ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة ، والإنجيل رسولاً إلى بني إسرائيل ، قائلًا : أني قد جعلتكم بآية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذه الآية تدل على أنه يجب أن كان رسولاً إلى كل بني إسرائيل بخلاف قول بعض اليهود إنه كان مبعوثاً إلى قوم مخصوصين منهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المراد بالآية الجنس لا الفرد لأنه تعالى عدده مهنا أنوماً من الآيات ، وهي إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، والإخبار عن الغيبات فكان المراد من قوله (قد جعلتكم بآية من ربكم) الجنس لا الفرد .

ثم قال ﴿ أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ﴾ .

اعلم أنه تعالى حكى مهنا خمسة أنواع من معجزات عيسى عليه السلام :

الفرع الأول

ما ذكره مهنا في هذه الآية وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فراء حمزة (أني) يفتح الميمزة ، وفراء نافع بكسر الفيمزة فمن فتح (أني) فقد جعلها بدلاً من أي كان قال : وجعلتكم بأنني أخلق لكم من الطين ، ومن كسرها وسهنا (أحدهما) الاستئناف وقطع الكلام بما قبله (والثاني) أنه فسر الآية بقوله (أني أخلق لكم) ويجوز أن يفسر الجملة متقدمة بما يكون على وجه الابتداء قال الله تعالى (وعد الله الذين

أمنوا وعملوا الصالحات) ثم فسر الموعود بقوله (لهم مغفرة) وقال (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم) ثم فسر المثل بقوله (خلقه من تراب) وهذا الوجه أحسن لأنه في المعنى كقراءة من فتح (أنى) على جعله بدلاً من أية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (أخلق لكم من الطين) أي أقدر وأصور وقد بينا في تفسير قوله تعالى (يا أيها الناس اصبروا ربكم الذي خلقكم) إن الخلق هو التقدير ولا بأس بأن نذكره هنا أيضاً فنقول الذي يدل عليه القرآن والشعر والاستشهاد ، أما القرآن فآيات (أحدها) قوله تعالى (نبارك الله أحسن الخالقين) أي المقدرين ، وذلك لأنه ثبت أن العبد لا يكون خالقاً بمعنى التكوين والإبداع فوجب تفسير كونه خالقاً بالتقدير والتسوية (وثانيها) أن لفظ الخلق يطلق على الكذب قال تعالى في سورة الشعراء (إن هذا إلا خلق الأولين) وفي العنكبوت (وتحنقون عتقا) وفي سورة ص (إن هذا إلا اختلاق) والكاذب إنما سمي خالقاً لأنه يقدر الكذب في خاطره ويصوره (وثالثها) هذه الآية التي نحن في تفسيرها وهي قوله (أنى أخلق لكم من الطين) أي أقدر وأصور (ورابعها) قوله تعالى (وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير) وكل ذلك يدل على أن الخلق هو التصيير والتقدير (ورابعها) قوله تعالى (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً) وقوله (خلق) إشارة إلى الماضي ، فنو حملنا قوله (خلق) على الإيجاد والإبداع ، فكان المعنى : أن كل ما في الأرض فهو تعالى قد أوجده في الزمان الماضي ، وذلك باطل بالاتفاق ، فوجب حمل الخلق على التقدير حتى يصبح الكلام وهو أنه تعالى فسر في الماضي كل ما وجد الآن في الأرض ، وأما الشعر فقوله :

ولأنت تفسرى ما خلفت وبعيد
ض الغيوم يخلق شم لا يفرى

وقوله

ولا بمعنى بأيدي الخلقين ولا
أبدي الخوائف إلا جيد الأدم

﴿ وأما الاستشهاد ﴾ فهو أنه يقال : خلق العمل إذ قدرها وسواها بالقياس والاختلاق المقدار من الخبر ، ولان خليل بكذا ، أي له هذا المقدار من الإشتقاق ، والصخرة اختلاف النساء ، لأن الملاسة استواء ، وفي الحسونة اختلاف ، فثبت أن الخلق عبارة عن التقدير والتسوية .

إذا عرفت هذا فنقول : اختلف الناس في لفظ (الخالق) فإلى أبو عبد الله البصري : إنه لا يجوز إطلاقه على الله في الحقيقة ، لأن التقدير والتسوية عبارة عن الطن والحسبان وذلك على الله محال ، وقال أصحابنا : الخالق ، ليس إلا الله ، واحتجوا عليه بقوله تعالى (الله خالق كل

شبهه) ومنهم من احتج بقوله (هل من خالق غير الله يرزقكم) وهذا ضعيف ، لأنه تعالى قال (هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء) فالله تعالى هو من خالق غير الله موصوف بوصف كونه رازقاً من السماء ولا يلزم من صدق قولنا لخالق الذي يكون هذا شأنه ، ليس لا الله ، صدق قولنا أنه لا خالق إلا الله . واجابوا عن كلام أبي عبد الله بأن التقدير والتسوية عبارة عن العلم والظن لكن الظن وإن كان محالاً في حق الله تعالى فالعلم ثابت .

بذا عرفت هذا فنقول (أني أخلق لكم من الطين) معناه : أصور وأقدر وبوله (كهية الطين) فاقية بصورة الهيئة من قوهم هيات الشيء إذ قدرته وقوله (فأنفخ فيه) أي في ذلك الطين المصور وقوله (فيكون طيراً باذى الله) غيب مسائل :

❖ المسألة الأولى ❖ قرأ نافع (فيكون طيراً) بالالف على الواحد ، والياقون (طيراً) على الجمع ، وكذلك في المائة والطين اسم الجنس يقع على الواحد وعلى الجمع .

يروي أن عيسى عليه السلام لما ادعى النبوة ، وأظهر المعجزات أخذوا يتعنتون عليه وطالبوه بإخلاق خفاش ، فأنفذ طيراً وصورة ، ثم نفخ فيه ، فإذا هو بطير بين السماء والأرض ، قال وهب : كان بطير ما دام الناس ينظرون إليه ، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتاً ، ثم اختلف الناس فقاتل قوم : إنه لم يخلق غير الخفاش ، وكانت فرقة تافع عليه . وقال آخرون : إن خلقاً أنواعاً من الطير وكانت قرأه الياقين عليه .

❖ المسألة الثانية ❖ قال بعض المتكلمين : الآية تدل على أن الروح جسم رفيع كالريح ، ولدلت وصعها بالفتح ، ثم هبت بحث . وهو أنه هل يجوز أن يقال : إنه تعالى أودع في نفس عيسى عليه السلام خاصية ، بحيث متى نفخ في شيء كان نفخه فيه موجباً لصيرورة ذلك الشيء حياً ، أو يقال : ليس الأمر كذلك بل الله تعالى كان يخلق الحياة في ذلك الجسم بقدرته عند نفخة عيسى عليه السلام فيه على سبيل إظهار المعجزات ، وهذا الثاني هو الحق بقوله تعالى (الذي خلق الموت والحياة) وحكى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال في مناظرة مع الملك (ربي الذي يحيي ويميت) فلو حصل لغيره ، هذه الصفة لبطل ذلك الاستدلال .

❖ المسألة الثالثة ❖ القرآن دل على أنه عليه الصلاة والسلام إنما تولد من نفخ جبريل عليه السلام في مريم وجبريل كخروج محمّد وروحاني محمّد فلا جرم كانت نفخة عيسى عليه السلام للحياة والروح .

وَأَبْرَأُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخْبِي الْأَعْمَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمِمَّا تَدْعُونَ
فِي بُيُوتِكُمْ

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (بإذن الله) معناه بتكوين الله تعالى وتخليقه لقوله تعالى (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله) أي إلا بأن يوجد الله الموت ، وإذنا ذكر عيسى عليه السلام هذا انقياد لإرادة التشبيه ، ونسبها على بني إسرائيل هذا التصوير ، فإما خلق الخلية فهو من الله تعالى على سبيل إظهار المعجزات على يد الرسل .

وأما النوع الثاني والثالث والرابع من المعجزات

فهو قوله ﴿ وأبرئ الأكمة والأبرص وأخبي الأعرج بإذن الله ﴾

ذهب أكثر أهل اللغة إلى أن الأكمة هو الذي ولد أعمى ، وقال الخليل وغيره وهو الذي عمى بعد أن كان بصيراً ، وعن مجاهد هو الذي لا يجر بالليل ، ويقال : إنه لم يكن في هذه الأكمة غير فتاة بن دعامه السديني صاحب التفسير ، وروى أنه عليه الصلاة والسلام رجا أصبح عبيد خسون الفأ من الرخص من أطاق منهم أنا ، ومن لم يطلق أنا عيسى عليه السلام . وما كانت مداواته إلا بالدعاء وحده ، قال الكلبي : كان عيسى عليه السلام يحيي الأموات بياحي يا قيوم وأحيا عافور ، وكان صديقاً له ، ودعا سام بن نوح من قبره ، فخرج حياً ، ومر على ابن عبيد تعجوز فدعا الله ، فنزل عن سريره حياً ، ورجع إلى أهله وولده ، وقوله (بإذن الله) رفع لنوعهم من اعتقاد فيه الإلهية .

وأما النوع الخامس

من المعجزات إخباره عن الغيوب فهو قوله تعالى حكاية عنه ﴿ وأنتكم بما تأكلون وما تدعون في بيوتكم ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في هذه الآية قولان (أحدهما) أنه عليه الصلاة والسلام كان من أول مرة يخبر عن الغيوب ، روى السدي . أنه كان يبعث مع الصبيان ، ثم يخبرهم بأفعال

إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُم مِّنْهُ ۖ وَإِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ وَمَصَدَّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحْلَ
لِكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ ﴿٣٢﴾
إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٣﴾

أبائهم وأمهاتهم ، وكان يحرم الصبي بأن أمك قد نجات لك كذا فبرح الصبي إلى أهله
ويكي إلى أن يأخذ ذلك الشيء ثم قالوا للصبيان : لا تلعبوا مع هذا الساحر ، وجمعهم في
بيت ، فجاء عيسى عليه السلام يطلبهم ، فقالوا له : ليسوا في البيت ، فقال : فمن في هذا
البيت ، قالوا : خنازير قال عيسى عليه السلام كذلك يكونون فإذا هم خنازير .

﴿ والعول الثاني ﴾ : إن الإخبار عن الغيوب إنما ظهر وقت نزول المائدة ، وذلك لأن
القوم هموا عن الإخبار ، فكانوا يخزنون ويدخرون ، فكان عيسى عليه السلام يحيرهم بذلك

﴿ المسألة الثانية ﴾ : الإخبار عن الغيوب على هذا الوجه معجزة ، وذلك لأن المنجمين
الذين يدعون استخراج الخير لا يمكنهم ذلك إلا عن سؤال يتقدم ثم يستنبطون عند ذلك بأنه
وينوصلون بها إلى معرفة أحوال الكواكب ، ثم يعرفون بأنهم يغاطون كثيراً ، فأما الإخبار عن
الغيب من غير استعانة بأداة ، ولا تقدم مسألة لا يكون إلا بالوحي من الله تعالى .

ثم إنه عليه السلام حتم كلامه بقوله ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُم مِّنْهُ ۖ ﴾ .

والمنشئ إن في هذه الحصة لمعجزة قاهرة قوية دالة على صدق المدعي لكل من آمن بدلائل
المعجزة في الحمل على الصدق ، على من أنكر دلالة أصل المعجز على صدق المدعي ، وهم
المرأمة ، فإنه لا يكفيه ظهور هذه الآيات ، أما من آمن بدلالة المعجز على الصدق لا ينشئ له
في هذه المعجزات كلام البتة .

قوله تعالى ﴿ وَمَصَدَّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحْلَ لِكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ
بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾

اعلم أن عليه السلام لما بين هذه المعجزات الباهرة كونه رسولاً من عند الله تعالى . بين

بعد ذلك إنه بجاء أرسل وهو امران (أحدهما) قوله (ومصدقاً لما بين يدي من التوراة) .
وعنه مسئلتان :

❖ المسألة الأولى ❖ قد ذكرنا في قوله (ورسولاً إلى بني إسرائيل) أني قد جتكم بآية (أن
تقدبره وأبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل قائلاً) (أني قد جتكم بآية) فقوله (ومصدقاً) معطوف
عليه والتقدير : وأبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل قائلاً (أني قد جتكم بآية) ، وإنني بعثت
(مصدقاً لما بين يدي من التوراة) وإغا حسن حذف هذه الألفاظ للدلالة للكلام عليها

❖ المسألة الثانية ❖ إنه يجب على كل نبي أن يكون مصدقاً لجميع الأنبياء عليهم
السلام . لأن الطريق إلى ثبوت نرفهم هو الحجرة ، فكأن من حصل له المعجز ، وحب
الاعتراض بنبوته ، فهذا قلنا : بأن عيسى عليه السلام يجب أن يكون مصدقاً لموسى بالتوراة ،
ولعل من جهة الاعتراض في بعثه عيسى عليه السلام إليهم تقرير التوراة وإزالة شبهات المكركين
وتعريفات الجاهلين .

❖ وأم المقصود الثاني ❖ من بعثه عيسى عليه السلام قوله (ولأحل لكم بعض الذي
حرم عليكم)

❖ وفيه سؤال ❖ وهو أنه يقال : هذه الآية الأخيرة مناقضة لما قبلها لأن هذه الآية الأخيرة
صريحة في أنه جاء ليحل بعض الذي كان محرماً عليه في التوراة ، وهذا يقتضي أن يكون حكمه
بخلاف حكم التوراة ، وهذا يناقض قوله (ومصدقاً لما بين يدي من التوراة) .

(والحواب) إنه لا تنقص بين الكلام ، وذلك لأن التصديق بالتوراة لا معنى له إلا
اعتقاد أن كل ما فيها فهو حق وصواب ، وإذا لم يكن كذلك لم يكن مذكوراً في التوراة لم يكن حكم
عيسى بتحليل ما كان محرماً فيها ، مناقضاً لكونه مصدقاً بالتوراة ، وأيضاً إذا كانت البشارة
بعيسى عليه السلام موحدة في التوراة لم يكن يجيء عيسى عليه السلام وشرعه مناقضاً للتوراة ،
ثم اختلفوا فقال بعضهم : إنه عليه السلام ما غير شيئاً من أحكام التوراة ، قال وهب بن
منبه : إن عيسى عليه السلام كان على شريعة موسى عليه السلام كان يقرر السبت ويستقبل بيت
القدس ، ثم إنه فسرقوله (ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم) بأمرين (أحدهما) إن
الأخبار كانوا قد وضعوا من عند أنفسهم شريع باطلة ونسبوها إلى موسى . فجاء عيسى عليه
السلام ورفعها وأعطى الأمر إلى ما كان في زمن موسى عليه السلام (والثاني) أن الله
تعالى كان قد حرم بعض الأشياء على اليهود عقوبة لهم على بعض ما صدر عنهم من الجنايات

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِجُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ؕ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّهُ مُسْلِمُونَ ﴿٥٦﴾ رَبَّنَا ؕ آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٧﴾ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَآهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ الْمَكْرِينِ ﴿٥٨﴾

كما قال الله تعالى (فظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم ضيأت أحلت لهم) ثم بقي ذلك التحريم مستمرا على اليهود فجاء عيسى عليه السلام ورفع تلك التشديدات عنهم ، وقال اخرون : إن عيسى عليه السلام دفع كثيرا من أحكام التوراة ، ولم يكن ذلك قادحا في كونه مصدقا بالتوراة على ما بيناه ورفع التسيث ووضع الأحكام فأنها مقامه وكان عفا في كل ما عمل لما بينا أن النسخ والنسوح كلاهما حتى وصدق .

ثم قال (وجنتكم بأية من ربكم) وإنما أعاده لأن إخراج الإنسان عن المألوف المعتاد من قديم الزمان عسر فأعاد ذكر المعجزات ليصور كلامه ناجعا في قلوبهم ومؤثرا في طباعهم ، ثم خوفهم فقال (فاتقوا الله وأطيعون) لأن طاعة الرسول من لوازم تقوى الله تعالى فينبى أنه إذا لزمكم أن تقوا الله لزمكم أن تطيعوني فيما أمركم به عن ربي ، ثم إنه ختم كلامه بقوله (إن الله ربي وربكم) ومقصوده إظهار الخضوع والاعتراف بالعبودية لكيلا يقولوا عليه الباطل فيقولون : إنه إله وابن إله لأن إقراره به بالعبودية يمنع مما تدعيه جهال النصارى عليه ، ثم قال (فاتبعوه) والمعنى : أنه تعالى لما كان رب الخلاقين بأسرهم وجب على الكل أن يعبدوه ، ثم أكد ذلك ذلك بقوله (هذا صراط مستقيم) .

قوله تعالى ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الخواريون نحن أنصار الله ؕ آمنا بالله واشهد أنا مسلمون ﴾ ربنا ؕ آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ، ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴿ ٥٨ ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما حكى بشارة مريم بولد مثل عيسى واستقصى في بيان صفته وشرح معجزاته وترك ههنا قصة ولادته ، وقد ذكرها في سورة مريم على الاستقصاء ، شرع في بيان أن عيسى لما شرح لهم تلك المعجزات ، وأظهر لهم تلك الأدلة فهم بماذا صاموه فقال تعالى (فلما أحس عيسى منهم) وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الإحساس عبارة عن وجدان الشيء باحساسه وههنا وجهان (أحدهما) أن يجري اللفظ على ظاهره ، وهو إنهم تكلموا بالكفر ، وأحس ذلك بآدم (والثاني) أن نحمله على التأويل ، وهو أن المراد أنه عرف منهم إصرارهم على الكفر ، وعزمهم على قتله ، ولما كان ذلك اتعلم علماً لا شبهه فيه ، مثل العلم الحاصل من الخواس ، لا جرم غير عن ذلك العلم بالإحساس .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا في تسيب الذي به ظهر كفرهم على وجه (الأول) قال السدي : أنه تعالى ما بعث رسولاً إلى بني إسرائيل جاءهم ودعاهم إلى دين الله فتمردوا وعصوا فحافهم ، وخفى عنهم . وكان أمر عيسى عليه السلام في قومه كأمر محمد ﷺ وهو بركة فكان مستصفاً ، وكان يخفي من بني إسرائيل كما احتفى النبي ﷺ في العار : وفي منازل من آمن به لما أرادوا قتله ، ثم إنه عليه الصلاة والسلام خرج مع أمه يسجد في الأرض ، فأتى أمه سرا في قرية على رجل فأحس ذلك الرجل ضيقه وكان في تلك المدينة ملك جدار فجاء ذلك الرجل يوماً حزياً ، فسأله عيسى عن السب فقال : ملك هذه المدينة رجع جيباً ومن عادته أنه يجعل على كل رجل منا يوماً يفضعه ويسقيه هو وجوده : وهذا اليوم موتني وأأمر متعذر علي ، فلما سمعت حريم عليها السلام ذلك ، قالت : يا بني ادع الله ليكني ذلك ، فقال : يا أمه إن فعلت ذلك كان شر ، فقلت : قد أحسن وأكرم ولا بد من إكرامه فقال عيسى عليه السلام : إذا قرب عبيء الفاك قاماً قدورك وخوابيك ماء ثم أعلمني : فلما فعل ذلك دعا الله تعالى فتمردوا في القصور ضيقاً ، وما في دخولي خيراً ، فلما جاء ذلك أكل وشرب وسأله من أين هذا فتمرد ؟ فقال الرجل في الجواب فعم يزل الملك يطالبه بذلك حتى أخبره بالرافعة فقال : إن من دعا الله حتى جعل الله حراً إذا دعا أن يحى الله تعالى ولدي لا بد وأن يحيا ، وكان أبه قد مات قبل ذلك بأيام ، فدعا عيسى عليه السلام وطلب منه ذلك ، فقال عيسى : لا تفعل ، فنه إن عاش كان شراً ، فقال : ما بالي ما كان إذا رأيت ، وإن أحببته تركتك على ما تفعل ، فدعا الله عيسى ، فعاش بالعلم ، فلم يره أهل مملكته قد عاش تهادوا بالسلاح واقتلوا ، وصار أمر عيسى عليه السلام مشهوراً في خلق ، وقصد اليهود قتله ، وأظهروا الطعن فيه والكفر به .

﴿ والقول الثاني ﴾ إن اليهود كانوا عازمين بأنه هو المسيح المشر به في التوراة ، وأنه يسبح دينهم فكانوا من أول الأمر طعنين فيه ، ضالين قتله ، فلما أظهر الدعوة اشتد غضبهم ، واحذوا في إيذائه وإيذائه وطشوا قتله .

﴿ والقول الثالث ﴾ أن عيسى عليه السلام فر من قومه الذين دعاهم إلى الإيمان أنهم

لا يؤمنون به وإن دعوته لا تنجح فيه فاحب أن يمنحهم ليتحقق ما طنه بهم فقال لهم (من أنصاري إلى الله) فم أجابه إلا الجواريون ، فعبد ذلك أحسن بأن من سوى الجواريين ككافرون مصرون على إنكار ديه وطلب قتله .

أم قوله تعالى (قال من أنصاري إلى الله) ففيه مسألتان :

❖ المسألة الأولى ❖ في الآية أموات (الأول) أن عيسى عليه السلام نادى بني إسرائيل إلى الدين ، وقرءوا عليه مزمهم وأخذ يسبح في الأرض فخر بجهاة من صيادي السمك ، وكان فيهم شمعون ويعقوب ويوحنا بن زبدي وهم من جملة الجواريين الاثني عشر فقال عيسى عليه السلام : الآن تصيد السمك ، فان تمتعتي صرحت بحيت تصيد الناس لمبة لأد ، فغضبوا منه المعجزة . وكان شمعون قد رمى شبكته تلك الليلة في الماء فما اصعدوا شيئاً فأمره عيسى بالغ ، شبكته في الماء مرة أخرى ، فاجتمع في تلك الشبكة من السمك ما كادت تتعرق منه ، وسمعتوا باهل سفينة أخرى ، وملأوا السبعين ، فعبد ذلك آمنوا بعيسى عليه السلام .

❖ والبول الثاني ❖ أن قوله (من أنصاري إلى الله) إنما كان في أحر أمراء حين اجتمع اليهود عليه طلباً لقتله . ثم مهنا احتجالات (الأول) أن اليهود ما طنوه لقتل وكان هو في الحرب عنهم قال لأولئك الاثني عشر من الجواريين . أيكم يحب أن يكون رفيقي في لجنة على أن يلقى عيسى شهيداً فيقتل مكانه .

فأجابته إلى ذلك بعضهم وقتما تذكره انصاري في إيمانهم : أن اليهود لم أخدوا عيسى سل شمعون سينه فصر به عبداً كان فيهم لرحل من الأحبار عظيم فرمى بأذنه - فقال له عيسى : حسبك ثم أخذ أيد الحد فردعا إلى موضعها ، فصارت كما كانت ، وأخاضل أذ لعرصر من طيب النصر إقدامهم على دفع الشرع

❖ والاحتال الثاني ❖ أنه دعاهم إلى القتال مع الفخوم لقوله تعالى في سورة أخرى (فأمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فبئنا الذين أسوا على عبادهم فأصبحوا فاعهرين) .

❖ المسألة الثانية ❖ قوله (إلى الله) به وجوه (الأول) التقدير من أنصاري حان ذهلي إلى الله أو حان التحاني إلى الله (والثاني) التقدير : من أنصاري إلى أن ليس أمر الله تعالى ، وإلى أن أفكر دينه ويكون إلى ههنا عانة كأنه أراد من يشت على بصري إلى أن سم دعوني ، ويظهر أمر الله تعالى (الثالث) قال الكثرون من أهل الملعة إلى ههنا يبعي مع قول تعالى (ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم) أي معها ، وذلك في الدود إلى الذود يل ، أي مع

قال الزجاج - كلمة (إلى) ليست بمعنى مع فذلك لو قلت ذهب زيد إلى عمر ولم يجر أن تقول : ذهب زيد مع عمر ولأن (إلى) نفيد الغاية (ومع) نفيد ضم الشيء إلى الشيء ، بل المراد من قولنا أن (إلى) ههنا بمعنى (مع) هو أنه يفيد قائمتها من حيث أن المراد من يضيف نصرته إلى نصرته الله إياي وكذلك المراد من قوله (ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم) أي لا تأكلوا أموالهم مضمومة إلى أموالكم ، وكذلك قوله عليه السلام « الذود إلى الذود إبل » معناه الذود مضموماً إلى الذود إبل (والرايع) أن يكون المعنى من أنصاري فيما يكون قرينة إلى الله وبوسيلة إليه ، وفي الحديث أنه **يُجِلُّ** كمال يقول إذا ضحك « اللهم منك وإليك » أي تقرباً إليك ، ويقول الرجل فقيره عند دعائه إله (إلى) أي انضم إلى : فكذا ههنا المعنى من أنصاري فيما يكون قرينة إلى الله تعالى (الخامس) أن يكون (إلى) تعني اللام كانه قال : من أنصاري لله نظيره قوله تعالى (قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق) (والسفس) تقدير الآية : من أنصاري في سبيل الله . (وإلى) بمعنى (في) جائز ، وهذا قول الحسن .

أما قوله تعالى (فان اخواريون نحن أنصار الله) فقيه مسائل .

❖ المسألة الأولى ❖ ذكروا في لفظ (الخواري) وجوهاً (الأول) أن الخواري لاسم موضوع لخاصة الرجل ، وخلالته ، ومنه يقال للدينق حواري ، لأنه هو خالصة منه ، وقال **يُجِلُّ** للوزير « إنه ابن عمي ، وحواري من أمتي » وأخواريات من النساء النقيات الألوان والجلود ، فعل هذا الخواريون هم صموة الأنبياء الذين خلصوا وأخلصوا في التصديق بهم وفي نصرتهم .

❖ القول الثاني ❖ الخواري أصله من اخور ، وهو شدة البياض ، ومنه قيل للدينق حواري ، ومنه الأخور ، والخور نقاء بياض العين ، وحوورت الثياب : بيضتها ، وعلى هذا لقولنا اختلفوا في أن أولئك لم سمو بهذا الاسم ؟ فقال سعيد بن جبير : لبياض ثيابهم ، وقيل كانوا قصارين ، يبيضون الثياب ، وقيل لأن قلوبهم كانت نقية طاهرة من كل نقاء وريبة فسموا بذلك مدحاً لهم ، وإنارة إلى نقاء قلوبهم ، كالنوب الأبيض ، وهذا كما يقال فلان نفي الجيب ، طاهر الدليل ، إذا كان بعيداً عن الأفعال الذميمة ، وفلان دنس الثياب ، إذا كان مقدماً على ما لا ينبغي .

❖ القول الثالث ❖ قال أنصارك : مر عيسى عليه السلام بقوم من الذين كانوا يغسلون الثياب ، فدعاهم إلى الإيمان فآمنوا ، والذي يغسل الثياب يسمى بلغة النبط حواري ، وهو

القصص فحربت هذه اللفظة فصارت حوارية ، وقال مقاتل بن سليمان : اخواريون : هم انصارون ، وإذا عرفت أصل هذا اللفظ فقد صار بعرف الاستعمال دليلاً على خواص الرجل ويطاينه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا في أن هؤلاء الحواريين من كانوا ؟ .

﴿ القول الأول ﴾ إنه عليه السلام مر بهم وهم يضادون النسطك فقال لهم : تعانوا نصطاد الناس ، فأتوا : من أنت ؟ قال : أنا عيسى بن مريم ، عبد الله ورسوله ، فطلبوا منه المعجز على ما قال فلما أظهر المعجز آمنوا به ، فهم اخواريون .

﴿ القول الثاني ﴾ قالوا : سلمته أمه إلى صباغ ، فكان إذا أراد أن يعمده شيئاً كان يمر أعلم به منه وأراد الصباغ أن يقيب لبعض مهباته ، فقال له : مهت ثياب مختلفة ، وقد علمت عني كل واحد علامة معينة ، فاصبغها بتلك الألوان ، بحيث يتم المقصود عند رجوعي ، ثم غاب فطبخ عيسى عليه السلام جياً واحداً ، وجعل الجميع فيه ، وقال : كوني بذن الله كما أريد ، فرجع الصباغ فأخبره بما فعل فقال : قد أفسدت على الثياب ، قال : قم فتنظر ، فكان يخرج ثوباً آخر ، ثوباً أحضر ، وثوباً أصفر كما كان يريد ، إلى أن أخرج الجميع على الألوان التي أرادها ، فتعجب الحاضرون منه ، وآمنوا به فهم الحواريون .

﴿ القول الثالث ﴾ كانوا الحواريون اثني عشر رجلاً تبعوا عيسى عليه السلام ، ركنوا إذا قالوا : يا روح الله جفت ، فيضرب بيده إلى الأرض ، فيخرج لكل واحد رعيقال ، وإذا عطشوا قالوا يا روح الله : عطشنا ، فيضرب بيده إلى الأرض ، فيخرج نلاء فيشربون ، فقالوا : من أفضل منا إذا شئنا أطعمنا ، وإذا شئنا سقينا ، وقد آمنّا بك فقال : أفضل منكم من يعمل بيده ، وبأكل من كسبه ، فصاروا يغسلون الثياب الكراء ، فسموا حواريين .

﴿ القول الرابع ﴾ أنهم كثروا ملوكاً قالوا وذلك أن واحداً من الملوك صنع طعاماً ، وجمع الناس عليه ، وكان عيسى عليه السلام عنى قصعة منها ، فكانت القصعة لا تنقص ، فذكروا هذه الواقعة لذلك الملك ، فقال : تعرفونه ، قالوا : نعم ، فذهبوا بعيسى عليه السلام ، قال : من أنت ؟ قال : أنا عيسى بن مريم ، قال فأتني أترك ملكي وأتبعك فتبعه ذلك الملك مع أتباعه ، فلذلك هم الحواريون قال الففقال : ويجوز أن يكون بعض هؤلاء اخواريين لأنني عشر من المشرك ، وبعضهم من صيادي السمك ، وبعضهم من النصارى ، ولكل سموا بالحواريين لأنهم كانوا انصار عيسى عليه السلام ، وعوانه . والمخلصين في محبته ، ووطاعته ، وخدمته .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المراد من قوله (نحن أنصار الله) أي نحن أنصار دين الله وأنصار أنبيائه ، لأن نصرة الله تعالى في الحقيقة محال ، فالمراد منه ما ذكرناه .

أما قوله (أنا باطه) فهذا يجري مجرى ذكر العلة ، والمعنى يجب علينا أن نكون من أنصار الله ، لأجل أنا أنا باطه ، فإن الإيمان بالله يوجب نصرة دين الله ، والذب عن أوليائه ، والمحاربة مع أعدائه .

ثم قالوا (واشهد بأننا مسلمون) وذلك لأن إسهادهم عيسى عليه السلام على أنفسهم ، إسهاد لله تعالى أيضاً ، ثم فيه قولان (الأول) المراد واشهد أنا متفادون لما تريده عنا في نصرتك ، والذب عنك ، مسلمون لأمر الله تعالى فيه (الثاني) أن ذلك إقرار منهم بأن دينهم الإسلام ، وأنه دين كل الأنبياء صلوات الله عليهم .

واعلم أنهم لما أشهدوا عيسى عليه السلام على إيمانهم ، وعلى إسلامهم تضرعوا إلى الله تعالى ، وقالوا (ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين) وذلك لأن المقوم آمنا بالله حين قالوا : في الآية المتقدمة (آمنا بالله) ثم آمنوا بكتب الله تعالى حيث قالوا (آمنا بما أنزلت) وآمنوا برسول الله حيث ، قالوا (واتبعنا الرسول) فعند ذلك طلبوا الزلفة والثواب ، فقالوا (فاكتبنا مع الشاهدين) وهذا يقتضي أن يكون للشاهدين فضل يزيد على فضل الخواريين ، ويفضل على درجته ، لأنهم هم المخصوصون بلأداء الشهادة قال الله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) (والثاني) وهو مقول أيضاً عن ابن عباس (اكتبنا مع الشاهدين) أي اكتبنا في زمرة الأنبياء لأن كل نبي شاهد لقومه قال الله تعالى (فلنأتين الذين أرسل إليهم ولنأتين المرسلين) .

وقد أجاب الله تعالى دعاءهم وجعلهم أنبياء ورسلا ، فاحيوا لقوتي ، وصنعوا كل ما صنع عيسى عليه السلام .

﴿ والقول الثالث ﴾ (اكتبنا مع الشاهدين) أي اكتبنا في جملة من شهد لك بالتوحيد ولأنبيائك بالمصدين ، والمقصود من هذا أنهم لما أشهدوا عيسى عليه السلام على إسلام أنفسهم ، حيث قالوا (واشهد بأننا مسلمون) فقد أشهدوا الله تعالى على ذلك تأكيداً للأمر ، وتقوية له ، وأيضاً طلبوا من الله مثل ثواب كل مؤمن شهد لله بالتوحيد ولأنبيائه بالنسوة .

﴿ القول الرابع ﴾ إن قوله (فاكتبنا مع الشاهدين) إشارة إلى إن كتاب الأبرار إنما يكون في السموات مع الملائكة قال الله تعالى (كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين) فإذا كتب الله ذكرهم مع الشاهدين المؤمنين كان ذكرهم مشهوراً في الملأ الأعلى وعند الملائكة المقربين .

﴿ القول الخامس ﴾ أنه تعالى قال (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم) فجعل أولو العلم من الشاهدين ، وقرن ذكرهم بذكر نفسه ، وذلك درجة عظيمة ، ومرتبة عالية ، فقلوا (فاكثنا مع الشاهدين) أي فجعلنا من تلك الفرقة الذين قرئت ذكرهم بذكرك .

﴿ والقول السادس ﴾ أن جبريل عليه السلام لما سأل محمداً ﷺ عن الإحسان فقال : أن تعبد الله كأنك تراه ، وهذا غاية درجة العبد في الاشتغال بالعبودية ، وهو أن يكون العبد في مقام الشهود ، لا في مقام الغيبة ، فهؤلاء القوم لما صاروا كامينين في درجة الاستدلال أرادوا الترقى من مقام الاستدلال ، إلى مقام الشهود والمكاشفة ، فقلوا (فاكثنا مع الشاهدين) .

﴿ انقوڑ السبع ﴾ إن كل من كان في مقام شهود الحق لم يال بما يصل إليه من المشاق والآلام ، فلما قبلوا من عيسى عليه السلام أن يكونوا ناصرين له ، فلبين عنه ، قلوا (فاكثنا مع الشاهدين) أي اجعلنا ممن يكون في شهود جلالك ، حتى نصبر مستحقين لكل ما يصل إلينا من المشاق والشعب فحينئذ يسهل علينا الوفاء بما التزمناه من نصرة رسولك ونبيك .

ثم قال تعالى (ومكر وا ومكر الله والله خير الماكرين) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أصل المكر في اللغة ، السعي بالفساد في خفية ومداخلة ، قال الزجاج : يقال مكر الليل ، وامكر إذا أظلم : وقال الله تعالى (ويذكر بك الذين كفروا) وقال (وما كنت لأجهنم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) وقيل أصله من اجتماع الأمر وإحكامه ، ومنه امرأة تمكورة ، أي محتمة الخلق وإحكام الرأي يقال له الإجماع والجمع قال الله تعالى (فأجمعوا أمركم وشركائكم) فلم كان المكر رأياً عكمكاً قوياً مصوناً عن جهات النقص وانفتور ، لا جرم سمي مكرأ .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أما مكروهه بعيسى عليه السلام ، فهو أنهم هموا بقتله ، وأما مكر الله تعالى بهم ، ففيه وجه (الأول) مكر الله تعالى بهم هو أنه رفع عيسى عليه السلام إلى السماء ، وذلك أن يهودا ملك اليهود ، أراد قتل عيسى عليه السلام ، وكان جبريل عليه السلام ، لا يبارفه ساعة ، وهو معنى قوله (وأيدناه بروح القدس) فلما أرادوا ذلك أمره جبريل عليه السلام أن يدخل بيتاً فيه روزة ، فلما دخلوا البيت أخرجه جبريل عليه السلام من تلك الروزة ، وكان قد ألقى شبهه على خيبر ، فأخذ وصبب فخرق الحاضرون ثلاث فرق ، فرقة قالت : كان الله فينا فلاعب ، وأخرى قالت : كان ابن الله ، والأخرى قالت : كان عبد الله ورسوله ، فمكره بأن رفعه إلى السماء ، وصار لكل فرقة مع فظهرت انكفران

على الفرقة المزمعة إلى أن بعث الله تعالى محمداً ﷺ ، وفي الجملة ، فالمراد من مكر الله بهم أن رفعه إلى السماء وما مكنهم من إيصال الشر إليه .

﴿ الوجه الثاني ﴾ أن الخواريين كلوا النبي عشر ، وكانوا مجتمعين في بيت فنافق رجل منهم ، ودل اليهود عليه ، فأكفى الله شبهه عليه ورفع عيسى ، فأخذوا ذلك المنافق الذي كان فيهم ، وقتلوه وصلبوه على ظن أنه عيسى عليه السلام ، فكان ذلك هو مكر الله بهم .

﴿ الوجه الثالث ﴾ ذكر محمد بن إسحق أن اليهود عذبوا الخواريين بعد أن رفع عيسى عليه السلام ، فشمسهم وعذبوهم ، فلقوا منهم الجهد فبلغ ذلك ملك الروم ، وكان ملك اليهود من رعيته فقبل له إن رجلا من بني إسرائيل ممن تحت أمرك كان يخبرهم أنه رسول الله ، وأراهم إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص فقتل ، فقال : لو علمت ذلك لخلت بيته وببهم ، ثم بعث إلى الخواريين ، فانتزعهم من أيديهم وسألهم عن عيسى عليه السلام ، فأخبروه فتابعهم على دينهم ، وأنزل الصلوب فغيبه ، وأخذ الخشب فأكرمها وصانها ، ثم غزا بني إسرائيل وقتل منهم خلقاً عظيماً ومنه ظهر أصل النصرانية في الروم ، وكان اسم هذا الملك طباريس ، وهو صار نصرانياً ، إلا أنه ما أظهر ذلك ، ثم إنه جاء بعده ملك آخر ، يقال له : مظليس ، وغزا بيت المقدس بعد ارتفاع عيسى بنحو من أربعين سنة ، فقتل وسبي ولم يترك في مدينة بيت المقدس حجراً على حجر فخرج عند ذلك قريظة والتضير إلى الحجاز فهذا كله مما جازاهم الله تعالى على تكذيب المسيح وأغم بقتله .

﴿ القول الرابع ﴾ أن الله تعالى سلط عليهم ملك فارس حتى قتلهم ، وسباهم . وهو قوله تعالى (ثم بعثنا عليكم عبداً لنا أولى بأس شديد) فهذا هو مكر الله تعالى بهم .

﴿ القول الخامس ﴾ بمقتل أن يكون المراد أنهم مكروا في إخفاء أمره ، وإبطال دينه ومكر الله بهم حيث أعلى دينه وأظهر شريعته وقهر بالذل والدناءة أعداءه وهم اليهود والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المكر عبارة عن الإحتيال في إيصال الشر ، والإحتيال على الله تعالى محال فصار فكظ المكر في حقه من التشابهات وذكرنا في تأويله وجوهاً (أحدها) أنه تعالى سمي جزء المكر بالمكر ، كقوله (وجزءه سنة سيئة مثلها) وسمى جزء المخادعة بالحلولة ، وجزء الاستهزاء بالاستهزاء (والثاني) أن معاملته الله معهم كانت تنبيهة بالمكر فسمى بذلك (الثالث) أن هذا اللفظ ليس من التشابهات ، لأنه عبارة عن التدبير المحكم الكامل ثم انحصر في العرف بالتدبير في إيصال الشر إلى الغير ، وذلك في حق الله تعالى غير متنع والله

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْصِيْ أَمْرِيْ مَوْفِقُكَ وَرَافِعُكَ إِلَى وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الذَّنْبِ كَفَرُوا وَجَاعِلُ
الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ نُورًا الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَى مَرِجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فَبِمَا
كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٣٧﴾

اعلم .

قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَوْفِقُكَ وَرَافِعُكَ إِلَى وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الذَّنْبِ كَفَرُوا وَجَاعِلُ
الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ نُورًا الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَى مَرِجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فَبِمَا كُنْتُمْ فِيهِ
تَخْتَلِفُونَ ﴾ في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ العامل في (إذ) قوله (ومكروا ومكر الله والله غير الماكرين) أي
وجد هذا المكر إذ قال الله هذا القول ، وقيل التفسير : ذلك إذ قال الله .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعترفوا بأن الله تعالى شرف عيسى في هذه الآية بصفات :

﴿ الصفة الأولى ﴾ (ابني موفيك) ومطهره قوله تعالى حكاية عنه (علي توفيتي كنت
أنت الرقيب عليهم) واختلف أهل التأويل في هاتين الآيتين على طريقين (أحدهما) إجراء
الآية على ظاهرها من غير تقديم ، ولا تأخير فيها (والثاني) فرض التقديم وتأخير فيها ، أما
الطريق الأول فبيان من وجوه (الأول) معنى قوله (ابني موفيك) أي منحه عمرك ، فحيث
أوفيك ، فلا أتركهم حتى يقتلوك ، بل أنا رافعك إلى سماءي ، ومقر لك بملائكتي ،
وأصونك عن أن يمشكوك من قتلك وهذا تأويل حسن (والثاني) (موفيك) أي ميثك ، وهو
مروي عن ابن العباس ، ومحمد بن إسحق قالوا : والمقصود أن لا يصل أعداؤه من اليهود إلى
قتله ثم إنه بعد ذلك أكرمه بأن رفعه إلى السماء ثم اختلفوا على ثلاثة وجوه (أحدها) قال
وعب : توفي ثلاثة ساعات ، ثم رفع (وثانيها) قال محمد بن إسحاق : توفي سبع ساعات ،
ثم أحياه الله ورفعه (الثالث) قال الربيع بن أنس : أنه تعالى توفاه حين رفعه إلى السماء ، قال
تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها) .

﴿ الوجه الرابع ﴾ في تأويل الآية أن الواو في قوله (موفيك ورافعك ابني) تعيد الترتيب
هالآية تدل على أنه تعالى يفعل به هذه الأفعال ، فأما كيف يفعل ، ومتى يفعل ، فالأمر فيه
موقوف على الدلائل ، وقد ثبت الدليل أنه حي وورد الخبر عن النبي ﷺ أنه سينزل ويفعل

الديجال ، ثم إنه تعالى يتوفاه بعد ذلك .

﴿ والوجه الخامس ﴾ في التأويل ما قاله أبو بكر الواسطي ، وهو أن المراد (إني متوفيك) عن شهواتك وحفظ نفسك ، ثم قال (ورافعك إلي) وذلك لأن من لم يصر فانياً عما سوى الله لا يكون له وصول إلى مقام معرفة الله ، وأيضاً فمعنى لما رفع إلى السماء صار حاله كحال الملائكة في زوال الشهوة ، والغضب والأخلاق الذميمة .

﴿ والوجه السادس ﴾ إن التوفي أخذ الشيء وافياً ، ولما علم الله إن من الناس من غطر بباله أن الذي رفعه الله هو روحه لا جسده ذكر هذا الكلام ليبدل على أنه عليه الصلاة والسلام رفع بتمامه إلى السماء بروحه وبجسده وبدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى (وما يضرؤنك من شيء) .

﴿ والوجه السابع ﴾ (إني متوفيك) أي أجعلك كالميت لأنك إذا رفع إلى السماء وانقطع خبره وانزله عن الأرض كان كالميت ، وإطلاق اسم الشيء على ما يشابهه في أكثر خواصه وصفاته جائز حسن .

﴿ الوجه الثامن ﴾ إن التوفي هو القبض يقال : وقاني فلان دراهمي وأوفائي وتوفيتها منه ، كما يقال : سلم فلان دراهمي إلي وتسلمتها منه ، وقد يكون أيضاً توفي بمعنى استوفى وعلى كلا الاحتمالين كان إخراجهم من الأرض وإصعادهم إلى السماء توفياً له .

فإن قيل : فعل هذا الوجه كان للتوفي عين الرفع إليه فيصير قوله (ورافعك إلي) تكراراً .

قلنا . قوله (إني متوفيك) يدل على حصول التوفي وهو جنس تحته أنواع بعضها بالموت وبعضها بالإصعاد إلى السماء ، فلما قال بعده (ورافعك إلي) كان هذا تعييباً للنوع ولعمري يمكن تكراراً .

﴿ الوجه التاسع ﴾ أن يقدر فيه حذف المضاف والتقدير : متوفي عملك بمعنى متوفي عملك (ورافعك إلي) أي ورافع عملك إلي ، وهو كقوله (إليه يصعد الكلم الطيب) والمراد من هذه الآية أنه تعالى يشترط قبول طاعته وأعماله ، وعرفه أن ما يصل إليه من المنافع والمثاق في غشية دبه وإظهار شريعته من الأعداء فهو لا يضيع أجره ولا يعدم ثوابه ، فهذه جملة الوجوه المذكورة على قول من يجري الآية على ظاهرها .

﴿ الطريق الثاني ﴾ وهو قول من قال لا بد في الآية من تقديم وتأخير من غير أن يحتاج

هبها إلى تقديم أو تأخير ، قالوا : إن قوله (ورافعك إلى) يقتضي أنه رفعه حياً ، وإلا لا يقتضي الترتيب ، فلم يبق إلا أن يقول فيها تقديم وتأخير ، والمعنى : أنني رافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إفرادك في الدنيا ، ومثله من التقديم وتأخير كثير في القرآن .

واعلم أن الوجوه لكثيرة التي قد منها تعني عن التزام مخالفة الظاهر والله أعلم .

والمنهية بتسكون هذه الآية في إثبات المكان لله تعالى وأنه في السماء ، وقد دللنا في المواضيع الكثيرة من هذا الكتاب بالدلائل القطعية على أنه يمنع كونه تعالى في المكان فوجب حمل اللفظ على التأويل ، وهو من وجوه :

❖ الوجه الأول ❖ أن المراد إلى محل كرامتي ، وجعل ذلك دعاء إليه للتعظيم والتعظيم ومثله قوله (إني داهب إلى ربي) ونحوه - إبراهيم عليه السلام من العراق إلى الشام وقد ينزل السلطان - رفعوا هذا الأمر إلى القاضي ، وقد يسمى الخجاج زوار الله - ويسمى المحاورون بغير ن الله ، والمراد من كل ذلك التعظيم والتعظيم فكذلك هنا

❖ الوجه الثاني ❖ في التأويل أن يكون قوله (ورافعك إلى) معناه أنه يرفع إلى مكان لا يملك الحكم عليه فيه غير الله لأن في الأرض قد يتولى لخلق أنواع الأحكام فاما السموات فلا حاكم هناك في الحقيقة وفي الظاهر لا الله .

❖ الوجه الثالث ❖ إن بتفسير القول بأن الله في مكان لم يكن ارتفاع عيسى إلى ذلك سبباً لارتفاعه ورفعه بل إنما يرفع بسبب لو وجد هناك مطلوبة من الثواب والروح والراحة والرجاء ، فعلى كلا القولين لا بد من حمل اللفظ على أن المراد : ورافعك إلى محل نورك ومجازتك ، وإذا كان لا بد من إضمار ما ذكرناه لم يبق في الآية دلالة على إثبات المكان لله تعالى .

❖ الصفة الثالثة ❖ من صفات عيسى قوله تعالى (ومطهرك من الذين كفروا) والمعنى مخرجك من بينهم ومفرقك بينهم ، وكما عظم شأنه بلفظ الرفع إليه أحسن عن معنى التخليص بلفظ التطهير وكل ذلك يدل على المبالغة في إعلاء شأنه وتعظيم منصبه عند الله تعالى .

❖ الصفة الرابعة ❖ قوله (وسعادل الذين اتبعوك خوف الذين كفروا إلى يوم القيامة) وجهان (الأول) أن المعنى : الذين اتبعوا دس عيسى يكونون خوف الذين كفروا به ، وهم

اليهود بالقهر والسلطان والاستعلاء إلى يوم القيامة ، فيكون ذلك إخباراً عن ذلك اليهود وإنهم يكونون مقهورين إلى يوم القيامة ، فاما الذين اتبعوا المسيح عليه السلام فهم الذين كانوا يؤمنون بالله عبد الله ورسوله وأما بعد الإسلام فهم المسلمون ، وأما النصراني فهم وإن أظهروا من أنفسهم موافقة فهم يخالفونه أشد المخالفة من حيث أن صريح العقل يشهد أنه عليه السلام ما كان يرضى بشيء مما يقوله هؤلاء الجهال ، ومع ذلك فلما نرى أن دولة البصيرى في الدنيا أعظم وأقوى من أمر اليهود فلما نرى في طرف من أطراف الدنيا ملكاً يهودياً ولا بلدة محمولة من اليهود بل يكونون أمين كانوا بالذلة والسكنة وأما النصراني فأمرهم بخلاف ذلك (الثاني) أن المراد من هذه الفوقية القوية بالحجة والدليل .

واعلم أن هذه الآية تدل على أن رفعه في قوله (ورافعتك إلى) هو الرفع بالدرجة والمنزلة ، لا بالمكان والجهة ، كما أن الفوقية في هذه ليست بالمكان بل بالدرجة والرفعة .

أما قوله (ثم إلى مرجعكم فالحكم بينكم فيها كنتم فيه تختلفون) فالحق أنه تعالى بشر عيسى عليه السلام بأنه يعطيه في الدنيا تلك الخواص الشريفة ، والدرجات الرفيعة العالية ، وأما في القيامة فانه يحكم بين المؤمنين به ، وبين الجاحدين برسائه ، وكيفية ذلك الحكم ما ذكره في الآية التي بعد هذه الآية (وبقي من مباحث هذه الآية موضع مشكل) وهو أن نص القرآن دل على أنه تعالى حين رفعه ألقى شبهه على غيره على ما قال (وما تظنوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) والأخبار أيضاً واردة بذلك إلا أن الروايات اختلفت ، فتارة يروى أن الله تعالى ألقى شبهه على بعض الأعداء الذين ذلوا اليهود على مكانه حتى قتلوه وصلبوه ، وتارة يروى أنه عليه السلام رغب بعض خواص أصحابه في أن يلقي شبهه حتى يقتل مكانه ، وبالجملة فكيف كان ففي إلقاء شبهه على الغير إشكالات :

❖ الإشكال الأول ❖ لما لم يجوزنا إلقاء شبه إنسان على إنسان آخر لزم السفطة ، فإني إذا رأيت ولدي ثم رأيت ثانياً فحينئذ أجوز أن يكون هذا الذي رأيته ثانياً ليس بولدي بل هو إنسان ألقى شبهه عليه وحينئذ يرتفع الأمان على المحسوسات ، وأيضاً فالصحابة الذين رأوا محمداً ﷺ بأمرهم وببهم وجب أن لا يبرقوا أنه محمد لاحتمال أنه ألقى شبهه على غيره وذلك يقضي إلى سقوط الشرائع ، وأيضاً فمدار الأمر في الأخبار المتواترة على أن يكون المخير الأول إنما أخبر عن المحسوس ، فلا جاز وقوع القلط في المصبرات كان سقوط خبر المتواتر أولى وبالجملة ففتح هذا الباب أوله سفطة وآخره إبطال النبوات بالكلية .

❖ الإشكال الثاني ❖ وهو أن الله تعالى كان قد أمر جبريل عليه السلام بأن يكون معه

في أكثر الأحوال ، هكذا قاله المفسرون في تفسير قوله (إذ أبدتك بروح القدس) ثم إن طرف جنح واحد من أجنحة جبريل عليه السلام كان يكفي العالم من البشر فكيف لم يكف في منع أولئك اليهود عنه ؟ وأيضاً أنه عليه السلام لما كان قادراً على إحياء الموتى ، وإبراء الأكمنة والأبرص ، فكيف لم يقدر على إمامة أولئك اليهود الذين قصدوه بالسوء وعلى إسقامهم وإلغاء الزمانة والفتح عليهم حتى يصيروا عاجزين عن التعرض له ؟ .

❖ والإشكال الثالث ❖ إنه تعالى كان قادراً على تخليص من أولئك الأعداء بأن يرفعه إلى السماء فما الفائدة في إلقاء شبهه على غيره ، وهل فيه إلا إلقاء مسكين في القتل من غير فائدة إليه ؟ .

❖ والإشكال الرابع ❖ أنه إذا أنقى شبهه على غيره ثم إنه رفع بعد ذلك إلى السماء فثبوت اعتدرا فيه أنه هو عيسى مع أنه ما كان عيسى ، فهذا كان إلقاء هم في الجهل والتلبس ، وهذا لا يليق بحكمة الله تعالى .

❖ والإشكال الخامس ❖ أن التصاري على كثرتهم في مشارق الأرض ومغاربها وسنة محبتهم للمسيح عليه السلام ، وغلوهم في أمره أخبروا أنهم شاهدوه مفتولاً مصلوباً ، ولو أنكرنا ذلك كان قطعاً فيها ثبت بالتواتر ، والظن في التواتر يوجب القطع في نبوة محمد ﷺ ، ونبوة عيسى ، بل في وجودهم ، ووجود سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكل ذلك باطل .

❖ والإشكال السادس ❖ أنه ثبت بالتواتر أن المصلوب بني حيا زماناً طويلاً ، فنو لم يكن ذلك عيسى بل كان غيره لأظهر الجزع ، ولقائ : إني لست بعيسى بل إنما أنا غيره ، وليلغ في تعريف هذا المعنى ، ولو ذكر ذلك لاشتهر عند الخلق هذا المعنى ، فلما لم يوجد شيء من هذا علمنا أن ليس الأمر على ما ذكرتم ، فهذا جملة ما في الموضوع من السؤالات :

(والجواب عن الأول) أن كل من أثبت القادر المختار ، سمى أنه تعالى قادر على أن يخلق إنساناً أخر على صورة زيد مثلاً ، ثم إن هذا التصوير لا يوجب الشك المذكور ، فكذا القول فيها ذكرتم :

(والجواب عن الثاني) أن جبريل عليه السلام لو دفع الأعداء عنه أو أقدر الله تعالى عيسى عليه السلام على دفع الأعداء عن نفسه لبلغت معجزته إلى حد الإلهاء ، وذلك غير جائز .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ مُنْصِرِينَ ﴾ ٥١

(وهذا هو الجواب عن الإشكال الثالث) قلته تعالى لو رفعه إلى السماء ، وما أنقى شبهه على الغير لبلغت تلك المعجزة إلى حد الإلهاء .

(والجواب عن الرابع) أن تلامذة عيسى كانوا حاضرين ، وكانوا عاملين بكيفية الواقعة ، وهم كانوا يزيلون ذلك النقيس .

(والجواب عن الخامس) أن الحاضرين في ذلك الوقت كانوا قليلين ودخول الشبهة على الجمع الثقيل جائز وانتواثر إذا انتهى في آخر الأمر إلى الجمع القليل ثم يكن مفيداً للعلم .

(والجواب عن السادس) إن بتقدير أن يكون الذي أنقى شبه عيسى عليه السلام عليه كان مسلماً وقيل ذلك عن عيسى جائز أن يسكت عن تعريف حقيقة الحال في تلك الواقعة ، وبالجملة فالأسئلة التي ذكرها أمور تطرق الاحتمالات إليها من بعض الوجوه ، ولما ثبت بانعجز الفاضل صديق محمد ﷺ في كل ما أخبر عنه امتنع صيرورة هذه الأسئلة المحتملة معارضة للنص القاطع ، والله ولي العدالة .

قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ مُنْصِرِينَ ﴾ .

أعلم أنه تعالى لما ذكر (إلى مرجعكم فأتحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) بين بعد ذلك مفصلاً ما في ذلك الاختلاف ، أما الاختلاف فهو أن كفر قوم وآمن آخرون ، وأما اتحكم فيمن كفر فهو أن يعذبه عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة ، وأما الحكم فيمن آمن وعمل الصالحات ، فهو أن يوفيهم أجورهم ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أما عذاب الكافر في الدنيا فهو من وجهين (أحدهما) القتل واتسبى وما شاكله ، حتى لو ترك الكافر لم يحسن إيقاعه به ، فذلك دخل في عذاب الدنيا (والثاني) ما يلحق الكافر من الأمراض والمصائب ، وقد اختلفوا في أن ذلك هل هو عقاب أم لا ؟ قال بعضهم : إنه عقاب في حق الكافر ، وإذا وقع مثله للمؤمن فإنه لا يكون عقاباً بل يكون ابتلاء وامتحاناً ، ويكون جازياً يجري الحدود التي تنقسم على اثنتين ، فإما لا تكون عقاباً بل

وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٧﴾

امتحننا ، والدليل عليه أنه تعالى يعد الكل بالصبر عليها والرضا بها والتسليم لها وما هذا حاله لا يكون عقاباً .

فان قيل : فقد سلمتم في الوجه الأول إنه عذاب الكافر على كفره ، وهذا على خلاف قوله تعالى (ولم يؤخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة) وكلمة (لو) تفيد انتفاء الشيء لا انتفاء غيره ، فوجب أن لا توجد الموازنة في الدنيا ، وأيضاً قال تعالى (اليوم نحزي كل نفس بما كسبت) وذلك يقتضي حصول المجازاة في ذلك اليوم ، لا في الدنيا ، قلنا : الآية الدالة على حصول العقاب في الدنيا خاصة ، والآيات التي ذكرتموها عامة ، والخاص مقدم على العام .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لقال أن يقول وصف العذاب بالشدة ، يقتضي أن يكون عقاب الكافر في الدنيا أشد ، ولنا نجد الأمر كذلك ، فان الأمر قارة يكون على الكفار وأخرى على المسلمين ، ولانجد بين الناس تفاوتاً .

قلنا : بل التفاتت موسود في الدنيا ، لأن الآية في بيان أمر اليهود الذين كذبوا بمعيسى عليه السلام ، ونرى الفلة والمسكنة لازمة لهم ، فزال الإشكال .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ وصف تعالى هذا العذاب بأنه ليس لهم من بصرهم ويدفع ذلك العذاب عنهم .

فان قيل : ليس قد يمنع على الأئمة والمؤمنين قتل الكفار بسبب العهد وعقد الذمة . قلنا : المانع هو العهد ، وكذلك إذا زال العهد حل قتله .

ثم قال تعالى ﴿ وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيؤوفيهم أجورهم واه لا يحيب الظالمين ﴾ .

وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حفص عن عاصم (فيؤوفيهم) بالياء ، يعني فيؤوفيهم الله ، والباقون بالتون حملا على ما تقدم من قوله (فأعذبهم) وهو الأولى لأنه تنسق الكلام .

ذَلِكَ نَنَلُّوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي الْحَكِيمُ ﴿٨١﴾

تقدم من قوله (فأحكم) فأعدهم) وهو الأولى لأنه نسخ الكلام .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر الذين آمنوا ، ثم وصفهم بأنهم عملوا الصالحات ، وذلك يدل على أن العمل الصالح مخرج عن سمي الإيمان ، وقد تقدم ذكر هذه الدلالة مراراً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج من قال بأن العمل علة للجواب بقوله (فتوفيههم أجورهم) فتبهمهم في صلاتهم لأجل طلب الثواب بالمستاجر ، والكلام فيه أيضاً قد تقدم والله أعلم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ المعتزلة احتجوا بقوله (والله لا يحب الظالمين) على أنه تعالى لا يريد الكفر والمعاصي ، قالوا : لأن مرید الشيء لا بد وأن يكون عباه ، إذا كان ذلك الشيء من الأفعال وإنما تختلف المحبة الإزادة إذا علقنا بالاشخاص ، فقد يقال : أحب زيدا ، ولا يقال : أريد . وأما إذا علقنا بالأفعال : فمعناها واحد إذا استعملنا على حقيقة اللغة ، فصار قوله (والله لا يحب الظالمين) بمنزلة قوله (لا يريد ظلم الظالمين) هكذا قرره الفاضل ، وعند أصحابنا أن المحبة عبارة عن إرادة إيصال الخير إليه فهو تعالى وإن أراد كسر الكافر إلا أنه لا يريد إيصال الثواب إليه ، وهذه المسألة قد ذكرناها مراراً وأطواراً .

ثم قال تعالى ﴿ ذلك ننلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (ذلك) إشارة إلى ما تقدم من نأ عبسى وزكريا وصبرهم ، وهو مبتدأ ، خبره (ننلوه) و (من الآيات) خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف ، ويجوز أن يكون ذلك بمعنى الذي ، و (ننلوه) صيغته ، و (من الآيات) الخبر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ التلاوة والقصص واحد في المعنى ، فإن كلا منهما يرجع معناه إلى شيء يذكر بعضه على إثر بعض ، ثم إنه تعالى أضاف التلاوة إلى نفسه في هذه الآية ، وفي قوله (ننلوه عليك من نأ موسى) وأضرب القصص إلى نفسه فقال (نحن نقص عليك أحسن القصص) وكل ذلك يدل على أنه تعالى جعل تلاوة الملك جارية مجرى تلاوته سبحانه وتعالى ، وهذا تشریف عظيم للملك ، وإنما حسن ذلك لأن تلاوة جبريل عليه السلام لما كان بأمره من غير تفاوت أصلاً أضيف ذلك إليه سبحانه وتعالى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (من الآيات) يحتمل أن يكون المراد منه ، أن ذلك من آيات القرآن ، ويحتمل أن يكون المراد منه أنه من العلامات الدالة على ثبوت رسالتك ، لأنها أخبار لا

إِنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣١﴾

يعلمها إلا قارىء من كتاب أو من يوحى إليه ، فظاهر أنك لا تكتب ولا تقرأ فبقي أن ذلك من الوحي .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ (والذكر الحكيم) فيه قولان (الأول) المراد منه القرآن وفي وصف القرآن بكونه ذكراً حكماً وجوه (الأول) أنه بمعنى الحاكم مثل الفدير والعليم ، والقرآن حاكم بمعنى أن الأحكام تستفاد منه (والثاني) معناه ذو الحكمة في تليفه ونظمه وكثرة علومه (والثالث) أنه بمعنى المحكم ، فعمل بمعنى مفعول ، قال الأزهري : وهو شائع في اللغة ، لأن حكمت يجري مجرى أحكمت في المعنى ، فرد إلى الأصل ، ومعنى المحكم في القرآن أنه استحكم عن تطرف وجه الخلل إليه قال تعالى (أحكمت آياته) (والرابع) أن يقال القرآن لكثرة حكمه إنه ينطق بالحكمة ، فوصف بكونه حكماً على هذا التأويل .

﴿ القول الثاني ﴾ أن المراد بالذكر الحكيم هنا غير القرآن ، وهو اللوح المحفوظ الذي منه نقلت جميع الكتب المنزلة على الأنبياء عليهم السلام ، أخير أنه تعالى أنزل هذا القصص عما كتب هنالك ، والله أعلم بالصواب .

قوله تعالى ﴿ إِنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ .

اجمع المفسرون على أن هذه الآية نزلت عند حضور وفد نجران على الرسول ﷺ ، وكان من جملة شبههم أن قالوا : يا محمد ، لما سلمت أنه لا أب له من البشر وجب أن يكون أبوه هو الله تعالى ، فقال : إن آدم ما كان له أب ولا أم ولم يلزم أن يكون استأثرت الله تعالى ، فكذا القول في عيسى عليه السلام ، هذا حاصل الكلام ، وأيضاً إذا جاز أن يخلق الله تعالى آدم من التراب فلم لا يجوز أن يخلق عيسى من دم مريم ؟ بل هذا أقرب إلى الثمعل ، فإن تولد الحيوان من الدم الذي يمتنع في رحم الأم أقرب من تولده الثراب اليابس ، هذا تلخيص الكلام .

ثم هنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (مثل عيسى عند الله كمثل آدم) أي صفته كصفة آدم ونظيره قوله تعالى (مثل الجنة التي وعد المحضون) أي صفة الجنة .

المسألة الثانية ﴿ قوله تعالى ﴾ (خلقه من تراب) ليس بصفة لأدم ولا صفة ولكنه خير مستأنف على جهة التفسير بحال آدم ، قال الزجاج : هذا كما تقول في الكلام مثلك كمثل زيد ، تريد أن تشبهه به في أمر من الأمور ، ثم تغير بقصة زيد فتقول فعل كذا وكذا .

المسألة الثالثة ﴿ اعلم أن الفضل دل على أنه لا يبد للمناس من والد آدم ، ولا لزوم أن يكون كل ولد مسبوق بالولد إلا إلى أب وهو عاقل ، والقرآن دل على أن ذلك الولد الأول هو آدم عليه السلام كما في هذه الآية ، وقال (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وحلزل منها زوجها) وقال (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها) ثم إنه تعالى ذكر في كيفية خلق آدم عليه السلام رجوها كثيرة (أحدها) أنه مخلوق من التراب كما في هذه الآية (والثاني) أنه مخلوق من ماء ، قال الله تعالى (وهو الذي خلق من ماء شراً فجعل منه نساءً وصهراً) (والثالث) أنه مخلوق من الطين قال الله تعالى (الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين) ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين (والرابع) أنه مخلوق من سلالة من طين قال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين) (الخامس) أنه مخلوق من طين لأرب قال تعالى (إنا خضقناه من طين لأرب) (السادس) أنه مخلوق من صلصال قال تعالى (إني جاعلي بشاراً من صلصال من حمأ مسنون) (السابع) أنه مخلوق من عجل ، قال تعالى (خلق الإنسان من عجل) (الثامن) قال تعالى (لقد خلقنا الإنسان في كبد) . أما الحكماء فقلوا : إنما خلق آدم عليه السلام من تراب لوجود : (الأول) ليكون متواضعاً (الثاني) ليكون متدبراً (الثالث) ليكون أشد التصدي بالارض ، وذلك لأنه إنما خلق خلقة أهل الارض ، قال تعالى (إني جعل في الارض خليفة) (الرابع) أراد إظهار القدرة فخلق الشياطين من النار الذي هي أخص الأحرار وخلقه بظلمات الصلابة ، وخلق الملائكة من الغواء الذي هو الطيف الأجرام وأعطاهم كمال التسعة والقدرة . وعلم آدم عليه السلام من التراب الذي هو اكثف الأحرار ، ثم أعطاه المعرفة والنور والهداية . وخلق السموات من أمواج ماء البحر وأعطاها معقوفة بقوى حتى يكون حقيق هذه الأجرام برهاناً لها ودليلاً فظهر على أنه تعالى هو المدير بغير احتياج ، والخالق بلا مراجع وعلاج (الخامس) خلق الإنسان من تراب ليكون مطلقاً من الشهوة ، ولغضب ، والحرم ، فإن هذه النيران لا تطفأ إلا بالتراب وبما خلقه من الماء ليكون صافياً تنحى فيه صور الأشياء ، ثم إنه تعالى مزج بين الارض والماء ليخرج الكيف بقصبر طيب وهو قوله (إني جاعلي بشاراً من طين) ثم إنه في المرتبة الرابعة قال (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) والسلالة تعني نفقولة لأنها هي التي نسل من الطيف أجبر ، نصير ، ثم إنه في المرتبة السادسة أثبت له من الصفات ثلاثة أنواع :

(أحدهما) أنه من مصلصال والصلصال : اليايس الذي إذاحرك تصلصل كالخزف الذي يسمع من داخله صوت . (والثاني) الحيا وهو الذي يستقر في الماء مدة ، وتغير لونه إلى السواد .

(والثالث) تعبر رائحته قال تعالى (فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه) أي لم يتغير .

فهذه جملة الكلام في التوفيق بين الآيات الواردة في خلق آدم عليه السلام ﴿ المسألة الرابعة ﴾ في الآية إشكال ، وهو أنه تعالى قال (خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) فهذا يقتضي أن يكون خلق آدم متقدما على قول الله له (كن) وذلك غير جائز .

وأجاب عنه من وجوه (الأول) قال أبو مسلم : قد بينا أن الخلق هو التظهير والنسوية ، ويرجع معناه إلى علم الله تعالى بكيفية وقوعه ويزاد له لإيقاعه على الوجه المخصوص وكل ذلك متقدم على وجود آدم عليه السلام تقدما من الأزل إلى الأبد ، وأما قوله (كن) فهو عبارة عن إدخاله في الوجود فثبت أن خلق آدم متقدم على قوله (كن) .

﴿ والجواب الثاني ﴾ وهو الذي عول عليه القاضي أنه تعالى خلقه من العير ثم قال له (كن) أي احياء كما قال (ثم أنشأناه خلقا آخر) فان قيل المضمير في قوله خلقه رجع إلى آدم وحينئذ كان ترابا لم يكن آدم عليه السلام موجودا .

أجاب لقاضي وقال : بل كان موجوداً وإنما وجد بعد حياته ، وثبتت الحياة نفس آدم وهذا ضعيف لأن آدم عليه السلام ليس عبارة عن مجرد الاجسام المشككة بالشكل المخصوص ، بل هو عبارة عن هوية أخرى مخصوصة وهي : إما المزاج المعتدل ، أو النفس ، ويحجز الكلام من هذا البحث إلى أن النفس ما هي ، ولا شك أنها من أغصان المسائل .

(الجواب) الصحيح أن يقال لما كان ذلك الهيكل بحيث سيعبر آدم عن قريب سواه آدم عليه السلام قبل ذلك ، تسمية لما سيقع بالواقع .

﴿ والجواب الثالث ﴾ أن قوله (ثم قال له كن فيكون) يفيد تراخي هذا الخبر عن ذلك الخبر كما في قوله تعالى (ثم كان من الذين آمنوا) ويقولون انظروا : أعطيت زيدا اليوم ألقا ثم أعطيت أفس ألفين ، ومراة : أعطيت اليوم ألفا ، ثم أنا أخيركم أني أعطيت أفس ألفين فكذا قوله (خلقه من تراب) أي صيره خلقا سويا ثم إنه يغيركم أني إنما خلقته بأن قلت له (كن) .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ في الآية إشكال آخر وهو أنه كان ينبغي أن يقال : ثم قال له كن

الحق من ربك فلا تكن من المعتبرين ﴿٨٥﴾

فكان علم يفل كذلك بل قال (كن فيكون) .

(واخراب) تأويل الكلام ، ثم قال له (كن فيكون) فكان

والعلم يا محمد أن ما قال له (كن) فإنه يكون لا محالة .

قوله تعالى ﴿ الحق من ربك فلا تكن من المعتبرين ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الفراء ، والزجاج قوله (الحق) غير مبتدأ محذوف ، والمعنى : الذي أمرك من قصة عيسى عليه السلام ، أو ذلك النبا في أمر عيسى عليه السلام (الحق) فحذف لكونه معلوما ، وقال أبو عبيدة هو استئناف بعد انقضاء الكلام ، وخبر قوله (من ربك) وهذا كما تقول الحق من الله ، والباطل من الشيطان ، وقال آخرون : الحق ، دفع فاعضاه فعل أي جاءك الحق .

وقيل : أيضا أنه مرفوع بالصفة وفيه تقديم وتأخير ، تقديره : من ربك الحق فلا تنكس .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الاشتهاء لشك ، قال ابن الأنباري : هو مأخوذ من قول العرب مررت بالثقة والشاة إذا حلبتها فكان الشاك يجذب شكه مرأه كاتبس الذي يجذب عند احطب ، يقال قد مارى فلان فلانا إذا جادله ، كذا يستخرج غصه ، ومنه قيل انكر يترى انزيد أي يحلبه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ في الحق شريهان (الأول) قال أبو مسلم لمرا أن هذا الذي أنكرت عليك هو الحق من خير عيسى عليه السلام لا ما قالت الصارى واليهود ، فالصارى فتمروا : إن مريم ولدت إفا ، واليهود ومرا مريم عليه السلام بالافك وتسبوا إلى يوسف النجار ، فافط تعدل بين أن هذا الذي أنكرنا في القرآن هو الحق ثم هي بمن الشك فيه ، ومعنى محترى مفتعل من المرية وهي الشك

﴿ والمحول الثاني ﴾ أن المراد أن الحق في بيان هذه المسألة ما ذكرناه من المتن وهو قصة آدم عليه السلام فإنه لا بيان هذه المسألة ولا برهان أقوى من التمسك بهذه الواقعة والله أعلم

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله تعالى (فلا تكن من المعتبرين) خطاب في الظاهر مع انسي

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ
وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿١١﴾

ﷺ . وهذا بظاهره يقتضي انه كان شاكاً في صحة ما أنزل عليه ، وذلك غير جائز ، واختلف
الناس في الجواب عنه ، فمنهم من قال : الخطاب وإن كان ظاهره مع النبي عليه الصلاة
والسلام إلا انه في المعنى مع الأمة قال تعالى (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء) (والثاني) أنه
خطاب للنبي عليه الصلاة والسلام والمعنى : قدم على يمينك ، وعلى ما أنت عليه من ترك
الامراء .

قوله تعالى ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جئتك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم
ونساءنا ونساءكم وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين ﴾ .

اعلم أن الله تعالى بين في أول هذه السورة وجوها من الدلائل القاطعة على فساد قول
النصارى بالزوجة والولد ، وأنبههم بذكر الجواب عن جميع شبههم على سبيل الاستقصاء
الثام ، وختم الكلام بهذه النكتة القاطعة لقصد كلامهم ، وهو أنه لما لم يلزم من عدم الأب
والأم البشريين لآدم عليه السلام أن يكون ابناً لله تعالى لم يلزم من عدم الأب البشري لعيسى
عليه السلام أن يكون ابناً لله تعالى عن ذلك ولما لم يبعد إنحلاق آدم عليه السلام من القرب
لم يبعد أيضاً إنحلاق عيسى عليه السلام من الدم الذي كان مجتمع في رحم أم عيسى عليه
السلام ، ومن انصف ومطلب الحق ، علم أن البيان قد بلغ إلى الغاية القصوى . فعند ذلك
قال تعالى (فمن حاجك) بعد هذه الدلائل الواضحة والجوابات الثلاثة قاطعة الكلام معهم
وعانهم بما يعمل به العابد ، وهو أن تدعوهم إلى الملاعبة فقال (فقل تعالوا ندع أبناءنا
وأبنائكم) إلى آخر الآية ، ثم ههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اتفق أنني حين كنت بخوارزم ، أخبرت أنه جاء نصراني يدعى
التحفيظ والتعمق في مذهبه ، فذهبت إليه وشرعنا في الحديث وقال لي : ما الدليل على نبوة
محمد ﷺ ، فقلت له كما نقل إلينا ظهور الخوارق على يد موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء
عليهم السلام ، نقل إلينا ظهور الخوارق على يد محمد ﷺ . فإن ردنا التواتر ، أو قبحناه لكن

قلنا : إن المعجزة لا تدل على الصدق ، فحينئذ بطلت نبوة منكر الأنبياء عليهم السلام ، وإن اعترفنا بصحة النبوة ، واعتدنا بدلالة المعجزة على الصدق ، ثم أنها حاصلان في حق محمد وجب الاعتراف قطعاً بنبوة محمد عليه السلام ضرورة أن عدم الاستواء في الدليل لا بد من الاستواء في حصول الدلول ، فقال النصراني : أنا لا أقول في عيسى عليه السلام إنه كان نبى بل أقول إنه كان يه ، فقلت له الكلام في النبوة لا بد وأن يكون مسبقاً بعرفة الإله وهذا الذى نقوله باطل ويدل عليه أن الإله عمارة على موجود ويجب الوجود ذاته ، يجب أن لا يكون جسداً ولا متحيزاً ولا عرضياً وعيسى عبارة عن هذا الشخص البشرى الجسماني الذى وجد بعد أن كان معدوماً وقتل بعد أن كان حياً على أوتنكم وكان طفلاً أولاً ، ثم صر مترعراً ، ثم صار شاعراً ، وكان يأكل ويشرب ويحس ويستمط ، وقد نفور في بداهة القول أن المحدث لا يكون قدماً المحتاج لا يكون غنياً والممكن لا يكون واجباً والشعير لا يكون ذاتياً .

(والوجه الثاني) في بطلان هذه المقالة أنكم تعرفون بأن اليهود أخذوه وصليبه وتركوه حياً على خشبة ، وقد مرقوا صلعه ، وأنه كان يختل في الحرب منهم ، وفي الإختصاص عنهم ، وحين عاموه تلك التعاملات أظهر الخزع الشديد ، فإن كان إلهاً وكان الإله حياً فيه أو كان جزءاً من الإله حاك فيه ، فلم لم يدفعهم عن نفسه ؟ ولم لم يهلكهم بالكثرة ؟ وأي حاجة به إلى إظهار الخزع منهم ولا احتيال في الفرار منهم ؟ وماذا أنى لأتبع حجتاً إذا إن الحق كى يبين به أن يكون هذا القول ويعتقد صحته ، فكذلك أن تكون بديهة العقل شاهدة بنفسه .

(والوجه الثالث) وهو أنه : إما أن يقال بأن الإله هو هذا الشخص الجسماني الشاهد ، أو يقال حلى الإله بكليته فيه ، أو حل بعض الإله وجزء منه فيه والأقسام الثلاثة باطلة (ما الأول) فلأن إله العالم لو كان هو ذلك الجسم ، فحينئذ اليهود كان ذلك قولاً بأن اليهود قتلوا إله العالم ، فكيف بقى العالم بعد ذلك من غير إله ؟ ثم إن أشد الناس ذلاً ومساءة لليهود ، فالإله الذى تمتلئ اليهود إله في غاية المحز ! (وما الثاني) وهو أن الإله بكليته حل في هذا الجسم ، فهو أيضاً فسد ، لأن الإله لم يكن جسداً ولا عرضياً ، متبع حمله في الجسم ، وإن كان جسداً ، فحينئذ يكون حلوله في جسم آخر عمارة عن الخلل من أجزائه ذلك الجسم ، وذلك يوجب وقوع التفرق في أجزاء ذلك الإله ، وإن كان عرضياً كان محتجاً إلى المحل ، وكان الإله محتجاً إلى غيره ، وكل ذلك محقق ، (وما الثالث) وهو أنه حل في بعض من أبعاض الإله ، وجزء من أجزائه ، فذلك أيضاً محال لأن ذلك الجزء ، إن كان معترفاً في الإلهية ، فعند انفصاله عن الإله ، وجب أن لا ينشئ الإله إلهاً ، وإن لم يكن معترفاً في

تحقق الإلهية ، لم يكن جزءاً من الإله ، فثبت فساد هذه الأقسام ، فكان قول النصارى باطلاً .

﴿ الوجه الرابع ﴾ في بطلان قول النصارى ما ثبت بالتواتر أن عيسى عليه السلام كان عظيم الرغبة في العبادة والطاعة لله تعالى ، ولو كان إلهاً لاستحال ذلك ، لأن الإله لا يعبد نفسه ، فهذه وجوه في غاية الجلاء والظهور ، دالة على فساد قوفهم ، ثم قلت للنصراني : وما الذي ثبت على كونه إلهاً ؟ فقال الذي دل عليه ظهور التعجب عليه من إحياء الموتى وإبراهيم الأكمه والأمرس ، وذلك لا يمكن حصوله إلا بقدرته الإله تعالى ، فقلت له هل تسلم أنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المخلول أم لا ؟ فإن لم تسلم لزمك من بني العثم في الأول نفي الصانع ، وإن سلمت أنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المخلول ، فأقول : لما جوزت حلول الإله في بدن عيسى عليه السلام ، فكيف عرفت أن الإله ما حل في بدني وبدنك وفي بدن كل حيوان ونبات وجماد ؟ فقال : الفرق ظاهر ، وذلك لأنني إن حكمت بذلك المخلول ، لأنه ظهرت تلك الأفعال العجيبة عليه ، والأفعال العجيبة ما ظهرت على بدني ولا على يدك ، فلعلمنا أن ذلك المخلول مفعود ههنا فقلت له : تبين الآن أنك ما عرفت معنى قولي أنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المخلول ، وذلك لأن ظهور تلك الخوارق دالة على حلول الإله في بدن عيسى ، فعدم ظهور تلك الخوارق في مني ومنك ليس فيه إلا أنه لم يوجد ذلك المخلول ، فإذا ثبت أنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المخلول لا يلزم من عدم ظهور تلك الخوارق في مني ومنك عدم المخلول في حقي وفي حقتك ، وفي حق الكلب والسنور والفأر ثم قلت : إن مذهباً يؤدي القول به إلى تحوير حلول ذات الله في بدن الكلب والذباب لفي غاية الخساسة والركاكة .

﴿ الوجه الخامس ﴾ أن قلب العصا حية ، أبعد في العقل من إعادة الميت حياً ، لأن المشاكفة بين بدن أخي وبدن الميت أكثر من المشاكفة بين الخنثى وبين بدن الثعبان ، فإذا لم يوجب قلب العصا حية كون موسى إلهاً ولا ابتداء لآله ، فبأن لا يدل إحياء الموتى على الإلهية كان ذلك أولى ، وعند هذا انقطع النصراني ولم يبق له كلام والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ روي أنه عليه السلام ما أورد الدلائل على نصارى نجران ، ثم إنهم صرخوا على جهلهم ، فقال عليه السلام : إن الله أمرني إن لم تقبلوا الحق أن أباهلكم ، فقلوا : يا أبا القاسم ، بل نرجع فننظر في أمرنا ثم نأتيك فلما رجعوا قالوا لنعاقب : وكان ذا رأيهم ، يا عبد المسيح ما ترى ، فقال : والله لقد عرفتكم يا معشر النصارى أن محمداً نبي مرسل ، ولقد جاءكم بالكلام الحق في أمر صاحبكم ، والله ما باهل قوم نبياً قط فعاش كبرهم ولا ثبت صغبرهم ولكن فعلتم لكان الاستئصال فلان أبيتكم إلا الإصرار على دينكم والإجماع على ما أنتم عليه ، فادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم وكان رسول الله ﷺ خرج وعليه مرض من

شعر أسود ، وكان قد احتضن الحسين وأخذ بيد الحسن ، وفاطمة فمشي حمله ، وعلى رضي الله عنه خلفها ، وهو يقول ، إذا دهوت فأموتوا ، فقال أسقف نجران : يا معشر النصاري ، إنني لأرى وجوهاً لرسول الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها ، فلا تياهلوا فتهلكوا ولا يبغي على وجه الأرض فصرني إلى يوم القيامة ، ثم قالوا : يا أبا القاسم ، رأينا أن لا تباهلك وإن فصرك على دينك فقال صلوات الله عليه : فإذا أبيتم المباهلة فأمسكوا ، يكن لكم ما للمسلمين ، وعليكم ما على المسلمين ، فأبوا ، فقال : فاني أتأجركم لقتال ، فقالوا ما لنا بحرب العرب طائفة ، ولكن نصالحك على أن لا تغزونا ولا تردنا عن ديننا على أن نؤدي إليك في كل عام ألفي حلة : ألفاً في صفر ، وألفاً في رجب ، وثلاثين درعاً علوية من حديد ، فصالحهم على ذلك ، وقال : والذي نفسي بيده ، إن الهلاك قد تدل على أهل نجران ، ولو لاعنوا شيوخاً فردة وخنازير ، ولاضطرم عليهم الوادي ناراً ، ولاستأصل الله نجران وأهلها ، حتى الطير على رؤس أشجار ، ولا حال الخول على النصاري كلهم حتى يهلكوا ، وروى أنه عليه السلام ما خرج في القربى الأسود ، فجهده الحسن رضي الله عنه فأدخله ، ثم جاء الحسين رضي الله عنه فأدخله ثم فاطمة ، ثم على رضي الله عنهما ثم قال (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) وأعلم أن هذه الرواية كالتحقق على صحتها بين أهل التفسير والحديث .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ (فمن حاجك فيه) أي في عيسى عليه السلام ، وقيل : الغاء تعود في الحق ، في قوله (أخق من ربك - من بعد ما جاءك من العلم) بأن عيسى عبد الله ورسوله عليه السلام وليس المراد هنا بالعلم نفس العلم لأن العلم الذي في قلبه لا يؤثر في ذلك ، بل المراد بالعلم ما ذكره من الدلائل العقلية ، والدلائل الواصلة إليه بالوحي والتزليل ، فقل تعالى : أصليه تعالوا ، لأنه تفاعلوا من كملوا ، فاستغفلت النعمة على الياء ، فسكنت ، ثم حدثت لاحتجاج السالكين ، وأصله العلو والارتفاع ، فمعنى تعالى ارتفع ، إلا أنه كثر في الاستعمال حتى صار لكل مجيء ، وصار بمنزلة هلم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ هذه الآية دالة على أن الحس والحسين عليهما السلام كانا ابني رسول الله ﷺ ، وعد أن يدعو أباه ، فدعا الحس والحسين ، فوجب أن يكونا ابنيه ، وما يؤكد هذا قوله تعالى في سورة الأنعام (ومن ذريته داود وسليمان) إل قوله (وزكريا ويحيى وعيسى) ومعلوم أن عيسى عليه السلام إنما تنسب إلى إبراهيم عليه السلام بالأم لا بالأب ، ثبت أن ابن البنت قد يسمى ابناً والله أعلم .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ كان في الري رجل يقال له : محمود بن الحسن الحمصي ، وكان معلم

الآية عشرة . وكان يزعم أن علياً رضي الله عنه أفضل من جميع الأنبياء سوى محمد عليه السلام ، قال : والذي يدل عليه قوله تعالى (وأنفت وفتكم) وليس المراد بقوله (وأنفت) نفس محمد ﷺ لأن الإنسان لا يدعو نفسه بل المراد به غيره ، وأجمعوا على أن ذلك اقبح كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فدلّت الآية على أن نفس علي هي نفس محمد ، ولا يمكن أن يكون المراد منه ، أن هذه النفس هي عين تلك النفس ، فإيراد أن هذه النفس مثل تلك النفس . وذلك يقتضي الاستواء في جميع الوجوه ، ترك الفعل بهذا العموم في حق النبوة . وفي حق الفضل لقيام الدلائل على أن محمداً عليه السلام كان نبياً وما كان على كذا ، ولا اعتقاد الإجماع على أن محمداً عليه السلام كان أفضل من علي رضي الله عنه ، فينتهي عما وراءه .

مجمولاً به ، ثم الإجماع دل على أن محمداً عليه السلام كان أفضل من سائر الأنبياء عندهم السلام قيل إن يكون على أفضل من سائر الأنبياء ، فهذا وجه الاستدلال بظاهر هذه الآية ، ثم قد : ويؤيد الاستدلال بهذه الآية ، الحديث المروي عند المؤلف والمخالف ، وهو قوله عليه السلام : من أراد أن يرى آدم في علمه ، وتوحا في طاعته ، ويرى هيم في خلقه ، وموسى في عيبه ، وعيسى في صفوته ، فينظر إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فالحديث دل على أنه اجتمع فيه ما كان متفرقاً فيهم ، وذلك يدل على أن علياً رضي الله عنه أفضل من جميع الأنبياء سوى محمد ﷺ ، وما سائر الشيعة فقد كانوا قديماً وحديثاً يستدلون بهذه الآية على أن علياً رضي الله عنه مثل نفس محمد عليه السلام إلا في حصه الدليل ، وكان نفس محمد أفضل من الصحابة رضوان الله عليهم ، فوجب أن يكون نفس علي أفضل أيضاً من سائر الصحابة . هذا تقدير كلام الشيعة ، والحوار : أنه كما تعتقد الإجماع بين المسلمين على أن محمداً عليه السلام أفضل من علي ، فكذلك تعتقد الإجماع بينهم قبل ظهور هذا الإنسان ، على أن النبي أفضل من ليس بنبي ، وأجمعوا على أن علياً رضي الله عنه ما كان نبياً ، فلم يقطع بأن ظاهر الآية كما أنه مخصوص في حق محمد ﷺ ، فكذلك مخصوص في حق سائر الأنبياء عليهم السلام .

﴿ تسألنا تسالسة ﴾ قوله (ثم نبهل) أي نبهل ، كما يقال قتل القوم وتسلوا واصطحبوا وتصاحبوا ، والابتهال فيه وجهان (أحدهما) أن الابتهال هو الاجتهاد في الدعاء ، وإن لم يكن بالنعن ، ولا يتدل : ابتهل في الدعاء إلا إذا كان هناك اجتهاد (والثاني) أنه مأخوذ من قولهم عليه بهلة الله ، أي لعنه وأصله مأخوذ مما يرجع إلى معنى النعن ، لأن معنى النعن هو الإبعاد والظرد وبهله الله ، أي لعنه وبعد من رحته من أولئك أبهله إذا أهمله وناقه أهله لا صهره عليها ، بل هي مرسله خلافة ، كالرجل الظريه المنص : (تحقيق معنى الكلمة : أن البهله إذا كان هو الإرسال والتخليه فكان من بهله الله فقد حلاه الله وركبه إلى نفسه ومن

وكله إلى نفسه فهو هالك لا شك فيه فمن باهل إنساناً ، فقال : على بيلة الله إن كان كذا ، يقول : وكلني الله إلى نفسي ، وفرضني إلى حولي وقوتي ، أي من كلامه وحفظه ، كالنحلة الباهل التي لا حافظة لها في ضرعها ، فكل من شاء حليها وأخذ لبنها لا قوة لها في الدفع عن نفسها ، ويقال أيضاً : وجل باهل ، إذا لم يكن معه عصاً ، وإنما معناه أنه ليس معه ما يدفع عن نفسه ، والقول الأول أولى ، لأنه يكون قوله (ثم ينهل) أي ثم نجتهد في الدعاء ، ونجمل اللعنة على الكاذب وعلى القول الثاني يصير التقدير : ثم ينهل ، أي ثم تلتبس (فتجعل لعنة الله على الكاذبين) وهي تكرار ، يعني في الآية سؤالات أربع .

❖ السؤال الأول ❖ الأولاد إذا كانوا صفاراً لم يجر نزول العذاب بهم وقد ورد في الخبر إنه صلوات الله عليه أدخل في الميالة الخس والحسين عليهما السلام فما الفائدة فيه ؟ .

(الجواب) إن عادة الله تعالى جارية بأن عقوبة الاستئصال إذا نزلت بقوم هدكت معهم الأولاد والنساء ، فيكون ذلك في حق البالغين عقاباً ، وفي حق الصبيان لا يكون عقاباً ، بل يكون جازياً يجري إيمانهم وإيمان الآلام والأسقام إليهم ومعلوم أن شفقة الإنسان على أولاده وأهله شديدة جداً فربما جعل الإنسان نفسه فداء لهم رجاء لهم ، وإذا كان كذلك فهو عليه السلام أحضر صبيته وسأده مع نفسه وأمرهم بأن يفعلوا مثل ذلك ليكون ذلك أبلغ في الجزع وأقوى في تخويف الخصم وأدل على وثوقه صلوات الله عليه وعلى آله بأن أحق معه .

❖ السؤال الثاني ❖ هل دلت هذه الواقعة على صحة نبوة محمد ﷺ ؟ .

(الجواب) أنها دلت على صحة نبوته عليه السلام من وجهين (أحدهما) وهو إقناعه عليه السلام خوفهم بنزول العذاب عليهم ، ولو لم يكن واقعاً بذلك ، لكان ذلك منه سبباً في إظهار كذب نفسه لأن التقدير : أن يرغبوا في مباہلته ، ثم لا ينزل العذاب ، فحينئذ كان يظهر كذبه فيما أخبر ومعلوم أن محمداً ﷺ وعلى آله وسلم كان من أعظم الناس ، فلا يليق به أن يعمل عملاً يفضي إلى ظهور كذبه فلما أمر على ذلك علمنا أنه إنما أمر عليه لكونه واقعاً بنزول العذاب عليهم (وثانيهما) إن القوم لما تركوا مباہلته ، قلوا أنهم عرفوا من النبوة والإنجيل ما يدل على نبوته ، وإلا لما أحجموا عن مباہلته .

فإن قيل : لم لا يجوز أن يقال : إنهم كانوا شاكين ، فتركوا مباہلته خوفاً من أن يكون صادقاً فينزول بهم ما ذكر من العذاب ؟ .

قلنا هذا مددوع من وجهين (الأول) أن القوم كفوا ببدلونهم التفرس والأموال في

إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَمَا نَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٣٧﴾

النازعة مع الرسول عليه الصلاة والسلام . وتوكلوا تتاكين لما فعلوا ذلك (الثاني) ثم عد نقل عن أولئك المتطهرين (نهم قالوا : إنه والله هو النبي البشري في التوراة والإنجيل . وإياكم لو ياخذوه لحصل الاستقصاء فكان ذلك نصرياً منهم بأن الامتناع عن الجاهلة كان لأجل علمهم بأنه نبي مرسل من عند الله تعالى

في السؤال الثالث : أليس إن بعض الكفار اشتغلوا بالجاهلة مع محمدية ؟ حيث قلنا (اليهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاعط علينا حجة من السماء) ثم إنه لم ينزل العذاب . به الله ، فكذلك هنا ، وأيضا في تقدير نزول العذاب ، كان ذلك مما ينافي بقوله (وما كنت الله ليغيبهم وأنت بهم)

(والحوادث) الخاص من الله على الله ، قلنا أحمر عليه السلام نزول العذاب في هذه السورة على التبيين وجب أن يعتقد أن الأمر كذلك .

في السؤال الرابع : قوله (إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ) هل هو متصل بما قبله م لا ؟ . (والجواب) قال أبو مسلم . إنه متصل بما قبله ولا يجوز التوقف على قوله (الكاذبين) وتفسير الآية (فجعل الله على الكاذبين) بأن هذا هو القصص الحق وعلى هذا التفسير كان حق (إن) أن تكون مفتوحة ، إلا أنها كسرت لدخول اللام في قوله (هو) كما في قوله (إن وجههم يومئذ خير) وقال الملقون : الكلام قد عند قوله (على الكاذبين) وما بعده جملة أخرى مستقلة غير متعلقة بما قبلها والله أعلم .

قوله تعالى : { إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } فإن تولوا فمن الله عليهم بالمفسدين في وفيه مسائل :

في المسألة الأولى : قوله (إِنَّ هَذَا) إشارة إلى ما تقدم ذكره من الدلائل ، ومن الدعاء إلى البهلة (هو القصص الحق) والقصص هو مجموع الكلام المشتمل على ما يجدي إلى الدين ، ويرشد إلى الحق ويأمر بطلب التوجه فين تعالى إن الذي أمره عن نبيه هو القصص الحق ليكون على منه من أمره ، والخطاب وإن كان معه والمراد به الكل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (هو) في قوله (هو الفصل الحق) فيه قولان (أحدهما) أن يكون فصلاً وصياداً ، ويكون خبر (إن) هو قوله (الفصل الحق) .

فإن قيل : فكيف جاز دخول فلام على الفصل ؟ .

قلنا : إذا جاز دخولها على الخبر كان دخولها على الفصل أجود ، لأنه أقرب إلى المبتدأ منه ، وأصلها أن تدخل على المبتدأ .

﴿ والقول الثاني ﴾ إنه مبتدأ ، والفصل خبره ، والجملة خبر (إن) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرئ (هو) بتحريك الهاء على الأصل ، وبالسكون لأن السلام ينزل من (هو) منزلة بعضه فخلف كما خلف عضد .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ يقال : نص فلان الحديث بقصه فصاً وفصصاً ، وأصنه أتباع الأثر ، يقال : خرج فلان فصصاً ، في أثر فلان ، وقصاً ، وذلك إذا اقتصر أثره ، ومنه قوله تعالى (وقالت لأخته قصبه) وقيل للقاص إنه قاص ، لا تبليغه خبراً بعد خير ، وسوقه للكلام سوقاً ، فمعنى الفصل خبر المشتغل على المعنى المتابعة .

ثم قال (وما من إله إلا الله) وهذا يفيد تأكيد النفي ، لأنك لو قلت عندي من الناس أحد ، أفاد أن عندك بعض الناس ، فإذا قلت ما عندي من الناس من أحد ، أفاد أنه ليس عندك بعضهم ، وإذا لم يكن عندك بعضهم ، فإن لا يكون عندك كلهم أو نفي ثبت أن قوله (وما من إله إلا الله) مبالغة في أنه لا إله إلا الله الواحد الحق سبحانه وتعالى .

ثم قال (وإن الله هو العزيز الحكيم) وفيه إشارة إلى الجواب عن شبهات النصاري ، وذلك لأنهم ينادونهم على أمرين (أحدهما) أنه قدر على إحياء الموتى وإبراء الأكف والأبرص ، فكانه تعالى قال : هذا القدر من القدرة لا يكفي في الإلهية ، بل لا بد وأن يكون عزيزاً غالباً لا يدفع ولا يمنح ، وأنتم قد اعترفتم بأن عيسى ما كان كذلك ، وكيف وأنتم تقولون إن اليهود قتلوه ؟ (والثاني) أنهم قالوا : إنه كان يخبر عن الغيوب وغيرها ، فيكون لها ، فكانه تعالى قال : هذا القدر من العلم لا يكفي في الإلهية ، بل لا بد وأن يكون حكماً ، أي عالماً بجميع المعلومات وبجميع عواقب الأمور ، فذكر (العزيز الحكيم) ههنا إشارة إلى الجواب عن هاتين الشبهتين ونظير هذه الآية ما ذكره تعالى في أول السورة من قوله (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم) .

ثم قال (فإن تولوا فإن الله عليهم بالفسدين) والمعنى : فإن تولوا عما وصفت من أن الله هو الواحد ، وأنه يجب أن يكون عزيزاً غالباً قادراً على جميع المقدورات ، حكماً عادلاً بالمعاقب

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١٣٠﴾

والنهايات مع أن عيسى عليه السلام ما كان عزيزاً غالباً ، وما كان حكيماً عاقلاً بالعواقب والنهايات . فاعلم أن توليهم وإعراضهم ليس إلا على سبيل العناد فاقطع كلامك عنهم وفوض أمرهم إلى الله ، فإن الله عليهم يفسد المفسدين ، مطلع على ما في قلوبهم من الأغراض الخفية ، قادر على مجازاتهم .

قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

واعلم أن النبي ﷺ لما أورد على نصارى نجران أنواع الدلائل وانفطموا ، ثم دعاهم إلى المياعة فخذوا وما شرعوا فيها وغلبوا الصغار بأداء الجزية ، وقد كان عليه السلام حريصاً على إيمانهم ، فكانه تعالى قال : يا محمد ترك ذلك المنهج من الكلام واعتدل إلى منهج آخر يشهد كل عقل سليم وطبع مستقيم أنه كلام مبني على الإنصاف وترك الجحاد ، (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بينا وبينكم) أي هلموا إلى كلمة فيها إنصاف من بعضنا لبعض ، ولا ميل فيه لأحد على صاحبه ، وهي (أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً) هذا هو المراد من الكلام ولندكر الآن تفسير الالفاظ .

أما قوله تعالى (يا أهل الكتاب) ففيه ثلاثة أقوال (أحدها) المراد نصارى نجران (والثاني) المراد يهود المدينة (والثالث) أنها نزلت في الفريقين ، ويدل عليه وجهان (الأول) أن ظاهر اللفظ يقتضيهما (والثاني) روي في سبب النزول ، أن اليهود قالوا للنبي عليه الصلاة والسلام ، ما تريد إلا أن نتخذك رباً كما اتخذت النصارى عيسى ! وقالت النصارى : يا محمد ما تريد إلا أن تقول فيك ما قالت اليهود في عيسى ! فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وعندني أن الأقرب حمل على النصارى ، لما بينا أنه لما أورد الدلائل عليهم ، ثم بهم ثانياً ، فعدل في هذا المقام إلى الكلام المبني على دعوى الإنصاف ، وترك المجادلة ، وطلب الإقناع والإلزام ، وما يدل عليه ، أنه خاضهم بهذا بقوله تعالى (يا أهل الكتاب) وهذا الاسم من أحسن الأسماء

وأكمل الأتباع حيث جعلهم أهلاً للكتاب الله ، ونظيره ، ما يقال لحافظ القرآن يا حامل كتاب الله ، وللمفسر يا مفسر كلام الله ، فإن هذا القلب يدل على أن قائله أراد المبالغة في تعظيم المخاطب وفي تعظيم قلبه ، وذلك إما يقال عند عدول الإنسان مع حصصه عن طريقة اللجاج والنزاع إلى طريقة طلب الإنصاف .

أما قوله تعالى (معالوم) فالمراد تعيين ما دعوا إليه والتوجه إلى الشطر فيه وإن لم يكن استقلالاً من مكان إلى مكان لأن أصل اللفظ مأخوذ من التعالي وهو الارتفاع من موضع هابط إلى مكان عال ، ثم كثر استعماله حتى صار دالاً على طلب التوجه إلى حيث يدعى إليه .

أما قوله تعالى (إلى كلمة سواء بيننا) فالعنى هلموا إلى كلمة فيها إنصاف من بعضنا لبعض ، لا ميل فيه لأحد على صاحبه ، والسواء هو العدل والإنصاف ، وذلك لأن حقيفة الإنصاف إعطاء النصف ، فإن الواجب في العقول ترك الظلم على النفس وعين الغير ، وذلك لا يحصل إلا بإعطاء النصف . فإذا أنصف وترك ظلمه أعطاه النصف فقد سوي بين نفسه وبين غيره وحصل الاعتدال ، وإذا ظلم وأخذ أكثر مما أسطى زال الاعتدال فلما كان من لوازم العدل والإنصاف التسوية جعل لفظ التسوية عبارة عن العدل .

ثم قال الزجاج (سواء) نعت للكلمة يريد : دت سواء ، فعلى هذا قوله (كلمة سواء) أي كلمة عادلة مستقيمة مستوية . فلو أمنا بها نحن وأنتم كنا على السواء والاستقامة ، ثم قال (أن لا نعبد إلا الله) وفيه مسائلتان .

في المسألة الأولى (أن) في قوله أن لا نعبد ، فيه وجهان (الأول) إنه رفع باضمار ، هي : كان قائلاً قال : ما تلك الكلمة ؟ فقلت هي أن لا نعبد إلا الله (والثاني) خفض على البدل من : كلمة .

في المسألة الثانية (إنه تعالى ذكر ثلاثة أشياء (أولها) (أن لا نعبد إلا الله) (وثانيها) أن (لا نشرك به شيئاً) (وثالثها) أن (لا نبخذ بعضاً بأرباباً من دون الله) وإنما ذكر هذه الثلاثة لأن التمسري جمعوا بين هذه الثلاثة فيعبدون غير الله وهو المسيح ، ويشركون به غيره وذلك لأنهم يقولون إنه ثلاثة : أب وابن وروح القدس . فاشتوا ذوات ثلاثة قديمة سواء ، وإنما قلنا : إنهم أثبتوا ذوات ثلاثة قديمة ، لأنهم قالوا : إن أقنوم الكلمة تدرعت بناسوت المسيح ، وأقنوم روح القدس تدرعت بناسوت مريم ، ولولا كون هذين الأقنومين ذاتين مستقلتين وإلا لما جازت عليها مفارقة ذات الأب والتدرع بناسوت عيسى ومريم ، وما أثبتوا ذوات ثلاثة مستقلة فقد أشركوا ، وأما إنهم تحدوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله فيدل

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣١﴾

عليه وجوه :

(أحدها) إنهم كانوا يطعنونهم في التحليل والتحریم (والثاني) إنهم كانوا يسجدون لأحبارهم (والثالث) قال أبو مسلم : من مذهبه أن من صار كاملاً في الرياضة والمجاهدة يظهر فيه أثر حلول اللاهوت ، فيقدر على إحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص ، فهم وإن لم يظفروا عليه لفظ الرب إلا أنهم أثبتوا في حقه معنى الربوبية (والرابع) هو أنهم كانوا يعطون أحبارهم في المعاصي ، ولا معنى للربوبية إلا ذلك ، ونظيره قوله تعالى (أفرايت من اتخذ إلهه هواه) فثبت أن النصارى جمعوا بين هذه الأمور الثلاثة ، وكان القول ببطلاق هذه الأمور الثلاثة كالامر المتفق عليه بين جمهور العقلاء ، وذلك ، ولأن قبل المسيح ما كان المعبود إلا الله ، فوجب أن يبقى الأمر بعد ظهور المسيح على هذا الوجه ، وأيضاً القول بالشركة باطل باتفاق الكل ، وأيضاً إذا كان الخلق والمنعم بجميع النعم هو الله ، وجب أن لا يرجع في التحليل والتحریم والإنقياد والطاعة إلا إليه ، دون الأحبار والرهبان ، فهذا هو شرح هذه الأمور الثلاثة .

ثم قال تعالى (فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) والمعنى إن أبوا إلا الإصرار ، فقولوا إنا مسلمون ، يعني اظهروا إنكم على هذا الدين ، ولا تكونوا في قيد أن تحملوا غيركم عليه .

قوله تعالى ﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ﴾ .

اعلم أن اليهود كانوا يقولون : إن إبراهيم كان على ديننا ، والنصارى كانوا يقولون : كان إبراهيم على ديننا ، فأبطل الله عليهم ذلك بأن التوراة والإنجيل ما أنزلا إلا من بعده فكيف يعقل أن يكون يهودياً أو نصرانياً ؟ .

فإن قيل : فهذا أيضاً لازم عليكم لأنكم تقولون : إن إبراهيم كان على دين الإسلام ، والإسلام إنما أنزل بعده بزمان طويل ، فإن قلتم إن المراد أن إبراهيم كان في أصول الدين على

هَٰذَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجِبَتُمْ فِيا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ
حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ
اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

المذهب الذي عليه المسلمون الآن ، فنقول : فلم لا يجوز أيضاً أن تقول اليهود إن إبراهيم كان يهودياً بمعنى إنه كان على الدين الذي عليه اليهود ، وتقول النصارى إن إبراهيم كان نصرانياً بمعنى إنه كان على الدين الذي عليه النصارى ، فكون التوراة والإنجيل نازلين بعد إبراهيم لا ينافي كونه يهودياً أو نصرانياً بهذا التفسير ، كما إن كون القرآن نازلاً بعده لا ينافي كونه مسلماً :

(والجواب) إن القرآن أخبر أن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً ، وليس في التوراة والإنجيل أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً ، فظهر الفرق . ثم نقول : أما إن النصارى ليسوا على ملة إبراهيم ، فالأمر فيه ظاهر ، لأن المسيح ما كان موحداً في زمن إبراهيم ، فما كانت عبادته مشروعة في زمن إبراهيم لا محالة ، فكان الاشتغال بعبادة المسيح مخالفة لملة إبراهيم لا محالة ، وأما إن اليهود ليسوا على ملة إبراهيم فذلك لأنه لا شك إنه كان لله سبحانه وتعالى تكاليف على الخلق قبل يحيى . موسى عليه السلام ، ولا شك إن الموصل لتلك التكاليف إلى الخلق واحد من البشر ، ولا شك أن ذلك الإنسان قد كان مؤيداً بالمعجزات . وإلا لم يجب على الخلق قبول تلك التكاليف منه فاذن قد كان قبل يحيى ، موسى أنبياء ، وكانت لهم شرائع معينة ، فذ جاء موسى فلما أن بذل إنه جاء بتقرير تلك الشرائع ، أو بغيرها فإن جاء بتقريرها لم يكن موسى صاحب تلك الشريعة ، بل كان كالغنيمة المقر لمصلحة من قبله ، واليهود لا يرون بذلك ، وإن كان قد جاء بشرى آخر سرى شرع من تقدمه فقد قال المسيح . ثبت إنه لا بد وأن يكون دين كل الأنبياء جوار القول بالنسخ واليهود يتكبرون ذلك ، فثبت أن اليهود ليسوا على ملة إبراهيم ، فبطل قول اليهود والنصارى بأن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً ، وهذا هو المراد من الآية والله أعلم .

قوله تعالى : هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجِبَتُمْ فِيا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ

يعلم وأنتم لا تعلمون ، ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴿

وفيه مسائل :

﴿ مسألة الأولى ﴾ : قرأ عاصم وحرره والكسائي (يا أيها) بالهمزة وقرأتافع وأبو عمرو وبغير همز ولا مد ، إلا بفتح غر وج لألف الساكنة وقرأ ابن كثير بالهمز والقصر عني وزن (صنعتهم) وقرأ ابن عامر بالمد دون الضمة ، فمن حذف على الأصل ، لأنها حرفان (ها) و(أنتم) ومن لم يمد ولم يميز فللتخفيف من غير إخلال .

﴿ مسألة الثانية ﴾ : اختلفوا في أصل (ها أنتم) فقبل (ها) تنبيه والأصل (أنتم) وقبل أصله (أنتم) فنبتت الهمزة الأولى هاء كقوله هرفت الماء وأرفت و(هؤلاء) مبي على الكسر وأصله أولاء دخلت عليه ها التنبيه ، وفيه لغتان : القصر والممد ، فان قبل : تين جبر أنتم في قوله ها أنتم ؟ قلنا فيه ثلاثة أوجه (الأول) قال صاحب التفسير (ها) للتنبيه و(أنتم) مبتدأ و(هؤلاء) خبر و(حاججتم) حقة مستأنفة مبيئة للجملة الأولى بمعنى : أنتم هؤلاء الأشخاص المحضين وبيان محضتكم وقلة عقولكم أنكم وإن جلدتم فما لكم به علم علم فحاججون فما ليس لكم به علم ؟ (والثاني) أن يكون (أنتم) مبتدأ ، وخبر (هؤلاء) معنى أولاء على الذي وما بعده صفة له (الثالث) أن يكون (أنتم) متدا (وهؤلاء) عطف بيان (حاججتم) خبره وتقديره : أنتم يا هؤلاء حاججتم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ : المراد من قوله (حاججتم فما لكم به علم) هو أنهم وعموا في شريعة التوراة والإنجيل مخالفة لشريعة القرآن فكيف غلحون فما لا علم لكم به وهو ادعائكم أن شريعة إبراهيم كانت مخالفة لشريعة محمد عليه السلام ؟ .

ثم يحتمل في قوله (يا أيها هؤلاء حاججتم فما لكم به علم) أنه لم يصفهم في العلم حفيظة وإنما أراد إنكم تستجيزون حاججته فما تدعون علمه ، فكيف غلحون فما لا علم لكم به اليقينة ؟ .

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾

ثم حقق ذلك بقوله (والله يعلم) كيف كانت حال هذه الشرائع في المخالفة والموافقة (وأنتم لا تعلمون) كيفية تلك الأحوال .

ثم بين تعالى ذلك مفصلاً فقال (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً) فكذلكهم فيما اتبعوه من موافقة لها .

ثم قال (ولكن كان حنيفاً مسلماً) وقد سبق تفسير الحنيف في سورة البقرة .

ثم قال (وما كان من المشركين) وهو تعريض بكون النصارى مشركين في قولهم بإفنية المسيح ويكون اليهود مشركين في قولهم بالنسبية .

فان قيل : قولكم إبراهيم على دين الإسلام أمر يبدون به الموافقة في الأصول أو في الفروع ؟ فان كان الأول لم يكن مختصاً بدين الإسلام بل تقطع بأن إبراهيم أيضاً على دين اليهود ، أعني ذلك الدين الذي جاء به موسى ، فكان أيضاً على دين النصارى ، أعني تلك النصرانية التي جاء بها عيسى فان أديان الأنبياء لا يجوز أن تكون مختلفة في الأصول ، وإن أردتم به الموافقة في الفروع ، فلزم أن لا يكون محمد عليه السلام صاحب لشرع البينة ، بل كان كالمقرر لعين غيره ، وأيضاً من المعلوم بالضرورة أن التبعيد بالقرآن ما كان موجوداً في زمان إبراهيم عليه السلام فتلاوة القرآن مشروعة في صلاتنا وغير مشروعة في صلاتهم . قلنا : جاز أن يكون المراد به الموافقة في الأصول والغرض منه بيان أنه ما كان موافقاً في أصول الدين لمذهب هؤلاء الذين هم اليهود والنصارى في زماننا هذا ، وجاز أيضاً أن يقال المراد به الفروع وذلك لأن الله نسخ تلك الفروع بشرع موسى ، ثم في زمن محمد ﷺ نسخ شرع موسى عليه السلام الشريعة التي كانت ثابتة في زمن إبراهيم عليه السلام وعلى هذا التقدير يكون محمد عليه السلام صاحب الشريعة ثم لما كان غالب شرع محمد عليه السلام موافقاً لشرع إبراهيم عليه السلام ، فلم رعت المخالفة في انقضاء ذلك في حصول الموافقة .

ثم ذكر تعالى (إن أولى الناس بإبراهيم) فريضان (أحدهما) من اتبعه عس تقدم (والآخر) النبي وسائر المؤمنين .

ثم قال (والله ولي المؤمنين) بالنصرة والمعوزة والتوفيق والإعظام والإكرام .

قوله تعالى : ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾

بشعرون ﴿٧٠﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أن من طريقة أهل الكتاب العدول عن الحق ، والأعراض عن قبول الحجة بين أنهم لا يقتضرون على هذا القدر ، بل يجتهدون في إضلال من آمن بالرسول عليه السلام بإلقاء الشبهات كقولهم : إن محمداً عليه السلام مقر موسى وعيسى ويدعي نفسه النبوة ، وأيضاً إن موسى عليه السلام أخير في التوراة بأن شرعه لا يزول ، وأيضاً بالقول بالنسخ بنفي إلى البدء ، والغرض منه تشييه المؤمنين على أن لا يفتروا بكلام اليهود ، ونفي قوله تعالى في سورة البقرة (ودك كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم) وقوله (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء) .

واعلم أن (من) هنا للتبعض وإنما ذكر بعضهم ولم يعمهم لأن منهم من آمن وأثنى الله عليهم بقوله (منهم أمة مقتصدة) (ومن أهل الكتاب أمة قائمة) وقيل نزلت هذه الآية في معاذ وجمار بن ياسر وحذيفة دعاهم اليهود إلى دينهم ، وإنما قال (لو يضلونكم) ولم يقل أن يضلوك ، لأن (لو) للتمني فإن قولك لو كان كذا يفيد التمني وتظهره قوله تعالى (يود أحدهم لو يعمر ألف سنة) .

ثم قال تعالى (وما يضلون إلا أنفسهم) وهو يحتمل وجوهاً منها إهلاكهم أنفسهم باستحقاق العقاب على فسادهم وإضلال الغير وهو كقولهم (وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) وقوله (وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم) (ولِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلِيسَ مَا يَزِرُونَ) ومنها إخراجهم أنفسهم عن معرفة الهدى والحق لأن المذهب عن الاعتداء بوصف بأنه ضال ومنها إنهم لما اجتهدوا في إضلال المؤمنين ثم إن المؤمنين لم ينفتوا إليهم فهم قد صاروا حائنين خاسرين ، حيث اعتقدوا شيئاً ولاح لهم أن الأمر بخلاف ما تصوروه .

ثم قال تعالى (وما يشعرون) أي وما يعلمون أن هذا يضرهم ولا يضر المؤمنين .

قوله تعالى ﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ﴾ .

قوله تعالى : « يا أهل الكتاب لم تكفرون » الآية سورة آل عمران ١١٠

اعلم انه تعالى لما بين حال الطائفة التي لا تشعربما في الشورة من دلالة نبوة محمد ﷺ ، بين أيضاً حال الطائفة العارفة بذلك من أخبارهم .

فقال (يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (قم) أصلها كـ ، لأنها : ما ، التي للاستفهام ، دخلت عليها اللام محدثة الالف لطلب الخفة ، ولأن حرم الخمر صار كالخوض عنها ولانها وقعت طرفاً ويدل عليها الفتحة وعلى هذا قوله (عم يتساءلون) و (قسم بشرون) والوقف على هذه الحروف يكون باللهاء نحو : فيه ، وله .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في قوله (بآيات الله) وجوه (الأول) أن المراد منها الآيات الواردة في التوراة والإنجيل ، وعلى هذا القول فيه وجوه (أحدها) ما في هذين الكتابين من البشارة بحمد عبده السلام ، ومنها ما في هذين الكتابين ، أن إبراهيم عليه السلام كان حنيفاً مسلماً ، ومنها أن فيها أن الدين هو الإسلام .

واعلم أن على هذا القول المحتمل لهذه الوجوه نقول : إن الكفر بالآيات يختص وحينئذ : (أحدها) أنهم ما كانوا كافرين بالتوراة بل كانوا كافرين بما ينك عليه التوراة فأطلق اسم لتذليل عن المداول على سبيل الجاز (والثاني) أنهم كانوا كافرين بنفس التوراة لأنهم كانوا يجرعونها وكانوا يتكفرون وجود تلك الآيات الدالة على نبوة محمد ﷺ .

وأما قوله تعالى (وأنتم تشهدون) فالمعنى على هذا القول أنهم عند حضور المسلمين ، وعند حضور عوامهم ، كانوا ينكرون اشتمال التوراة والإنجيل على الآيات الدالة على نبوة محمد ﷺ ، ثم إذا خلا بعضهم مع بعض شهدوا بصحتها ، ومثله قوله تعالى (تبغونها عوجاً وأنتم شهداء) .

ونعلم أن تفسير الآية بهذا القول ، يدل على اشتمال هذه الآية على الإخبار عن الغيب لأنه عليه الصلاة والسلام أخبرهم بما يكتمونه في أنفسهم ، وبظهور غيره ، ولا شئ أن الإخبار عن الغيب معجز .

﴿ القول الثاني ﴾ في تفسير آيات الله أنها هي القرآن وقوله (وأنتم تشهدون) يعني أنكم تكفرون عند العوام كون القرآن معجزاً ثم تشهدون بملوككم وعقولكم كونه معجزاً .

﴿ القول الثالث ﴾ أن المراد بآيات الله جملة المعجزات التي ظهرت على يد النبي ﷺ وعلى هذا القول فنونه تعالى (وأنتم تشهدون) معناه أنكم إنما اعترفتم بدلالة المعجزات التي

يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾

ظهرت على سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الدالة على صدقهم ، من حيث أن المعجز قائم مقام التصديق من الله تعالى فإذا شهدتم بأن المعجز إنما دل على صدق سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من هذا الوجه ، وأنتم تشهدون حصول هذا الوجه في حق محمد ﷺ كان إصرارهم على إنكار نبوته ورسالته منقضاً لما شهدتم بحقيقته من دلالة معجزات سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على صدقهم .

قوله تعالى ﴿ يا أهل الكتاب لم تلبسوا الحق بالباطل وتكتُمون الحق وأنتم تعلمون ﴾ .

اعلم أن علماء اليهود والنصارى كانت لهم حرفتان (إحداهما) أنهم كانوا يكفرون بمحمد ﷺ مع أنهم كانوا يعلمون بفلوهم أنه رسول حق من عند الله والله تعالى نهاهم عن هذه الحرفة في الآية الأولى (وثانيها) أنهم كانوا يجنّهون في إلقاء الشبهات ، وفي إخفاء الدلائل والبيّنات والله تعالى نهاهم عن هذه الحرفة في هذه الآية الثانية ، فالقام الأول مقام القوابة والفضالة والمقام الثاني مقام الإغواء والإضلال ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرئ (تلبسون) بالتشديد ، وقرأ يحيى بن وثاب (تلبسون) بفتح الياء ، أي تلبسون الحق مع الباطل ، كقوله عليه السلام « كلابس ثوبي زور » وقوله .

إذا هر بالمجد ارتدى وتأزرا

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أن الساعي في إخفاء الحق لا سبيل له إلى ذلك إلا من أحد وجهين : إما بإلقاء شبهة تدل على الباطل ، وإما بإخفاء الدليل الذي يدل على الحق ، لقوله (لم تلبسون الحق بالباطل) إشارة إلى المقام الأول وقوله (وتكتُمون الحق) إشارة إلى المقام الثاني أما ليس الحق بالباطل فإنه يشمل ههنا وجوهاً (أحدها) تحريف الثروة ، فيخلطون المنزل بالمحرف ، عن الحسن وابن زيد (وثانيها) أنهم تواضعوا على إظهار الإسلام أول النهار ، ثم الرجوع عنه في آخر النهار ، تشكيكاً للناس ، عن ابن عباس وفائدة (وثالثها) أن يكون في الثروة ما يدل على نبوته ﷺ من البشارة والنبع والصفة ويكون في الثروة أيضاً ما

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَا آلَ مُحَمَّدٍ انزل على آلِكَ سورة أو أنزل وجه النهار
وَأَكْفُرُوا آخِرَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٠٢﴾

يوهم خلاف ذلك ، فيكون كالحكم والنسب فينبسبون على الضعفاء أحد الأحرار بالأحرار
بفعله كثير من المشبهة ، وهذا قول القاضي (ورأى بها) أنهم كانوا يقولون محمداً معترف بأن
موسى عليه السلام حق ، ثم إن التوراة دالة على أن شرع موسى عليه السلام لا ينسخ وكل ذلك
إلغاء للشبهات .

أما قوله تعالى (وتكتفون اخي) فافتراد أن الآيات الموجودة في التوراة لدانة على نبوة
محمد ﷺ كان الاستدلال بها مقتصراً إلى التفكير والتأمل ، والقوم كانوا يجتهدون في حفظه نثبت
الانقطاع التي كان مجموعها يتم هذا الاستدلال مثل ما أن أهل السنة في زماننا يسعون في أن
لا يصل إلى عوامهم دلائل الحظائر .

أما قوله (وأنتم نعمون) فيه وجوه (أحدها) إنكم نعمون أنكم إذا فعلوا ذلك
عباداً وحيداً (وثانيها) (وأنتم نعمون) أي أنتم أرباب العلم والمعرفة لا أرباب الجهل
والخرافة (وثالثها) (وأنتم نعمون) أن عقاب من يفعل مثل هذه الأفعال عظيم .

❖ المسألة الثالثة ❖ قال القاضي : قوله تعالى (لم تكفرون) و (لم تبسبون اخي
بالباطل) دال على أن ذلك فعلهم ، لأنه لا يجوز أن يخفى فيهم ، ثم يقول : لم فعلهم ؟
وجوابه : أن الفعل يتوقف على الداعية فثبت الدعاء من حديث لا لمحدث لرم يعني البصير ،
وإن كان محدثها هو العبد افتقر إلى زيادة أخرى وإن كان محدثها هو الله تعالى لزمكم ما
أقرتموه علينا والله أعلم .

قوله تعالى ❖ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النار
واكفروا آخروا لعلمهم يرجعون ❖ .

اعلم أنه تعالى لم حكى عنهم أنهم يلبسون الحق بالباطل أردف ذلك بأن حكى عنهم
نوعاً واحداً من أنواع تلبساتهم ، وهو المذكور في هذه الآية وهما مسائل :

❖ المسألة الأولى ❖ قول بعضهم لبعض : « موأ بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه
النهار » ويعتدل أن يكون المراد كل ما أنزل وأن يكون المراد بعض ما أنزل

﴿ أما الإجمال الأول ﴾ فيه وجهه (الأول) أن اليهود والنصارى استخرجوا حيلة في تشكيك ضعفه المسلمين في صحة الإسلام ، وهو أن يظهروا كعديين ما ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم من الشرائع في بعض الأوقات ، ثم يظهروا بعد ذلك تكذيبه ، فإن الناس متى شاهدوا هذا التكذيب ، قالوا : هذا التكذيب ليس لأجل الحسد والعناد ، وإلا لما أمروا به في أول الأمر وبه لم يكن هذا التكذيب لأجل الحسد والعناد وجب أن يكون ذلك لأجل أنهم أهل الكتاب وقد فكروا في أمره واستقصوا في البحث عن دلائل سنده فوجدوا أنهم أهل الكتاب ، ففسر هذا الطريق شبه قسمة المستعيرين في صحة سنده ، وقيل : نواطأنا عشر رجلا من أجلهم يعود حير على هذا الطريق .

وقوله (لعلمهم يرجعون) معناه أنا متي الحجة هذه الشبهة فعمل أصحابه يرجعون عن

دبته

﴿ الوجه الثاني ﴾ يشتمل أن يكون معنى الآية أن رؤساء اليهود والنصارى قال بعضهم لبعض ناضوا وأظهروا التوافق للمؤمنين ، ولكن شرط أن نشوا على دينكم إذا حلوتهم بأخوانكم من أهل الكتاب ، فإذ أمر هؤلاء المؤمنين في اضطراب فزجوا الأيام معهم بالتفاق فربما صدم أمرهم وأصبح كل دينهم ويرجعوا إلى دينكم ، وهذا قول أبي مسلم الأصفهاني وبطل عنه وجهان (الأول) أنه تعالى لما قال (إن الذين آمنوا ثم كفروا لم أصبوا ثم كفروا) أتبعه بقوله (بشر المكذبين) وهو بمثولة قوله (وإذا لقوا الذين آمنوا أقبلوا وإذا حلوا إلى شياطينهم قالوا إياهم معكم إنا نحن مستهزون) (والثاني) أنه تعالى أبع هذه الآية بقوله (ولا تؤمروا إلا ما يبع دينكم) فهذا يدل على أنهم يوافقون غير دينهم الذي كانوا عليه فكان قولهم (آمنوا وجه النهار) أمر بالتفاق .

﴿ الوجه الثالث ﴾ قال الأصم : قال بعضهم لبعض إن كذبتموه في جميع ما جاء به فإن عوامكم يعلمون كذبتكم ، لأن كثير أمم جاهل سق ولكن صنفوه في بعض وكسبوه في بعض حتى يجعل الناس تكذيبكم له على الإنصاف لا على العناد فيقبلوا مؤمنكم .

﴿ الإجمال الثاني ﴾ أن يكون قوله (آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار) وأكفروا آخره) بعض ما أنزل الله والمقاتلون بهذا القول حملوه على أمر التوبة وذكر ما فيه وجهين (الأول) قال ابن عباس : وجه النهار أوله ، وهو صلاة الصبح وأكفروا آخره : يعني صلاة الظهر وتفسيره أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي إلى بيت المقدس بعد أن قدم المدينة ففرح اليهود بذلك وطمعوا أن يكون منهم ، فلما حوته الله إلى الكعبة كان ذلك عند صلاة الظهر قال كعب بن الأشرف وغيره (آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار) يعني آمنوا بالقبلة التي صعد

قوله تعالى : « وَلَا تَزُمُونَا إِلَّا مَنْ نَبَعِ دِينِكُمْ » الآية سورة ان عمران : ٥٠

وَلَا تَزُمُونَا إِلَّا لِمَنْ نَبَعِ دِينُكُمْ قُلْ إِنْ أَلْهَدْتُمْ هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتِيَكَ اللَّهُ مِنْهُ مَا أَوْتَيْتَهُمْ أَوْ يُجَاهِدُكُمْ عَنْ دِينِكُمْ قُلْ إِنِّي أُنْفَضِلُّ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٥١﴾

إليها صلاة الصبح فهي الحقر ، وكفروا بالنبية التي صس إليها صلاة الظهر ، وهي آخر النهار . وهي انكسر (الثاني) أنه لما حوت القسلة إلى الكعبة لسن ذلك عليهم ، فقال بعضهم لبعض صلوا إلى كعبة في أول النهار ، ثم أكفروا بهذه القسلة في آخر النهار وصلوا إلى الصخرة لعنهم يقولون إن أهل الكتاب أصحاب العلم فنولوا أنهم عرموا بطلان هذه القسلة لما تركوها فحينئذ يرحمون عن هذه القسلة .

في المسألة الثانية في الفائدة في إخبار الله تعالى عن تواضعهم على هذه الخيلة من وجوه (الأول) أن هذه الخيلة كانت محمية فيها بينهم ، وما أطلعوا عليها أحداً من الاحباب ، فلم أخبر الرسول عنها كان ذلك إخباراً عن الغيب ، فيكون معجزاً (الثاني) أنه تعالى لما أطلع المؤمنين على تواضعهم على هذه الخيلة لم يحصل هذه الخيلة أثر في قلوب المؤمنين ، ولولا هذا الإعلان لكان رعا أثرت هذه الخيلة في قلب بعض من كان في إيمانه ضعيف (الثالث) أن القوم لما اقتضحوا في هذه الخيلة صار ذلك رادعاً لهم عن الإقدام على أمثالها من الغبل والتلبس

في المسألة الثالثة في وجه النهار هو أوله ، والوجه في اللغة هو مستقبل كل شيء ، لأن أول ما يواجه منه ، كما يقال لأول الثوب وجه الثوب ، روى ثعلب عن ابن الأعرابي : أتيت بوجه بهار ، وصد نهار وشاب نهار . أي أول النهار ، وأشد الربيع من ريد فقال :

من كان مسروراً يقتل مالك عليات تسوننا بوجه نهار

ثم قال تعالى في « وَلَا تَزُمُونَا إِلَّا مَنْ نَبَعِ دِينِكُمْ قُلْ إِنْ أَلْهَدْتُمْ هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتِيَكَ اللَّهُ مِنْهُ مَا أَوْتَيْتَهُمْ أَوْ يُجَاهِدُكُمْ عَنْ دِينِكُمْ قُلْ إِنِّي أُنْفَضِلُّ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » يختص برحمته من يشاء . والله ذو الفضل العظيم

اتفق المفسرون على أن هذا بقية كلام اليهود ، وفيه وجهان (الأول) المعنى : ولا

تصدقوا إلا نبياً يقر شرائع التوراة ، فإما من جاء بتغيير شيء من أحكام التوراة فلا تصدقوه ، وهذا هو مذهب اليهود إلى اليوم ، وعلى هذا التفسير تكون (الألام) في قوله (إلا لمن تبع) صلة زائدة فإنه يقال صدقت فلاناً ، ولا يقال صدقت فلاناً ، وتكون هذه الألام صلة زائدة حائز ، كقوله تعالى (ردف لكم) والمراد ردفتكم (والثاني) أنه ذكر قبل هذه الآية قوله (أسوأ وجه النهار وكفروا آخره) .

ثم قال في هذه الآية (ولا تؤمنوا إلا من تبع دينكم) أي لا تأتوا بذلك إلا من تبع دينكم ، من تبع دينكم ، كأنهم قالوا : ليس العرص من الإيمان بذلك التليين إلا بغا أقباعكم على دينكم ، فاللعنى ولا تكون بذلك إلا لأجل من تبع دينكم ، فإن مقصود كل واحد حفظ أديعه وأشياعه على متبعته .

ثم قال تعالى (قل إن الهدى هدى الله) قال ابن عباس رضي الله عنهما ، معناه : الدين دين الله ومثله في سورة البقرة (قل إن الهدى الله هو الهدى) .

وأعلم أنه لا يد من بيان أنه كيف صار هذا الكلام جواباً عما حكاه عنهم ؟ فنقول : أما على الوجه الأول وهو قولهم لا دين إلا ما هم عليه ، فهذا الكلام إنما صلح جواباً عما من حجب أن الذي هم عليه إنما ثبت دينا من جهة الله ، لأنه تعالى أمر به وأرشد إليه وأوجب الانقياد له وإذا كان كذلك ، نعمت أمر بعد ذلك بغيره ، وأرشد إلى غيره ، وأوجب الانقياد إلى غيره كان نبياً يجب أن يسمع ، وإن كان مخالفاً لما تقدم ، لأن الدين إنما صار دينا بحكمه وهدايته ، فحينما كان حكمه وجبت متابعتة ، ونظيره قوله تعالى جواباً لهم عن قولهم (ما ولاهم عن قبائحهم التي كانوا عليها هل الله المشرق والمغرب) يعني الجهات كلها لله ، فله أن يحول القبلة إلى أي جهة شاء ، وأما على الوجه الثاني فاللعنى أن الهدى هدى الله ، وقد جئتكم به لمن ينفعكم في دفعه هذا التوكيد الضعيف .

ثم قال تعالى (أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يجاوزكم عنه دينكم) .

واعلم أن هذه الآية من المشكلات الصعبة ، فنقول هذا إما أن يكون من جملة كلام الله تعالى أو يكون من جملة كلام اليهود ، ومن ثمة قوله ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ، وقد ذهب إلى كل واحد من هذين الاحتمالين قوم من المفسرين .

فأما الاحتمال الأول ففيه وجوه (الأول) قرأ ابن كثير أن يؤتى بمد الألف على الاستفهام واليقون بنسخ الألف من غير مد ولا استظهار ، فذا أخذنا بقراءة ابن كثير ، فالوجه ظاهر وذلك لأن هذه اللفظة موضوعة للتوبيخ كقوله تعالى (أن كن ذامال وبينن إذا تلى عليه

أينما قال (سبحر الأولين) والمعنى أمن أجل أن يؤتي أحد شرائع مثل ما أوتيتهم من الشرائع يتكروا أتباعه ؟ ثم حذف الجواب للاختصار ، وهذا الحذف كثير يقول الرجل بعد طرد الغناب لصاحبه ، وتعيده عليه فثوبه بعد كثرة إحسانه إليه أمن ففة إحساني إليك أمن (هاتني لك ؟ والمعنى أمن أجل هذا فعلت ما فعلت ؟ ونظيره قوله تعالى (أمن هو فانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحمد الأخرة ويرجوا رحمة ربه) وهذا الوجه مروى عن مجاهد وعيسى بن عمر أما قراءة من قرأ بقصر الألف من (أن) فقد يمكن أيضاً حملها على معنى الاستفهام كما قرئ (سواء عبيهم أنذرتهم أم لم تنذرهم) بل قد والقصر ، وكذا قوله (أن كان ذا مال وبنيان) قرئ ، بالمد والقصر ، وقال امرؤ القيس :

نروح من الحي أم نبتكر ؟ وماذا عليك ولم تنتظر
أراد أروح من الحي ؟ فحذف ألف الاستفهام ، وإذا ثبت أن هذه القراءة مختلة لمعنى الاستفهام كان التقدير ما شرحناه في القراءة الأولى

﴿ الوجه الثاني ﴾ أن أولئك لما قالوا لا يجيئهم : لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهم (إن الهدى هدى الله) فلا تنكروا (أن يؤتي أحد) سواكم من الهدى (مثل ما أوتيتهم) (أو يحاجوكم) يعني هؤلاء المسلمين بذلك (عند ربكم) إن لم تقبلوا ذلك منهم . أقصى ما في الباب إنه يقتصر في هذا التأويل إلى إضمار قوله فلا تنكروا لأن عليه دليلاً وهو قوله (إن الهدى هدى الله) فانه ما كان الهدى هدى الله كان له تعالى أن يؤتیه من يشاء من عباده ومتى كان كذلك لم ترك الإنكار .

﴿ الوجه الثالث ﴾ إن الهدى اسم للبيان كقوله تعالى (وأما لمود فهديتناهم فاستحسنوا) بمعنى على الهدى (بقوله (إن الهدى) مبتدأ وقوله (هدى الله) بدل منه وقوله (أن يؤتي أحد مثل ما أوتيتهم) خبر بإضمار حرف لا ، والتقدير : قل يا محمد لا شك أن بيان الله هو أن لا يؤتي أحد مثل ما أوتيتهم ، وهو دين الإسلام الذي هو أفضل الأديان وأن لا يحاجوكم يعني هؤلاء اليهود عند ربكم في الآخرة لأنه يظهر لهم في الآخرة أنكم محضون وأنهم مضلون ، وهذا التأويل ليس فيه إلا أنه لا بد من إضمار حرف (لا) وهو جائز كما في قوله تعالى (أن نضلوا) أي أن لا نضلوا .

﴿ الوجه الرابع ﴾ (الهدى) اسم و (هدى الله) بدل منه و (أن يؤتي أحد) خبره والتقدير : إن هدى الله هو أن يؤتي أحد مثل ما أوتيتهم ، وعلى هذا التأويل فقوله (أو يحاجوكم عند ربكم) لا بد فيه من إضمار ، والتقدير : أو يحاجوكم عند ربكم فيبقي لكم

عليه ، والمعنى : أن الهدى هو ما هديتكم به من دين الإسلام الذي من حاجتكم به عندي فضيت لكم عليه ، وفي قوله (عند ربكم) ما يدل على هذا الإصرار ولأن حكمه بكونه رباً هم يدل على كونه راضياً عنهم وذلك مشعر بأنه يحكمهم ولا يحكم عليهم .

﴿ والإجمال الثاني ﴾ أن يكون قوله (أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتهم) من ثمة كلام اليهود ، وفيه تقديم وتأخير ، والتقدير : ولا تؤمروا إلا لمن نزع دينكم أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتهم أو يحاجوكم عند ربكم ، قل إن الهدى هدى الله ، وأن الفضل بيد الله ، قلوا . والمعنى لا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتهم إلا لأهل دينكم ، وأمرؤا تصديقكم ، بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتهم ، ولا تغشوا إلا إلى أشياعكم وحدهم دون المسلمين ثلثاً يزبدهم ثباتاً ودون المشركين ثلثاً يدعوهم ذلك إلى الإسلام

أما قوله (أو يحاجوكم عند ربكم) فهو عطف على أن يؤتى ، والعصر في يحاجوكم لأحد ، لأنه في معنى الجمع بمعنى ولا تؤمروا لغير أتباعكم ، إن المسلمين يحاجونكم يوم القيامة بالحق وبغالبونكم عند الله بالحق . وعندى أن هذا التفسير ضعيف ، ويبيانه من وجوه (الأول) إن جد القوم في حفظ أتباعهم عن قبول دين محمد عليه السلام كان أعظم من جدهم في حفظ غير أتباعهم وأتباعهم عنه ، فكيف يليق أن يرضى بعضهم بعضاً بالإمرار بما يدل على صحة دين محمد ﷺ عند أتباعهم وأتباعهم ، وأن يمشعوا من ذلك عبد الأجانب ؟ هذا في غاية البعد (الثاني) أن على هذا التفسير يخل العظم ويقع فيه تقديم وتأخير لا يليق بكلام التفصيح (والثالث) إن على هذا التفسير لا بد من الحذف فإن التعديل : قل إن الهدى هدى الله وأن الفضل بيد الله ، ولا بد من حذف (قل) في قوله (قل إن الفضل بيد الله) (الرابع) إنه كيف وقع قوله (قل إن الهدى هدى الله) فما بين حراى كلام واحد ؟ فإن هذا في غاية البعد عن الكلام المستقيم ، قال الفطال : يحتمل أن يكون قوله (قل إن الهدى هدى الله) كلام أمر الله نبيه أن يقول عبد الله الحكاية عن اليهود إلى هذا الموضع لأنه لما حكى عنهم في هذا الموضع قولاً ماضياً فلا جرم أدب رسول الله ﷺ بأن ينابله بقول حق ، ثم يعود إلى حكاية تمام كلامهم كما إذا حكى المسلم عن بعض الكفار قولاً فيه كفر ، فيقول : عد بوضع إلى تلك الكنيسة آمنت بالله ، أو يقول لا إله إلا الله ، أو يقول تعالى الله ثم يعود إلى تمام الحكاية فيكون قوله تعالى (قل إن الهدى هدى الله) من هذا الباب ، ثم أتى بعده بنام قول اليهود إلى قوله (أو يحاجوكم عند ربكم) ثم أمر النبي ﷺ بحاجبتهم في هذا وتنبههم على بطلان قولهم ، فقيل له (قل إن الفضل بيد الله) إلى آخر الآية .

﴿ الإنشكاك الخامس ﴾ في هذه الوجوه أن الإيمان إذا كان بمعنى التصديق لا يتعدى إلى

المصدق بحرف اللام لا يقال صدقت لزيد بل يقال : صدقت زيدا ، فكان ينبغي أن يقال : ولا تؤمنوا إلا من تبع دينكم ، وعلى هذا التقدير يحتاج إلى حذف اللام في قوله (لمن تبع دينكم) ونحتاج إلى إظهار الباء أو ما يجري مجراها في قوله (أن يؤتى) لأن التقدير : ولا تصدقوا إلا من تبع دينكم ، بأن يؤتى أحد مثل ما يؤتى ، فقد اجتمع في هذا للتفسير المذهب والإظهار وسوء النظم وهما المعنى ، قال أبو علي الفارسي : لا يبعد أن يحمل الإيمان على الآيات فيكون المعنى : ولا تقروا بأن يؤتى أحد مثل ما يؤتى ، ولا لمن تبع دينكم ، وعلى هذا التقدير لا تكون اللام زائدة ، لكن لا بد من نصب حرف الباء أو ما يجري مجراها على كل حال ، فهذا يحصل ما قبل في تفسير هذه الآية والله أعلم بحراره .

ثم قال تعالى (قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) .

وأعلم أنه تعالى حكى عن اليهود أمرين (أحدهما) أن يؤمنوا بوجه النهار ، ويكفروا آخره ، ليصير ذلك شبهة للمسلمين في صحة الإسلام .

فجاء عنه بقوله (قل إن الهدى هدى الله) والمعنى : أن مع كمال هداية الله وقوة بيانه لا يكون هذه الشبهة الركبة قوة ولا أثر (والثاني) أنه حكى عنهم أنهم استكبروا أن يؤتى أحد مثل ما يؤتى من الكتاب والحكم والنبوة .

فجاء عنه بقوله (قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء) والمراد بالفضل الرسالة ، وهو في اللغة عبارة عن الزيادة ، وأكثر ما يستعمل في زيادة الإحسان ، والفاضل الزائد عن غيره في حصول الخير . ثم كثر استعمال الفضل لكل نفع قصد به فعله الإحسان إلى الغير وقوله (بيد الله) أي إنه مالك له قادر عليه ، وقوله (يؤتيه من يشاء) أي هو فضل موقوف على مشيئته . وهذا يدل على أن النبوة تحصل بالفضل لا بالاستحقاق ، لأنه تعالى جعلها من باب الفضل الذي لفعله أن يفعله وأن لا يفعله ، ولا يصح ذلك في المستحق إلا على وجه المجاز وقوله (والله واسع عليم) مؤكدا لهذا المعنى ، لأن كونه واسعا ، يدل على كمال القدرة ، وكونه علما على كمال العلم ، فصح منه نكاح القدرة أن يفضل على أي عبد شاء بأي فضل شاء ، وبصح منه نكاح كمال العلم أن لا يكون شيء من أعماله إلا على وجه الحكمة والصواب .

ثم قال (يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) وهذا كالتأكيد لما تقدم . ولتفرق بين هذه الآية وبين ما قبلها أن الفضل عبارة عن الزيادة ، ثم إن الزيادة من جنس المرید عليه ، ليس بقوله (إن الفضل بيد الله) إنه قادر على أن يؤتى بعض عباده مثل ما أتاهم من المناصب العالية ويؤدى عليها من جنسها ، ثم قال (يختص برحمته من يشاء) والرحمة المصافة

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِعُقُوبَةِ يَوْمِهِ إِتَيْنَكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينِهِ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دَمَتْ عَلَيْهِ قَاتِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٢﴾

إلى الله سبحانه أمر أعلى من ذلك الفضل ، فإن هذه الرحمة ربما بلغت في الشرف وعُلو الرتبة إلى أن لا تكون من جنس ما آتاهم ، بل تكون 'على وأجل من 'أن نقاس إلى ما آتاهم ، وبحصل من مجموع الآيتين إنه لا نهاية لمراتب إعزاز الله وإكرامه لعباده ، وأن قصر إنعامه وإكرامه على مراتب معينة ، وعلى أشخاص معينين جهل بكمال الله في القدرة والحكمة .

قوله تعالى ﴿ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بعقوبة يؤده إليك منهم من إن تأمنه بدينا لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قاتماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويعلمون على الله الكذب وهم يعلمون ، بلى من أوفى بعهد واتقى فإن الله يحب المتقنين ﴾ .

اعلم أن تعلق هذه الآية بما فيها من وجهين (الأول) أنه تعالى حكى عنهم في الآية المتقدمة أنهم ادعوا أنهم آمنوا من المناصب الدينية ، ما لم يؤت أحد غيرهم مثله ، ثم إنه تعالى بين أن الخيانة مستحقة عند جميع أرباب الأديان ، وهم مصررون عليها ، فدل هذا على كذبهم (والثاني) أنه تعالى لما حكى عنهم في الآية المتقدمة قبائح أحوالهم فيما يتعلق بالأديان وهو أنهم قالوا (لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) حكى في هذه الآية بعض قبائح أحوالهم فيما يتعلق بمعاملة الناس . وهو إصرارهم على الخيانة والظلم وأخذ أموال الناس في القليل والكثير وهنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الآية دالة على انقسامهم إلى قسمين : بعضهم أهل الأمانة ، وبعضهم أهل الخيانة وفيه أقوال (الأول) أن أهل الأمانة منهم هم الذين أسلموا ، أما الذين بقوا على اليهودية فهم مصررون على الخيانة لأن مذهبهم أنه بكل لهم قتل كل من خالفهم في الدين وأخذ أموالهم ونظير هذه الآية قوله تعالى (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) مع قوله (منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون) (الثاني) أن أهل الأمانة هم النصارى ، وأهل الخيانة هم اليهود ، والدليل عليه ما ذكرنا ،

إن مذهب اليهود أنه يحمل قتل المخالف ويحمل أحد ماله بأي طريق كان (الثالث) قال ابن عباس : أودع رجل عبد لله بن سلام ألفاً ومائتي أوقية من ذهب فأدى إليه ، وأودع آخر محاسن بن عازوراء ديناراً فحمله فنزلت الآية .

❖ المسألة الثانية ❖ يقال : أنته مكذراً وعلى كذا . كما يقال : مروث به وعليه ، فمعنى الباء الصاق الأمانة ، ومعنى : على استعمال الأمانة ، فمن أوفى عن شيء فقد صار ذلك الشيء في معنى المتخصص به لقوله به ، واتصّاله بحفظه وحياضته ، وأيضاً صار المودع كالساعي على تلك الأمانة والمستولي عليها ، فلهذا حسن التعبير عن هذا المعنى بكلمة العبارتين ، وقيل إن معنى قولك أنته ديناراً أي ولدت بك فيه ، وقولك أنته عبية ، أي جعلتك أميناً عليه وحافظاً له .

❖ المسألة الثالثة ❖ المراد من ذكر القنطار والدينار مهنا العدد الكثير والعدد القليل . يعني إن فيهم من هو في غاية الأمانة حتى لو أوفى على الأموال الكثيرة أدى الأمانة فيها ، ومنهم من هو في غاية الحيلة حتى لو أوفى على الشيء القليل ، فاته يجوز فيه الخيانة ، ونظيره قوله تعالى (وإن أردت استبداد زوج مكان زوج وأقسم جداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً) وعلى هذا الوجه ، فلا حاجة بنا إلى ذكر مقدار القنطار وذكره فيه زجوهاً (الأول) إن القنطار ألف ومائتا أوقية قالوا : لأن الآية نزلت في عبد الله بن سلام حين استودعه رجل من قريش ألفاً ومائتي أوقية من الذهب فودعه ولم يكن فيه ، وهذا يدل على القنطار هو ذلك المقدار (الثاني) روى عن ابن عباس أنه جاء جلد ثور من المال (الثالث) قيل القنطار هو ألف ألف دينار أو ألف ألف درهم . وقد تقدم القول في تفسير القنطار .

❖ المسألة الرابعة ❖ قرأ حمزة وعاصم في رواية أبي بكر (يؤدد) بكون الهاء ، وروى ذلك عن أبي عمرو ، وقال الزجاج . هذا غلط من الراوي عن أبي عمرو وكنى غلط في (بارئكم) بهسكان حمزة وإثباتاً في أبو عمرو ، يخلص الحركة ، واحتج الزجاج على فساده هذه القراءة بأن قال . انخرأ ببر في الماء وإم هو فم . تنف . هذه والهاء اسم التكني والأسماء لا تجزم في التوصل ، وقال الفراء . من العرب من يجرم الماء إذا تحرك ما قبله . فيقول : صرته صرياً شديداً كما يكون (ميم) أنتم وقعتم وأصلها الرفع ، وأنتد .

لم أراي أن لا دعه ولا شيع

وقرى أيضاً باختصاص حركة الهاء بالكسرة من الباء ، وقرى بالفتح الكسرة في

الحاء وهو الأصل .

ثم قال تعالى (ومنهم من إن تأتته بدینار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً) وفيه مسائلان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في لفظ (القائم) وجهان : منه من حمله على حقيقة ، قال السدي : يعني إلا ما دمت قائماً على رأسه بالإحتجاج معه والملازمة له . والمعنى : أنه إنما يكون معترفاً بما دفعت إليه ما دمت قائماً على رأسه ، فإن أنطرت وأخبرت أنكرك . ومنهم من حمل لفظ (القائم) على مجزئه ثم ذكر واقبه وجوهاً (الأول) قال ابن عباس المراد من هذا القيام الإلحاح والمخاصمة والمناجاة والمطالبة ، فإن ابن قتية : أصله أن المطالب للشيء يقوم فيه والتترك له يقعد عنه ، دليل قوله تعالى (أمة فائمة) أي عاملة بأمر الله غير تاركة ، ثم قيل : لكل من وأظب على مطالبته أمر أنه قام به وإن لم يكن ثم قيام (الثاني) قال أبو علي الفارسي : التقيم في اللغة بمعنى اللوام والثبت ، وذكرنا ذلك في قوله تعالى (يقيمون الصلاة) ومنه قوله (ديناً قياً) أي ديناً ثابتاً لا يتبع فمعنى قوله (إلا ما دمت عليه قائماً) أي دائماً ثابتاً في مطالبتك بياه بذلك المال .

﴿ المسألة الثانية ﴾ يدخل تحت قوله (من إن تأتته بدینار) و (بدینار) العین والذین ، لأن الإنسان قد يأخذ غيره على التوبة وعلى المباينة وعلى لقارضة ويس في الآية ما يدل على التبين والمشول عن ابن عباس إنه حمله على المباينة . فقال منهم من يتابعه بشئ القنصر فيؤده إليك ومنهم من يتابعه بشئ الدينار فلا يؤده إليك ونقلنا أيضاً أن الآية نزلت في أن رجلاً أودع مالا كثيراً عند عبد الله بن سلام ، ومالا قليلاً عند فحاص من عازور ، فخان هذا اليهودي في التقليل ، وعبد الله بن سلام أدى الأمانة ، فثبت أن اللفظ محتمل لكل الأقسام .

ثم قال تعالى (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا آية) والمعنى إن ذلك الإمتحان والخيانة هو سبب أنهم يقولون ليس علينا آية أصلاً من أموال العرب سبيل . وهما مسائل .

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكرنا في السبب الذي لأجله اعتنق اليهود هذا الإمتحان وجوهاً (الأول) أنهم مبطلون في التحصن لذنبهم ، فلا جرم يقولون : بجل قتل المحالف وبجل أخذ ماله بأي ضرب كان وروی في الخبر أنه ما نزلت هذه الآية قال عليه السلام : كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي ، إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى السر والفحشاء (الثاني) أن اليهود قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه (والحق لنا عبيد فلا سبيل لأحد علينا إذ

أكلنا أموال عبيدنا (الثالث) أن اليهود إنما ذكروا هذا الكلام لا مطلقاً لكل من خالفهم - بل للعرب الذين آمنوا بالرسول ﷺ ، روى أن اليهود بايعوا رجلاً في بغاهلية فلما أسلموا ضلّوهم بالأموال فقالوا : ليس لك علينا حتى لأنكم تركتم دينكم ، وأقول : من المحتمل أنه كان من مذهب لليهود أن من انتقل من دين باطل إلى دين آخر باطل كان في حكم المرتد ، فهم وإن اعتقدوا أن العرب كفار إلا أنهم لما اعتقدوا في الإسلام أنه كفر حكموا على العرب الذين أسلموا بالردة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ نفى السبيل المراد منه نفى القدرة على الخطأ والالتزام ، قال تعالى (ما على المحسنين من سبيل) وقال (ولن يجعل الله للكفر من على المؤمنين سبيلاً) وقال (ومن نصر بعد ظلمه فلأنك ما عليهم من سبيل إنما السبيل على الذين يظلمون أنفسهم) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ (الأمي) متصوب إلى الأم ، وسمى النبي ﷺ أمياً قبل أن كان لا يكتب وذلك لأن الأم أصل النبي ، فمن لا يكتب فقد بقى على أصله في أن لا يكتب ، وفيل - نسب إلى مكة وهي أم القرى .

ثم قال تعالى (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) وفيه وجوه (الأول) أنهم قالوا : إن جواز الخيانة مع المحالف المذكور في التوراة وكانوا كاذبين في ذلك وعالين بكرههم كاذبين فيه ومن كان كذلك كانت حياته أعظم وجرمه أفحش (الثاني) أنهم يعلمون كون الخيانة محرمة (الثالث) أنهم يعلمون ما على أحداث أن الإيمان .

ثم قال تعالى (بل من أولي بعدهم وأنفس فان الله يحب المتقين) .

أعلم أن في (بل) وجهان (أحدهما) أنه مجرد نفى ما قبله - وهو قوله (ليس عليه في المؤمنين سبيل) فقال الله تعالى وأول عليهم (بل) عبيد سبيل في ذلك وهذا اختيار الزجاج ، قال : وعبدى وقف التام على (أول) ويعده استئناف (ثانياً) أن كلمة (بل) كلمة تذكر ابتداء الكلام آخر يذكر بعده ، وذلك لأن قوله : ليس علينا فيما نفعل حجاج قائم مقام قوله نحن أحياء الله تعالى ، فذكر الله تعالى أن أهل الوفاء بالعهود والتقي هم الذين يحسبهم الله تعالى لا غيرهم ، وعلى هذا الوجه فإنه لا يحسب الوفاء على (بل) وقوله (من أولي بعدهم) معنى الكلام في معنى الوفاء بالعهود والضمير في (بعدهم) يجوز أن يعود على اسم (الله) في قوله (ويقولون على الله الكذب) ويجوز أن يعود على (من) لأن العهد مصدر فيضاف إلى المفعول وإلى الفاعل وهما مؤنلان :

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥٥﴾

﴿ السؤال الأول ﴾ يقتدر (أن) يكون الضمير عائداً إلى الفاعل وهو (من) فإنه يشمل أنه لو وقى أهل الكتاب بمهودهم وتركوا الخيانة ، فإنهم يكتسبون محبة الله تعالى .

(الجواب) الأمر كذلك ، فإنهم إذا أوفوا بالمهود أوفوا أول كل شيء بالعهد الأعظم ، وهو ما أخذ الله عليهم في كتابهم من الإيمان بمحمد ﷺ ، ولو أنفوا الله في ترك الخيانة ، لانتقوه في ترك الكذب على الله ، وفي ترك تحريف التوراة .

﴿ السؤال الثاني ﴾ أين الضمير الرابع من الجزء إلى (من) ؟ .

(الجواب) عموم المتن قام مقام رجوع الضمير .

واعلم أن هذه الآية دالة على تعظيم أمر الوفاء بالعهد ، وذلك لأن الطاعات محصورة في أمرين التعظيم لأمر الله ، والشفقة على خلق الله ، فالوفاء بالعهد مشتمل عليها معاً ، لأن ذلك سبب لمنفعة الخلق ، فهو شفقة على خلق الله ، ولما أمر الله به ، كان الوفاء به تعظيماً لأمر الله ، فثبت أن العبادة مشتملة على جميع أنواع الطاعات والوفاء بالعهد ، كما يمكن في حق الغير يمكن أيضاً في حق النفس لأن السواقي بعهد النفس هو الاتسي بالطاعات والتسارك للمحرمات ، لأن عند ذلك تغوز النفس بالثواب وتبعد عن العقاب .

قوله تعالى ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وإيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم ﴾ .

اعلم أن في تعلق هذه الآية بما قبلها وجوهاً (الأول) أنه تعالى لما وصف اليهود بالخيانة في أمثال الناس ، ثم من المعلوم أن الخيانة في أمثال الناس لا تنحصر إلا بالإيمان الكافية لا جرم ذكر عقيب تلك الآية هذه الآية المشتملة على وعيد من يقدم على الإيمان الكافية (الثاني) أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم (يقولون على الله الكذب وهم يعلمون) ولا شك أن عهد الله على كل مكلف أن لا يكذب على الله ولا يخون في دينه ، لا جرم ذكر هذا الوعيد عقيب ذلك (الثالث) أنه تعالى ذكر في الآية السابقة خيانتهم في أمثال الناس . ثم ذكر في هذه الآية خيانتهم في عهد الله

وخيانتهم في تعظيم اسمائه حين يحلفون بها كذباً ، ومن الناس من قال : هذه الآية ابتداء كلام مستثنى بنفسه في المنع عن الإيمان الكاذبة ، وذلك لأن اللفظ عام والروايات الكثيرة دللت على أنها إنما نزلت في أقوام أقدموا على الإيمان الكاذبة ، وإذا كان كذلك وجب اعتقاد كون هذا الوعيد عاماً في حق كل من يفعل هذا الفعل وبه غير مخصوص باليهود ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختلفت الروايات في سبب النزول ، فمنهم من خصها باليهود الذين شرح الله أحوالهم في الآيات المتقدمة ، ومنهم من خصها بغيرهم .

أما الأول ففيه وجهان (الأول) قال عكرمة إنها نزلت في أحوال اليهود ، كنسوا ما عهد الله إليهم في التوراة من أمر محمد ﷺ وكتبوا بأيديهم غيره وحلفوا بأنه من عند الله لئلا يفوتهم الرشا ، واحتج هؤلاء بقوله تعالى في سورة البقرة (وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم) (الثاني) أنها نزلت في ادعتهم أنه (ليس علينا في الأميين سبيل) كتبوا بأيديهم كتاباً في ذلك وحلفوا أنه من عند الله وهو قول الحسن .

﴿ وأما الاحتمال الثاني ﴾ ففيه وجه (الأول) أنها نزلت في الأشعث بن قيس ، وخص به في أرض ، اختصها إلى رسول الله ﷺ ، فقال للرجل : أقم بيتك ، فقال الرجل : ليس لي بيتة فقال للأشعث : فعليت اليمين ، فهم . الأشعث باليمين فأمر الله تعالى هذه الآية فتكمل الأشعث عن اليمين ورد الأرض إلى الخصم واعترف بالحق ، وهو قول ابن جرير (الثاني) قال مجاهد : نزلت في رجل حلف بميماء فجرة في تنقيع صنعته (الثالث) نزلت في عبدان وامريء القيس اختصها إلى الرسول ﷺ في أرض ، فتوجه اليمين على امرئ القيس ، فقال : أحظرتني إلى الغد ، ثم جاء من أخذ وامرأله بالأرض ، والأقرب الحمل على لكل .

فقوله (إن الذين يسترؤن بأيمانهم) يدخل فيه جميع ما أمر الله به ويدخل فيه ما نصب عليه الأدلة ويدخل فيه المواثيق المأخوذة من جهة الرسول ، ويدخل فيه ما يلزم الرجل نفسه ، لأن كل ذلك من عهد الله النبي يلزم الوفاء به .

قال تعالى (ومنهم من عاهد الله نكاحاً من فضله لتعدن) الآية وقال (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً) وقال (يوفون بالعهد) وقال (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) وقد ذكرنا في سورة البقرة معنى لشراء ، وذلك لأن المشتري يأخذ شيئاً ويعطي شيئاً فكل واحد من المعطى والمأخوذ ثمن للآخر ، وأما الإيمان فحادث معلوم وهي الحلف انني يؤكد بها الإنسان خيره من وعد ، أو وعيد ، أو إنكار ، أو إثبات .

ثم قال تعالى (أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب اليم) وأعلم أنه تعالى فرع على ذلك الشرط وهو الشراء بمعهد الله والأيمان نعمناً قليلاً ، خمسة أنواع من أجزاء أربعة منها في بيان صيرونهم عرّومين عن الثواب (والخمسة) في بيان وقوعهم في أشد العذاب ، أما المنع من الثواب فاعلم أن الثواب عبارة عن المنفعة الخالصة المخرّوة بالتعظيم .

﴿ فالأول ﴾ وهو قوله (أولئك لا خلاق لهم في الآخرة) إشارة إلى حرمانهم عن منافع الآخرة

﴿ وأما الثلاثة البقية ﴾ وهي قوله (ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكّيهم) فهو إشارة إلى حرمانهم عن التعظيم والإعزاز .

﴿ وأما الخامس ﴾ وهو قوله (ولهم عذاب اليم) فهو إشارة إلى العقاب ، ولما نهت لهذا الترتيب فلتكلم في شرح كل واحد من هذه الخمسة :

(أما الأول) وهو قوله (لا خلاق لهم في الآخرة) فالتعنى لا نصيب لهم في خير الآخرة ونعيمها وأعلم أن هذا العموم مشروط بإجماع الأمة بعدم التوبة ، فلهذا إن تاب عنها سقط الوعيد بالإجماع وعمل مذهبا مشروطاً أيضاً بعدم العفو فانه تعالى قال (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) .

(وأما الثاني) وهو قوله (ولا يكلمهم الله) ففيه سؤال ، وهو أنه تعالى قال (فلو ربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) وقال (فلننسلن الذين أرسل إليهم ولننسلن المسلمين) فكيف أجمع بين هاتين الآيتين ، وبين تلك الآية ؟ قال الفقهاء في الجواب : المقصود من كل هذه الكلمات بيان شدة سخط الله عليهم ، لأن من منع غيره كلامه في الدنيا ، فانما ذلك بسخط الله عليه وإذا سخط إنسان على آخر ، قال له لا أكلمك ، وقد يأمر بحجبه عنه ويقول لا أرى وجهه فلان ، وإذا جرى ذكره لم يذكره بالجميل فثبت أن هذه الكلمات كنايةات عن شدة الغضب نعوذ بالله منه . وهذا هو الجواب الصحيح ، ومنهم من قال : لا بعد أن يكون سماع الله جل جلاله أولياده كلامه بغير مفسر شرعياً عالياً يختص به أولياده ، ولا يكتم هؤلاء الكفرة والفساق ، وتكون المحاسبة معهم بكلام الملائكة ومنهم من قال . معنى هذه الآية أنه تعالى لا يكلمهم بكلام يسرههم ويقصمهم والمعتد هو الجواب الأول .

(وأما الثالث) وهو قوله تعالى (ولا ينظر إليهم) فالمراد أنه لا ينظر إليهم بالإحسان ، يقال فلان لا ينظر إلى فلان ، والمراد به نفي الاعتداد به وترك الإحسان إليه ، والسبب لهذا

وَأَنَّ مِنْهُمْ لَفِرْقًا يَكُونُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ
وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴿١١٧﴾

المجاز أن من اعتد بالإنسان التفت إليه وأعاد نظره إليه مرة بعد أخرى ، فلهذا السبب صار
نظر الله عبارة عن الاعتداد والإحسان ، وإن لم يكن ثم نظر ، ولا يجوز أن يكون المراد من
هذا النظر الرؤية ، لأنه تعالى إبراهيم كما يرى غيرهم ، ولا يجوز أن يكون المراد من النظر
تقليب الخدقة إلى جانب الرئي التماساً لرؤيته لأن هذا من صفات الأجسام ، وتعالى إلهاً عن أن
يكون جسماً ، وقد احتج المخالف بهذه الآية على أن النظر المقرون بحرف (إلى) ليس للرؤية
والإلزام في هذه الآية أن لا يكون الله تعالى رانياً لهم وذلك باطل .

(وأما الرابع) وهو قوله (ولا يزكيهم) ففيه وجوه (الأولى) أن لا يظهرهم من دنس
ذنوبهم بالغفران بل بمعهم عنها (والثاني) لا يزكيهم أي لا يثنى عليهم كما يثنى على أوليائه
الأزكيا وتزكية من الزكى للشاهد مدح منه له .

واعلم أن تزكية الله عباده قد تكون على السنة الملائكة كما قال (والملائكة يدخلون
عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) وقال (وتطافهم الملائكة هذا
يومكم الذي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة) وقد نكون بخير
واسطة ، أما في الدنيا فكقوله (انتابون العابدون) وأما في الآخرة فكقوله (سلام نقولا من
رب رحيم) .

(وأما الخامس) وهو قوله (ولهم عذاب أليم) فاعلم أنه تعالى لما بين حرماتهم من
الثواب بين كونهم في العقاب الشديد المؤلم .

قوله تعالى ﴿ وإن منهم لفرقة بلعون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من
الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ .
اعلم أن هذه الآية تدل على أن الآية المتقدمة نازلة في اليهود بلا شك لأن هذه الآية نازلة
في حق اليهود وهي معطوفة على ما قبلها فهذا يقتضي كون تلك الآية المتقدمة نازلة في اليهود
أيضاً . واعلم أن (التي) عبارة عن عطف الشيء ورده عن الاستقامة إلى الاعوجاج ، يقال :

لويت يله ، والتوى الشيء إذا تحرف والتوى فلان على إذا غير أخلاقه عن الاستواء إلى ضلعه ، ولوى لسانه عن كذا إذا غيره ، ولوى فلاناً عن رآه إذا أماله عنه ، وفي الحديث دلى الواحد ظنهم وقال تعالى (وراعنا لئأ بالسهم وطعنا في الدين) .

إذا عرفت هذا الأصل ففسر تأويل الآية وجوه (الأول) قال الفضال رحمه الله قوله (يلون السهم) معناه وأن يعددوا إلى اللفظة فيحرفونها في حركات الإعراب تحريفاً يشغره المعنى ، وهذا كثير في لسان العرب فلا يعدد مثله في العبرانية ، فلما فعلوا مثل ذلك في الآيات الدالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام من التوراة كان ذلك هو المراد من قوله تعالى (يلون السهم) وهذا تأويل في غاية الحسن (الثاني) نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : إن أنكر المذنب لا يكلمهم الله القيامة ولا ينظر إليهم كتبوا كتباً شوشوا فيه نعت محمد ﷺ وخلطوه بالكتاب الذي كان فيه نعت محمد ﷺ ثم قالوا (هذا من عند الله) .

إذا عرفت هذا فنقول : إن في اللسان تننية بالتشديق والتنطيع والتكلف وذلك مضموم فحبر الله تعالى عن قراءتهم لذلك الكتاب الباطل بل اللسان ذماً لهم وعيباً ولم يعبر عنها بالقراءة ، والتحريف تفرق بين الفاظ المدح والذم في الشيء الواحد ، فيقولون في المدح : خطيب مصقع ، وفي الذم : مكثار ثرثار .

قوله (وإن منهم لغيرياً يلون السهم بالكتاب) المراد قراءة ذلك الكتاب الباطل ، وهو الذي ذكره الله تعالى في قوله (قويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله) ثم قال (وما هو من الكتاب) أي وما هو الكتاب الحق المنزل من عند الله ، بقى ههنا سزالات :

❖ السؤال الأول ❖ إلى ما يرجع الضمير في قوله (لتحبوه) ؟ .

(الجواب) إلى ما دل عليه قوله (يلون السهم) وهو انحراف .

❖ السؤال الثاني ❖ كيف يمكن إدخال التحريف في التوراة مع شهرتها العظيمة بين الناس ؟ .

(الجواب) قلعه صدر هذا العمل عن نفر قليل ، يجوز عليهم التواطؤ على التحريف ، ثم رتبهم عرضوا ذلك انحراف على بعض المرام وعلى هذا التدبير يكون هذا التحريف ممكناً ، والأصوب عندي في تفسير الآية وجه آخر وهو أن الآيات الدالة على نبوة محمد ﷺ كان يحتاج فيها إلى تدقيق النظر وتأمل القلب ، والقوم كانوا يوردون عليها الأسئلة المشوشة والاعتراضات

المظلمة فكذلك تصير تلك الدلائل مشتبهة على السامعين ، واليهود كانوا يقولون : مراد الله من هذه الآيات ما ذكرناه لا ما ذكرتم ، فكان هذا هو المراد بالتحريف وبلى الألسنة وهذا غل ما أن الحق في زماننا إذا استدلل بأية من كتاب الله تعالى ، فالباطل يورد عليه الأسئلة والشبهات ويقول : ليس مراد الله ما ذكرت ، فكذلك في هذه الصورة .

ثم قال تعالى (ويقولون هو من عند الله) وأعلم أن من الناس من قال : إنه لا ترق بين قوله (استحسوه من الكتاب وما هو من الكتاب) وبين قوله (ويقولون هو من عند الله) وما هو من عند الله (وكرر هذا الكلام بلفظين مختلفين لأجل التأكيد ، أما المحققون فقالوا : المغيرة حاصلة ، وذلك لأنه ليس كل ما لم يكن في الكتاب لم يكن من عند الله ، فإن الحكم الشرعي قد ثبت نازة بالكتاب ، وثلاثة بالسنة ، وثلاثة بالإجماع ، وثارة بالقينس والكل من عند الله .

قوله (استحسوه من الكتاب وما هو من الكتاب) هذا نفي خاص ، ثم عطف عليه النفي العام فقال (ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله) وايضاً يجوز أن يكون المراد من الكتاب التوراة ، ويكون المراد من قوله : هو من عند الله ، أنه موجود في كتب سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مثل أشعيا ، وأرميا ، وحزقي ، وذلك لأن لقوم في نسبة ذلك التحريف إلى الله كانوا متحيرين ، فإن وجدوا قرأوا من الأغوار والبيده الجاهلون بالتوراة نسبوا ذلك المتحرف إلى أنه من التوراة ، وإن وجدوا قرأوا عفاة أذكيا ، فعصوا أنه موجود في كتب سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين جنوا بعد موسى عليه السلام ، واحتج الجاهلي والكعبي به على أن فعل العبد غير مخلوق لله تعالى فقالوا : لو كان في اللسان بالتحريف والكذب خلقاً لله تعالى لصدق لليهود في قوله : إنه من عند الله ولزم الكذب في قوله تعالى : إنه ليس من عند الله . وذلك لأهم أضافوا إلى الله ما هو من عنده ، والله ينفي عن نفسه ما هو من عنده ، ثم قال : وكفى خزيًا لقوم يخفون يخفون اليهود أولى بالصلق من الله قال : ليس لأحد أن يقول المراد من قوله (استحسوه من الكتاب وما هو من الكتاب) وبين قوله (ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله) قرأ ، وإذا لم يبق انفرق ثم يحسن العطف ، وأجبت الكعبي عن هذا السؤال أيضاً من وجهين آخرين (الأول) أن كون المخلوق من عند الخالق أو كد من كون المأمور به من عند الأمر به ، وحمل الكلام على الوجه الأقوى أولى (والثاني) أن قوله (وما هو من عند الله) نفي مطلق لكونه من عند الله وهذا ينفي كونه من عند الله بوجه من الوجوه ، فوجب أن لا يكون من عنده لا بالخلق ولا بالحكم .

(وإجاب) أما قول الجاهلي لو حملنا قوله تعالى (ويقولون هو من عند الله) على أنه كلام الله لزم التكرار ، فجوابه ما ذكرناه أن قوله (وما هو من الكتاب) معناه أنه غير موجود في

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيُنَا عِمَّا كُنْتُمْ تُفْلِحُونَ الْكِتَابَ وَمِمَّا كُنْتُمْ تُدْرِسُونَ ﴿٥٥﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُتَّخَذُوا التَّمَلُّكَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا إِلَّا مَا مَرَّ بِكُمْ بِالْكَفَرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٦﴾

الكتاب وهذا لا يبيح من كونه حكم الله تعالى نابياً بقول الرسول أو بطريق آخر فلها قال (وما هو من عند الله) ثبت نفي كونه حكماً لله تعالى وعلى هذا الوجه زال التكرار .

﴿ وأما الوجه الأول ﴾ من الوجهين اللذين ذكرهما الكعبي فجوابه ، أن الجواب لابد وأن يكون منطبقاً على السؤال ، والفرد ما كانوا في دعاء أن ما ذكره وفعلوه خلق الله تعالى ، بل كانوا يدعون أنه حكم الله وبإذن في كتابه .

فوجب أن يكون قوله (وما هو من عند الله) عائد إلى هذا المعنى لا إلى غيره ، وبهذا الظرف يظهر صواب ما ذكره في الوجه الثاني والله أعلم

ثم قال تعالى (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) والمعنى أنهم يتعمدون ذلك الكذب مع العلم .

وأعمق منه إن كان المراد من التحريف تغيير الفاظ التوراة ، وإعراج ألفاظها ، فالمقدمون عليه يجب أن يكونوا طائفة بسيرة يجوز انتزاعها منهم على الكذب وإن كان المراد منه تشويش دلالة تلك الآيات على نبوة محمد ﷺ بسبب إلقاء الشكوك والشبهات في وجوه الاستدلالات ثم يبعد إطباق الحلل الكثير عليه والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوّة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربّانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدورون . ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيا أمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لا يبين أن عادة عباده أهل الكتاب التحريف والتبديل اتبعه بما يدل على أن من حمله ما حرفوه ما زعموا أن عيسى عليه السلام كان يدعي الإلهية ، وأنه كان يأمر قومه بعبادته فلها قال (ما كان لبشر) الآية . وهذه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في سبب نزول هذه الآية وحجوه (الأول) قال ابن عباس : لما قالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح بن الله نزلت هذه الآية (الثاني) قيل إن أبا رافع القرظي من اليهود ورنسي وفد نجران من النصارى قالاً لرسول الله ﷺ : أتريد أن نعبدك ونشذك رباً ، فقال عليه الصلاة والسلام : معاذ الله أن نعبد غير الله أو أن نأمر بغير عبادة الله مما يفلكم معني ؛ ولا بذلك أمرني . فنزلت هذه الآية (الثالث) قال رجل يا رسول الله سلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض ، أفلا نسجد لك ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : لا يبيح لأحد أن يسجد لأحد من دون الله ، ولكن أكرموا نبيكم واهتدوا بالحق لأهله . (الرابع) أن اليهود لما ادعوا أن أحداً لا ينال من درجات الفضل والمنزلة ما نالوه : فأنه تعالى قال هم : إن كان الأمر كما قلتم ، وجب أن لا نسلطوا باستعداد الناس واستعدادهم ولكن يجب أن نأمروا الناس بالطاعة لله والانقياد لتكاليقه وحيثما يلزمكم أن تخشوا الناس على الإقرار بنبوة محمد ﷺ ، لأن ظهور المحجزات عليه يوجب ذلك . وهذا الوجه مجتمعة لفظ الآية فإن قوله (ثم يقرب للبلس كونوا عباداً لي من دون الله) مثل قوله (اتخذوا أبنائهم أرباباً من دون الله) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتضوا في المراد بقوله (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول لنفسه كونوا عباداً لي من دون الله) على وجوه (الأول) قال الأصم : معناه : أنهم لو أرادوا أن يقولوا ذلك لمنهم الدليل عليه قوله تعالى (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأحدن منه باليمين) قال (لقد كنت تركز إليهم شيئاً قليلاً إذا لأذنتك ضعف الحياة وضعف المات) (الثاني) أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام موصوفون بصفات لا يحسن مع تلك الصفات ادعاء الألوهية والربوبية منها أن الله تعالى اتاهم الكتاب والوحي وهذا لا يكون إلا في النفوس الطاهرة والأرواح النقية ، كما قال الله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وقال (ولقد اخترناهم على علم على العالمين) وقال الله تعالى (انه يصطفي من الملائكة رسلاً مما من الناس) والنفس الطاهرة يمنع أن يصدر عنها هذه الدعوى ، ومنها أن إيتاء النبوة لا يكون إلا بعد كمال العلم وذلك لا يقع من هذه الدعوى ، وبالمجمل فلا نساك قوتان : نظرية وعممية ، وما لم تكن القوة النظرية كاملة بالعلوم والمعارف الحقيقية ولم تكن القوة العملية مطهرة عن الاختلاط بالذميمة لا تكون النفس مستعدة لقبول الوحي والنبوة ، وحصول المكملات في القوة النظرية والعممية يمنع من مثل هذا القول والاعتقاد ، (الثالث) أن الله تعالى لا يشرف عبده بالنبوة والرسالة إلا إذا علم منه أنه لا يقول مثل هذا الكلام (الرابع) أن الرسول ادعى أن يبلغ الأحكام عن الله تعالى ، وأصح عن صدقه في هذه الدعوى فنوا أمرهم بعبادة نفسه فحيثما

تبطل دلالة المعجزة على كونه مستغفاً ، وذلك عبر حاشي ، وأعلم أنه ليس المراد من قوله (ما كان نبياً) ذلك أنه يحرم عليه هذا الكلام لأن ذلك محرم على كل أحد ، وظاهر الآية يدل على أنه لا ، ثم يكفي له ذلك لأجل أن عدائهم الكتاب والحكم والسوة ، وأخيراً لو كان المراد منه التحريم لما كان ذلك تكديماً للتصاري في ادعائهم ذلك على المسيح عليه السلام لأن من ادعى من رجل فعلاً قيل ثم إن فلان لا يحمل به أن يفعل ذلك لم يكن تكديماً له فيها ادعى عليه وإن أراد في ادعائهم أن عصى عليه السلام فإن ضم : اتخذوني إلهاً من دون الله فلو أراد إذن ما قدمناه ، ونظيره قوله تعالى (ما كان الله أن يشق من ولد) على سبيل التنقي بذلك عن نفسه ، لا على وجه التحريم والخضوع ، وكذا قوله تعالى (ما كان لشي أن يغفل) والمراد الذي لا انتهى والله أعلم .

❖ المسألة الثالثة ❖ قوله (أن يؤتاه الله الكتاب والحكم والنبوة) إشارة إلى ثلاثة أشياء ذكرها على ترتيب في غاية الحسن ، وذلك لأن الكتاب السماوي يتزل أولاً ثم إنه يحصل في عقل النبي فهم ذلك ، الكتاب وإليه الإشارة بالحكم ، فإن أهل اللغة والتفسير اتفقوا على أن هذا الحكم هو العلم ، فإن تعالى (وثبتوه الحكم صيماً) يعني العلم والفهم ، ثم إذا حصل فهم الكتاب ، فحينئذ يبلغ ذلك إلى خلق وهو النبوة في أحسن هذا الترتيب .

ثم قال تعالى (ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله) وفيه مسألتان :

❖ المسألة الأولى ❖ القراء الطاهرة ، ثم يقول نصب اللام ، وروى عن أبي عمرو يرفعها ، أما نصب فعل تقدير : لا تجتمع التوبة وهذا القول ، والعامل فيه (أن) وهو معطوف عليه بمعنى ثم أن يقول وأما الرفع فعل الاستئناف .

❖ المسألة الثانية ❖ حكى الواحدي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله تعالى (كونوا عباداً لي) إنه لغة مربة يشولون للعبد عبداً .

ثم قال (ولكن كونوا ربانيين) وفيه مسألتان :

❖ المسألة الأولى ❖ في هذه الآية بضم ، والتقدير : ولكن يقول لهم كونوا ربانيين فخصم القول على حسب مذهب العرب في جواز الاختصار إذا كان في الكلام ما يدل عليه ، ونظيره قوله تعالى (وأما الذين أسودت وجوههم أكفروا بما كنتم) أي يقال هم ذلك

❖ المسألة الثانية ❖ ذكروا في تفسير (الرباني) أقولاً (الأول) قال سيبويه : الرباني المنسوب إلى الرب ، بمعنى كونه غافياً به ، وموافقاً على طاعته ، كما يقال : رجل ربي إذا كان

مضياً على معرفة الإله وطاعته وزيادة الآلف والنول فيه للدلالة على كتمان هذه الصفة ، كما قالوا : شعرائي ولحياتي ورفيائي إذا وصف كثرة الشعر وطول اللحية وغلظ الرقبة . فإذا نسبوا إلى الشعر قالوا : شعري وإلى الرقبة رقبتي وإلى اللحية لحيتي (ولثاني) قال الميرد (الربانيون) أرباب العلم وأحدهم رباني ، وهو الذي يرب العلم ويرب الناس أي : يعلمهم ويصلحهم ويقوم بأمرهم ، فالآلف والنول ليعالفاً كما قالوا : ريان وعطشان وشبعث وعريانه ، ثم ضمت إليه ياء النسبة كما قيل : لحياتي ورفيائي قال الواحدي : جعل قول مسيويه المولفي : منسوب إلى الرب على معنى التخصص بمعرفة الرب ويطاعته ، وعلى قول الميرد (الرباني) مأخوذ من التريبة (الثالث) قال ابن زيد : الرباني ، هو الذي يرب الناس ، فالربانيون هم ولاة الأمة والعلماء ، وذكر هذا أيضاً في قوله تعالى (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار) أي الولاة والعلماء وهي الفرقتان المدان بطاعان ومعنى الآية على هذا التفسير : لا ادعوكم إلى أن تكونوا عبداً لي ، ولكن ادعوكم إلى أن تكونوا ملوكاً وعلماء باستماعكم أمر الله تعالى ومواظبتكم على طاعته ، قال القفال رحمه الله : ويحتمل أن يكون الواوي سمي ربانياً ، لأنه بطاع كثير تعالى ، فنسب إليه (الرابع) قال أبو عبيدة أحسب أن هذه التكملة ليست بحرية إنما هي هيرانية ، أو سريانية ، ومثواه كانت عربية أو عبرانية ، فهي تدل على الإنسان الذي عنده وعمل بما علم ، واشتغل بتعليم طرق الخير .

ثم قال تعالى (بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) وفيه مسائل :

❖ المسألة الأولى : في قوله (بما كنتم تعلمون الكتاب) فرائض (إحداها) (تعلمون) من العلم ، وهي قراءة عبد الله بن كثير ، وأبي عمرو ، ونافع (ولثانية) (تعلمون) من التعليم وهي قراءة الباقين من السبعة وكلاهما صواب ، لأنهم كانوا يعلمونه في أنفسهم ويعلمونه غيرهم ، واحتج أبو عمر وعلى أن قراءة أرواح بوجهين (الأول) أنه قال (تدرسون) ولم يقل (تدرسون) بالشديد (الثاني) أن التشديد بمعنى مفعول والمفعول ههنا واحد ، وأما الذين قرؤا بالشديد فزعموا أن المفعول الثاني محذوف تقديره : بما كنتم تعلمون الناس الكتاب ، أو غيركم الكتاب وحذف ، لأن المفعول به قد محذوف من الكلام كثيراً ، ثم احتجوا على أن التشديد أولى بوجهين (الأول) أن التعليم يشمل على العلم ولا ينكس فكان التعليم أولى (الثاني) أن الربانيين لا يكتفون بالعلم حتى يضمنوا إليه التعليم لله تعالى ألا ترى أنه تعالى أمر محمداً ﷺ بذلك فقال : (ادخ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) ويدل عليه قول مرة بن شرحبيل : كان علقمة من الربانيين الذين يعلمون الناس القرآن .

﴿ المسألة الثانية ﴾ نقل ابن جني في المحتسب ، عن أبي حيوة أنه قرأ (تفسرون) بضم ثمة ساكنة الدال مكسورة الراء ، قال ابن جني : ينبغي أن يكون هذا متخولاً من درس هو ، أو درس غيره ، وكذلك قرأ وأقرأ غيره ، وأكثر العرب على درس ودرس ، وتنبه جاء المصدر على التدريس .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ (ما) في الفرائدين ، هي التي بمعنى المصدر مع الفعل ، والتقدير : كونوا ربانيين بسبب كونكم عالمين ومعلمين وبسبب دراستكم الكتاب ، ومن هذا من كون (ما) مع الفعل بمعنى المصدر قوله تعالى (فالיום نساهم كما نسا ألقاء يومهم هذا) وحاصل الكلام أن العلم والتعليم والدراسة توجب على صاحبها كونه ربانياً والسبب لا محالة مغاير للمعصية ، فهذا يقتضي أن يكون كونه ربانياً ، أمراً معيارياً لكونه عالماً ، ومعلمياً ، ومواطئاً على الدراسة ، وما ذاك إلا أن يكون بحيث يكون تعلمه لله ، وتعليمه ودراسته لله ، وما خفلة أن يكون داعياً له إلى جميع الأفعال طلب مرضاة الله ، والصارف له عن كل الأفعال المحرمة عن عفاف الله ، وإذا ثبت أن الرسول يأمر جميع الخلق بهذا المعنى ثبت أنه يمتنع منه أن يأمر الخلق بمعصيته ، وحاصل الحرف شيء واحد ، وهو أن الرسول هو الذي يكون متبعاً في جهده وجده صرفاً ، الأرواح والقلوب عن التحول إلى الحق ، فمثل هذا الإنسان كيف يمكن أن يصرف عقول الخلق عن طاعة الحق إلى طاعة نفسه . وعبد هذا يظهر أنه يمتنع في أحد من الأنبياء صلوات الله عليهم أن يأمر غيره بمعادته .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ثبتت الآية على أن العلم والتعليم والدراسة توجب كون الإنسان ربانياً ، فمن استعمل بالتعليم والتعليم لا لهذا المقصود صانع سعيه وخطاب عمله وكان مثله من من غرس شجرة حسنة موفقة بمنظرها ولا منفعة بمشراها وهذا قال عليه الصلاة والسلام يعود بالله من علم لا ينفع وقلب لا يتخشع .

ثم قال تعالى (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ عاصم وحزمة واسي عامر (ولا يأمركم) بصيب الراء ، والياقوت بالرفع أما النصب فوجهه أن يكون عطف على (ثم يقول) وفيه وجهان (أحدهما) أن تحسن (لا) مرادها والمعنى : ما كان لبشر أن يؤمره الله بالكتاب والحكم والنبوة أن يقول الناس كونوا عباداً لي من دون الله وتأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، كما تقول : ما كان يريد أن أكرمهم ثم يهينني ويستخف بي (والثاني) أن تجعل (لا) غير مزيدة ، والمعنى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يهيئ قريشاً عن عبادة الملائكة ، واليهود والنصارى عن عبادة عزير والمسيح ، فلما قالوا : أتريد أن ننحذك رما ؟ قيل لهم : ما كان نشر أن يجعله الله سبباً ثم يأمر الناس بعبادة

وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ، وَتَتَّبِعُونَهُ ، قَالُوا أَتَقْرَرُكُمْ وَأَخْلَدُكُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ أَخْبَرَىٰ

نفسه وبناهم عن عبادة الملائكة والأنبياء ، وأما القراءة بالرفع على سبيل الاستئناف فظاهر لأنه بعد انقضاء الآية ونهاج الكلام ، وما يدل على الانقطاع عن الأول ما روى عن ابن مسعود أنه قرأ (ولن يأمركم) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الزجاج : ولا يأمركم الله ، وقال ابن جريج : لا يأمركم محمد ، وقيل : لا يأمركم الأنبياء بأن تحفظوا الملائكة أرباباً كما فعلته فريلس .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إذا خص الملائكة والنبين بالذكر لأن الذين وصفوا من أهل الكتاب بعبادة غير الله لم يحك عنهم إلا عبادة الملائكة وعبادة المسيح وعزير ، فلهذا المعنى حصها بالذكر .

ثم قال تعالى (أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الهزيمة في (أيأمركم) استفهام بمعنى الإنكار ، أي لا يفعل ذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال صاحب الكشف قوله (بعد إذ أنتم مسلمون) دليل على أن مخاطبين كانوا مسلمين وهم الذين استأذنوا الرسول ﷺ في أن يسجدوا له .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال الجبلي : الآية دالة على فساد قول من يقول : الكفر بالله هو الجهل به والإيمان بالله هو المعرفة به ، وذلك لأن الله تعالى حكيم يكفر هؤلاء ، وهو قوله تعالى (أمأمركم بالكفر) ثم إن هؤلاء كانوا عارفين بالله تعالى بدليل قول (ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله) وظاهر هذا يدل على معرفتهم بالله فلما حصل الكفر ههنا مع المعرفة بالله دل ذلك على أن الإيمان به ليس هو المعرفة والكفر به تعالى ليس هو الجهل به .

(والجواب) أن قولنا لكفر بالله هو الجهل به لا نعني به مجرد الجهل بكونه موجوداً بل نعني به الجهل بداره وصفاته السلبية وصفاته الإضافية أنه لا شريك له في العبودية ، فلما جهل هذا فقد جهل بعض صفاته .

قوله تعالى (وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول

قَالُوا أَفَرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٧﴾ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٨﴾

مصدق لما معكم لتؤمن به ولتنصروه قالوا أفروا وأخذتم على ذلك إصري إصرى قالوا أفروا قالوا فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ، فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴿٨٨﴾ .

اعلم أن المقصود من هذه الآيات تعديد تقرير الأشياء المعروفة عند أهل الكتاب بما يدل على نبوة محمد ﷺ قطعاً لعدوهم وإظهاراً للمنادمة ومن جملتها ما ذكره الله تعالى في هذه الآية وهو أنه تعالى أخذ الميثاق من الأنبياء الذين أتاهم الكتاب والحكمة بأنهم كلهم جاءهم رسول مصدق لما معهم امنوا به ونصروه ، وأخير أنهم قبلوا ذلك وحكم تعالى بأن من رجع عن ذلك كان من الفاسقين ، فهذا هو المقصود من الآية فحصر الكلام أنه تعالى أوجب على جميع الأنبياء الإيمان بكل رسول جاء مصدقاً لما معهم إلا أن هذه المقدمة الواحدة لا تكفي في إثبات نبوة محمد ﷺ ما لم يضم إليها مقدمة أخرى ، وهي أن محمداً رسول الله جاء مصدقاً لما معهم ، وعند هذا لفائل أن يقول : هذا إثبات للنبي بنفسه ، لأنه إثبات لكونه رسولاً بكونه رسولاً

(والجواب) أن المراد من كونه رسولاً ظهور المعجز عليه : وحينئذ يسقط هذا السؤال والله أعلم : ولنرجع إلى تفسير الألفاظ :

أما قوله (وإذ أخذ الله) فقال ابن جرير الطبري : معناه وأذكركم : يا أهل الكتاب إذ أخذ الله ميثاق السنين ، وقال الزجاج : وأذكر يا محمد في القرآن (إذ أخذ الله ميثاق النبيين)

أما قوله (ميثاق النبيين) فاعلم أن المصدر يجوز إضافته إلى الفاعل وإلى المفعول ، فيحتمل أن يكون الميثاق مأخوذاً منهم ، ويحتمل أن يكون مأخوذاً لهم من غيرهم ، فلهذا السبب اختلفوا في تفسير هذه الآية على هذين الوجهين .

﴿ أما الاحتمال الأول ﴾ وهو أنه تعالى أخذ الميثاق منهم في أن يصدق بعضهم بعضاً . وهذا قول سعيد بن جبير وإسحاق بن راهويي وحماد بن عمار ، وقيل : إن الميثاق هذا أخذ من محمد ﷺ وهو مروي عن علي وابن عباس وقتادة والسدي وصوان الله عليهم ، واحتج أصحاب هذا القول على صحته من وجوه (الأول) أن قوله تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين) يشعر

بأن أخذ الميثاق هو الله تعالى ، والمأخوذ منهم هم النبيون ، فليس في الآية ذكر الأمة ، فلم يحسن صرف الميثاق إلى الأمة ، ويمكن أن يحجب عنه من وجوه (الأول) أن على الوجوه التي فلتهم يكون الميثاق مضافاً إلى الموثق عليه ، وعلى الوجه الذي قلنا يكون إضافته إليهم إضافة الفعل إلى المفاعل ، وهو الموثق له ، ولا شك أن إضافة الفعل إلى المفاعل أقوى من إضافته إلى المفعول . فإن لم يكن فلا أقل من المساواة ، وهو كما يقال ميثاق الله وعهده ، فيكون التقدير : وإذا أخذ الله الميثاق الذي وثقه الله للأنبياء على أنفسهم (الثاني) أن يراد ميثاق أولاد النبيين ، وهم بنو إسرائيل على حذف المضاف وهو كما يقال : فعل بكر بن وائل كذا ، وفعل معد بن عدنان كذا ، والمراد أولادهم وقومهم ، فكذا ههنا (الثالث) أن يكون المراد من لفظ (النبي) أهل الكتاب وأطلق هذا اللفظ عليهم تكميلاً لهم على زعمهم لأنهم كانوا يقولون نحن أول ما نبوة من محمد عليه الصلاة والسلام أما أهل الكتاب ومنا كان النبيون (الرابع) أنه كثيراً ورد في القرآن لفظ النبي والمراد منه أمته قال تعالى (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء) .

﴿ المجعة الثغية ﴾ لأصحاب هذا القول : ما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال ولقد جئتكم بها بيضاء نقية أما والله لو كان موسى بن عمران حياً لما وسعه إلا أتباعي .

﴿ المجعة الثالثة ﴾ ما نقل عن علي رضي الله عنه أنه قال : إن الله تعالى ما بعث آدم عليه السلام ومن بعده من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلا أخذ عليهم العهد لئلا يبعث محمد عليه الصلاة والسلام وهو حي ليؤمن به وليتصرنه ، فهذا يمكن تفسيره هذا القول به والله أعلم .

﴿ الاحتجاج الثاني ﴾ إن المراد من الآية أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يأخذون ليثاق من أمهم بأنه إذا بعث محمد ﷺ فإنه يجب عليهم أن يؤموا به وأن يصبروه ، وهذا قول كثير من العلماء ، وقد بينا أنه اللفظ يحمل له وقد احتجوا على صحته بوجوه (الأول) ما ذكره أبو مسلم الأصفهاني فقال : ظاهر الآية يدل على أن الذين أخذ الله الميثاق منهم يجب عليهم الإيمان بمحمد ﷺ عند بعثته ، وكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يكتفون عند بعث محمد ﷺ من زمرة الأموات ، والميثاق لا يكون مكلفاً قليلاً كان الذين أخذ الميثاق عليهم يجب عليهم الإيمان بمحمد عليه السلام عند بعثته ولا يمكن إيجاب الإيمان على الأنبياء عند بعث محمد عليه السلام ، علمنا أن الذين أخذ الميثاق عليهم ليسوا هم النبيين بل هم أمم النبيين قال : وما يؤكد هذا أنه تعالى حكم على الذين أخذ عليهم ليثاق إنهم لو تولوا فكانوا فاسقين وهذا الرصف لا يليق بالأنبياء عليهم السلام وإنما يليق بالأمم ، أجاب المفضل رحمه الله فقال لم لا يجوز أن يكون المراد من الآية أن الأنبياء لو كانوا في الحياة لوجب عليهم الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام ، ونظيره قوله تعالى (لئن أشركت ليحبطن عملك) وقد علم الله تعالى أنه لا

يشرك فط ولكن خرج هذا الكلام على سبيل التقدير والفرض فكذا ههنا ، وقال (ولو تقول عليا بعض الأوائل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين) وقال في صفة الملائكة (ومن يقتل منهم إني إنه من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين) مع أنه تعالى أخبر عنهم بأنهم لا يسبقونه بالقول وأنهم يماثلون ربه من فوقهم ، فكل ذلك خرج على سبيل الفرض والتقدير فكذا ههنا ، ويقول إنه ساءهم فاسقين على تقدير التوبي فإن اسم الفسق ليس أقيع من اسم الشرك ، وقد ذكر تعالى ذلك على سبيل الفرض والتقدير في قوله (لمن أشرك ليطعنن عملك) فكذا ههنا .

﴿ الحجة الثانية ﴾ أن المقصود من هذه الآية أن يؤمن الذين كانوا في زمان الرسول ﷺ ، وإذا كان الميثاق عليهم كان ذلك أبلغ في تحصيل هذا المقصود من أن يكون مأخوذاً على الأنبياء عليهم السلام ، وقد أجيب عن ذلك بأن درجات الأنبياء عليهم السلام ، أعلى وأشرف من درجات الأمم ، فلذا دلت هذه الآية على أن الله تعالى أوجب على جميع الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد عليه السلام لو كانوا في الأحياء ، وأنهم لو تركوا ذلك لصاروا من زمرة الفاسقين فلأن يكون الإيمان بمحمد ﷺ واجباً على أمة لم تكن ذلك أول ، فكان صرف هذا الميثاق إلى الأنبياء أقوى في تحصيل المطلوب من هذا الوجه .

﴿ الحجة الثالثة ﴾ ما روى عن ابن عباس أنه قيل له إن أصحاب عبد الله يقرؤون (وإذا أخذ الله ميثاق الذين آمنوا الكتاب) ونحن نقرأ (وإذا أخذ الله ميثاق النبيين) فقال ابن عباس رضي الله عنهما : إنما أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم .

﴿ الحجة الرابعة ﴾ أن هذا الاحتمال متأكد بقوله تعالى (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم) ويقول تعالى (وإذا أخذ الله ميثاق الذين آمنوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه) فهذا جملة ما قيل في هذا الموضوع والله أعلم بمراده .

وأما قوله تعالى (لما أتيتكم من كتاب وحكمة) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ الجمهور (لما) بفتح اللام وقرأ حزة بكسر اللام وقرأ سعيد بن جبير (لما) مشددة ، أما القراءة بالفتح فلها وجهان (الأول) أن (ما) اسم موصول والذي بعده صلة نه وخبره قوله (لتؤمنن به) والتقدير : للذي أتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ، وعلى هذا التقدير (ما) رفع بالابتداء والراجع إلى لفظة (ما) وصلتها بحذوف والتقدير : لما أتيتكموه فحذف الراجع كما حذف من قوله (أخذنا

الذي بعث الله رسولا (وعليه السؤال :

﴿ السؤال الأول ﴾ إذا كانت (ما) موصولة لزم أن يرجع من الجملة المعطوفة على الصلة ذكر إلى الموصول وإلا لم يجوز ، ألا ترى أنك لو قلت : الذي قام أبوه ثم تطلق زيد لم يجوز .

وقوله (ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم) ليس فيه راجع إلى الموصول . قلنا : يجوز إقامة المظهر مقام المضمّر عنه الأخضض والدليل عليه قوله تعالى (إنه من ينق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) ولم يقل : فإن الله لا يضيع أجره ، وقال (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) ولم يقل : إنا لا نضيع أجرهم وذلك لأن المظهر المذكور قائم مقام المضمّر فكذا ههنا .

﴿ السؤال الثاني ﴾ ما فائدة اللام في قوله (لما) قلنا : هذه اللام هي لام الابتداء بمنزلة قولك : لزيد أفضل من عمرو ، ويحسن إدخالها على ما يجري مجرى القسم عليه لأن قوله (وإن أخذ الله ميثاق النبيين) بمنزلة القسم والمعنى استحقاقهم ، وهذه اللام المتبقية للقسم ، فهذا تقرير هذا الكلام .

﴿ الوجه الثاني ﴾ وهو اختيار سيبويه والملازمي والزجاج أن (ما) ههنا هي المتضمنة لمعنى الشرط والتقدير ما أتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ، فاللام في قوله (لتؤمنن به) هي المتبقية للقسم ، أما اللام في (لما) هي لام تحذف تارة ، وتذكر أخرى ، ولا يتفاوت المعنى وتطيره قولك : والله لو أن فعلت ، فعلت . فلننظف (أن) لا يتفاوت الحال بين ذكرها وحذفها فكذا ههنا ، وعلى هذا التقدير كانت (ما) في موضع نصب بأتيتكم (وجاءكم) جزم بالعطف على (أتيتكم) و (لتؤمنن به) هو الجزاء ، وإنما لم يرض سيبويه بالقول الأول لأنه لا يرى إقامة المظهر مقام المضمّر ، وأما الوجه في قراءة (لما) بكسر اللام فهو أن هذا لام التعليل كأنه قيل : أخذ ميثاقهم لهذا لأن من يؤمن الكتاب والحكمة فإن اختصاصه بهذه الفضيلة يوجب عليه تصديق سائر الأنبياء والرسل (وما) على هذه القراءة تكون موصولة وتغام البحث فيه ما قدمناه في الوجه الأول ، وأما قراءة (لما) بالتشديد فذكر صاحب الكشف فيه وجهين (الأول) أن المعنى : حين أتيتكم بعض الكتاب والحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق له ، وجب عليكم الإيمان به وتصديقه (والثاني) أن أصل (لما) لمن ما فاستثنوا اجتماع ثلاث معات ، وهي الميثاق والنون المتقلبة سبأ بإدغامها في الميم فحذفوا إحداها فصارت (لما) ومعناه : لمن أجل ما أتيتكم لتؤمنن به ، وهذا أقرب من قراءة حمزة في المعنى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ نافع (آتاكم) بالنون على التفتحيم ، والبقون بالناء على الترحيد ، حجة نافع قوله (وآتاكم رسولاً) (وآتاكم آتاكم صيباً) (وآتاكم الكتاب المستبين) ولأن هذا أتاك على العطفة فكان أكثر هيئة في قلب السامع . وهذا الموضح يلزمه هذا المعنى . وحجة الجمهور قوله (هو الذي ينزل على عبده آيات بيّنات) (و) لحسنه . الله الذي أنزل على عبده الكتاب . وأيضاً هذه القراءة أشبه بما في هذه الآية وما بعدها لأنه تعالى قال في هذه الآية (وإذا أخذ الله) وقاب بعدها (إصمري) وأجبت نافع عنه بأن أحد أبواب المفصلة تعبير العبارة من الواحد إلى الجمع ومن الجمع إلى الواحد قال تعالى (وجعلناه هدى لى إسرائيل ألا تتخذوا من دوني) ولم يقل من دون كما قال (وجعلناه) والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنه تعالى ذكر النبيين على سبيل المديحة ثم قال (آتاكم) وهو محاضنة إصمري والتضامير : وإذا أخذ الله ميثاق السيرة فقال محاضنة لم . آتاكم من كتاب وحكمة . والإصمري باب واسع في القرآن . ومن العلماء من التزم في هذه الآية إصمري أراح نفسه عن تلك التكررات التي حكيتها عن النحويين فقال تقصر الآية . وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لئلا ينقض ما آتاكم من كتاب وحكمة . قال إلا أنه حذف تخلفاً بدلالة الكلام عليه لأن لام القسم اعترض على الفعل فلما دلت هذه اللام على هذا الفعل لا جرم حذفه إحصاراً ثم قال تعالى بعده (ثم جاءكم رسول مصادف لما معكم) وهو محمدي (فآمن به وملتصقه) وعلى هذا التفسير يستقيم المقصود ولا يحتاج إلى تكليف تلك الصفات . وإذا كان لا بد من التزم الإصمري فهذا الإحصار الذي به ينتصف الكلام نظماً بناجياً أرى من تلك التكررات .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ في قوله (آتاكم) من كتاب إشكال . وهو أن هذا خطاب إما أن يكون مع الأشياء أومع الأمم . فإن كان مع الأشياء لجميع الأنبياء آتوا الكتاب ، وإنما آتوا بعضهم وإذا كان مع الأمم ، فالأشكال أظهر . وأجواب عنه من وجهين : (الأول) أن جميع الأشياء عليهم السلام آتوا الكتاب . تعني كونه مهتدياً داعياً إلى العمل به . وإذا ثم نزل عليه (والثاني) أن أشرف الأنبياء عليهم السلام هم الذين آتوا الكتاب ، فوصف الكل بوصف أشرف الأواج .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الكتاب هو المنزل انقروا واحكمة هي لوحى المراد بالشكيات فصلة التي لم يشتمل الكتاب عليها .

﴿ المسألة السادسة ﴾ كلمة (من) في قوله (من كتاب) دخلت تبييناً لما كقولك . ما عدي من الورق دافقان .

« ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم » ففهمه سؤالات :

❖ السؤال الأول : « ما وجه قوله (ثم جاءكم) والرسول لا يجيء إلى النبي وإنما يجيء إلى الأمم ؟ .

(والجواب) : إن حملك قوله (وإذا أخذ الله ميثاق النبي) على أخذ ميثاق الأمم فقد زال السؤال وإن حملناه على أخذ ميثاق النبي أنفسهم كان قوله (ثم جاءكم) أي جاء في زمانكم

❖ السؤال الثاني : كيف يكون عهد بين مصدق لما معكم مع مخالفة شرعه لشرعهم ، فإما : المراد به حصول الموافقة في التوحيد ، والنبوة ، وأصول الشرائع ، فأما تقاصيد ، وإن يقع الخلاف فيها ؛ فذلك في الحقيقة ليس بخلاف ، لأن جميع الأنبياء عليهم السلام متفقون على أن الحق في زمان موسى عليه السلام ليس إلا شرعه وأما الحق في زمان محمد ﷺ ليس إلا شرعه ، فهذا وإن كان يوهم خلاف ، إلا أنه في الحقيقة وفاق ، وأيضاً فالمراد من قوله (ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم) هو عهد بينه ، والمراد بكونه مصدقاً لما معكم هو أن وصفه وكنيته أحوله منكرة في التوراة والإنجيل ، مما ظهر على أحوال مطابقة لما كان ما كوراً في تلك الكتب ، كان نفس بعينه تصديقاً لما كان معكم ، فهذا هو المراد بكونه مصدقاً لما معكم .

❖ السؤال الثالث : حاصل الكلام أن الله تعالى أخذ الميثاق على جميع الأنبياء بأن يؤمنوا بكل رسول يأتيهم مصدقاً لما معكم فما معنى ذلك الميثاق .

(والجواب) : ينبغي أن يكون هذا الميثاق مأثور في عقولهم من الدلائل الدالة على أن لا مفيد لأمر الله واجب ، فإذا جاء الرسول فهو إما يكون رسولا عند ظهور المعجزات الدالة على صدقه فذا أخبرهم بعد ذلك أن الله أمر الخلق بالإيمان به عرفوه عند ذلك وجوبه ، فتقدير هذا الدليل في عقولهم هو المراد من أخذ الميثاق ، ويحتمل أن يكون المراد من أخذ الميثاق أنه تعالى شرح صدقه في كتب الأنبياء المتقدمين ، فإذا صارت أحوال مطابقة لما جاء في الكتب الإلهية المتقدمة وجب الانقياد له ، فعوله تعالى (ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم) يدل على هذين الوجهين ، أما على الوجه الأول ، فعوله (رسول) وأما على الوجه الثاني ، فعوله (مصدق لما معكم) .

أما قوله (لنؤمن به ونحضره) فالمعنى ظاهر ، وذلك لأنه تعالى أوجب الإيمان به أولاً ، ثم الاشتغال بصرته ثانياً ، واللام في (لنؤمن به) لام القسم ، كأنه قيل : والله لنؤمن به .

ثم قال تعالى (قَالُوا أَقْرَبُكُمْ وَأَحَدُكُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي) وفيه مسائل

﴿ المسألة الأولى ﴾ إن فسرنا قوله تعالى (وَإِنْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الْبَنِي) بأنه تعالى أخذ الميثاق على الأنبياء كان قوله تعالى (أَقْرَبُكُمْ) معناه : قال الله تعالى لنبيين (أَقْرَبُكُمْ) لا بمكانية وانتمزة له وإن فسرنا أخذ الميثاق بأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أخذوا الميثاق على الأمم كان معنى قوله (قَالُوا أَقْرَبُكُمْ) أي قال كل نبي لأمته أَقْرَبُكُمْ ، وذلك لأنه تعالى أضاف أخذ الميثاق إلى نفسه ، وإن كانت السبب أحدوه على الأمم ، فكذلك طلب هذا الإقرار أضافه إلى نفسه وإن وقع من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والمقصود أن الأنبياء مالمس في إثبات هذا المعنى وتأكيده ، فلم يقصروا على أخذ الميثاق على الأمم ، بل طابوهم بالإقرار بالقول ، وبأعدوا ذلك بالإشهاد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الإقرار في اللغة مفعول بألف من قر الشيء بقر ، إذا ثبت ولزم مكلفه وأقره غيره ، والقر بأشيء يفرضه على نفسه أي يثبت .

أما قوله تعالى (وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي) أي قبلتم عهدي ، والأخذ بمعنى التناول كثير في الكلام قال تعالى (وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَمَلٌ) أي يقبل منها فدية وقال (وَأَخَذَ الصَّدَقَاتِ) أي يقبلها والإصر هو الذي يلحق الإنسان لأجل ما يلزمه من عمل قال تعالى (وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْهِمْ إِصْرًا) فسمى العهد إصرًا لهذا المعنى ، قال صاحب الكشف : سمي للعهد إصرًا لأنه مما يؤصر أي يشد ويعقد ، ومنه الإصرار الذي يعقده وفريه (إصري) ويجوز أن يكون لغة في إصر .

ثم قال تعالى (قَالُوا أَقْرَبُكُمْ قَالُوا فَاشْهَدُوا وَأَنْ مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) وفي تفسير قوله (فاشهدوا) وجود (الأول) فليشهد بعضكم عن بعض بالإقرار ، وأنا على إقراركم وشهادتكم بعضاً (من الشاهدين) وهذا تأكيد عليهم وتحذير من الرجوع إذا علموا شهادة الله وشهادة بعضهم على بعض (الثاني) أن قوله (فاشهدوا) خطاب للملائكة (الثالث) أن قوله (فاشهدوا) أي ليجعل كل أحد نفسه شاهداً على نفسه وبغيره قوله (واشهدوه على أنفسهم ألفت ربكم قالوا بن شهداء) على أنفسنا وهذا من باب المبالغة (الرابع) (فاشهدوا) أي ببسب هذا الميثاق للخاص والعام ، لكي لا ينفي لأحد عذر في الجهل به ، وأما أن الشاهد هو الذي بين صدق الدعوى (الخامس) (فاشهدوا) أي فاستيقضوا ما فردته عليكم من هذا الميثاق ، وكونوا فيه كالشاهد للشيء المعين له (السادس) إذا قلنا إن أخذ الميثاق كان من الأمم فعليه (فاشهدوا) خطاب للأنبياء عليهم السلام بأن يكونوا شهوداً عليهم

وأما قوله تعالى (وَأَنْ مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) فهو للتأكيد وتقوية الإلزام ، وفيه فائدة

أَفْغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ

يَرْجِعُونَ ﴿١٢٢﴾

أخرى وهي أنه تعالى وإن أشهد غيره ، فنفس محتاجاً إلى ذلك الإشهد ، لأنه تعالى لا يخفى عليه خافية لكن لضرب من المصلحة لأنه سبحانه وتعالى يعلم السر وأخفى ، ثم أنه تعالى ضم إليه تأكيداً آخر فقال (فمن نوبى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) يعنى من أعرض عن الإيمان بهذا الرسول وبفصرته بعد ما تقدم من هذه الدلائل كان من الفاسقين ووعيد الفاسق معلوم ، وقوله (فمن نوبى بعد ذلك) هذا شرط ، والفعل الماضي يظلم مستغنى في الشرط والجزاء ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ﴾

اعلم أنه تعالى لما نزل في الآية الأولى أن الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام شرح شرعه الله وأوجبه على جميع من مضى من الأنبياء والأسماء ، لزم أن كل من كره ذلك فإنه يكون ظالماً ديناً عبر دين الله ، فلهذا قال بعده (أفغير دين الله يبغون) وفي الآية مسئلتان .

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حفص عن عاصم (يبغون) و (يرجعون) بالياء المنقطة من تحتها ، لوجهين (أحدهما) ودأخذ ، إلى قوله (وأولئك هم الفاسقون) (والثاني) أنه تعالى إنما ذكر حكاية أحد المشايخ حتى يبيّن أن اليهود والنصارى بلزمتهم الإيمان بمحمد ﷺ ، فما أصروا على كفرهم قال على جهة الاستنكار (أفغير دين الله يبغون) وقرأ أبو عمرو و (سغون) بانهاء خطايا اليهود وغيرهم من الكفار و (يرجعون) بالياء ليرجع إلى جميع المكلفين المذكورين في قوله (وله أسلم من في السموات والأرض) وقرأ النبطيون فيها بانهاء على الخطأ ، لأن ما قبله خطاب كثرة (أقررتم وأخذتم) ويقص فلا يبعد أن يقال للمسلم والكافر وكل أحد . أفغير دين الله تبغون مع علمكم بأنه أسلم له من في السموات والأرض ، وأن مرجعكم إليه وهو كقولهم (وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله)

﴿ المسألة الثانية ﴾ الغمرة للاستفهام والمراد استنكار أن يفعلوا ذلك أو تقرير أنهم يفعلونه ، وموضع الغمرة هو الغفلة (يبغون) تقديره : أيبغون غير دين الله ؟ لأن الاستفهام إنما يكون من الأفعال والحوادث ، إلا أنه تعالى قدم المفعول الذي هو (غير دين الله) على فعله ،

لأنه أهم من حيث أن الإنكار الذي هو معنى الهزيمة متوجه إلى المعبود الباطل وأما الغاء فلعلطف جملة على جملة وفيه وجهان (أحدهما) التقدير : فأولئك هم الفاسقون ، فغير دين الله يغررون .

واعلم أنه لو قيل أو غير دين الله يغررون جازر إلا أن في الغاء فائدة زائدة كأنه قيل : اقبعد أخذ هذا الميثاق المؤكد بهذه التأكيدات البليغة تبخون؟ .

في المسألة الثالثة * روى أن فريقين من أهل الكتاب اختصموا إلى الرسول ﷺ فيها اختلفوا فيه من دين إبراهيم عليه السلام ، وكل واحد من الفريقين ادعى أنه أول به ، فقال عليه الصلاة والسلام : كلا الفريقين برىء من دين إبراهيم عليه السلام ، فظالموا : ما ترضى بفضائلك ولا تأخذ بدينك فنزلت هذه الآية ، وبعد عندي حمل هذه الآية على هذا السبب لأن على هذا التقدير تكون هذه الآية منقطعة عما قبلها ، والاستمهام على سبيل الإنكار يقتضي تعلفها بما قبلها ، فالوجه في الآية أن هذا الميثاق لما كان مذكوراً في كتبهم وهم كانوا عارفين بذلك ففد كانوا محالين بصدق محمد ﷺ في النبوة فلم يبق لكفرهم سبب إلا مجرد العداوة والحسد فصاروا كإبليس الذي دعاه الحسد إلى الكفر ، فاعلمهم الله تعالى أنهم متى كانوا طائفة دينا عبر دين الله ، ومعبوداً سوى الله سبحانه ، ثم بين أن الثمود على الله تعالى والأعراس عن حكمه مما لا يليق بالملك قال (وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه ترجعون) وفيه مسألتان :

في المسألة الأولى * الإسلام ، هو الاستسلام والانقياد والخضوع .

إذا عرفت هذا ففي خضوع كل من في السموات والأرض لله وجوه (الأول) وهو الأصح عندي أن كل ما سوى الله سبحانه يمكن لذاته وكل ممكن لذاته فإنه لا يوجد إلا بإيجاده ولا يعدم إلا باعدائه فإنه كل ما سوى الله فهو مفقود خاضع لجلال الله في طرقي وجوده وعلمه ، وهذا هو نهاية الانقياد والخضوع ، ثم إن في هذا الوجه لطيفة أخرى وهي أن قوله (وله أسلم) يقيد الحصر أي وله أسلم كل من في السموات والأرض لا لغيره ، فهذه الآية تقيد أن واجب الوجود واحد وأن كل ما سواه فإنه لا يوجد إلا بتكوينه ولا ينفى إلا بإقامته سواء كان عقلاً أو نفساً أو روحاً أو جسماً أو جوهرًا أو عرضاً أو فاعلاً أو فعلاً ، ونظير هذه الآية في الدلالة على هذا المعنى قوله تعالى (والله يسجد من في السموات والأرض) وقوله (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) .

في الترجمة الثاني * في تفسير هذه الآية أنه لا سبيل لأحد إلى الامتناع عليه في مراده ،

قُلْ بِنَامَتِ اللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِخْتِصَابُ وَيَقُوبُ
وَالْأَسْبَاطُ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تَفْرُقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ
لَهُمْ مَلَكُوتٌ ﴿١٢٢﴾

وإذا أنزلوا عليه طوعاً أو كرهاً ، فالمسلمون انصاحون بتفويض طوعاً فيها يتعلّق بالدين ،
ويتفادون له كرهاً فيما يخالف مصالحهم من المرض والنفس والموت وأشياء ذلك ، وأما الكافرون
فهم يتفادون الله تعالى عن كل حال كرهاً لأنهم لا يتفادون فيما يتعلّق بالدين ، وفي غير ذلك
مستفسون له سبحانه كرهاً ، لأنه لا يمكنهم دفع فضائه وقدره (الثالث) أسم المسلمون
طوعاً ، والكافرون عند موتهم كرهاً لقوله تعالى (فلم يك ينفعهميمانهم لما رأوا مناصاً)
(الزمر) أن كل الخلق متفادون لإلهيته طوعاً بدليل قوله تعالى (ولئن سألتهم من خلق
السموات والأرض ليقولن الله) ومتفادون لتكاليفه وعباده للألام كرهاً (الحاسن) أن أعياد
الكل إنما حصل وقت أحد الميثاق وهو قوله تعالى (وإذا أخذ ربك من سي آدم من ظهورهم
ذرياتهم وشهدهم على أنفسهم أنت ربكم قالوا بلى) (السادس) قال الحسن : الطوع
لأهل السموات حصّة ، وأما أهل الأرض فيحصلهم بالطوع وبغضهم بالكره ، ويقولون : إنه
سبحانه ذكر في تخليق السموات والأرض هذا وهو قوله : فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً
فأتتا أتينا طائعين) وفيه سرار عجيبة

لما قوله (وإليه ترجعون) فإمراد أن من خالفه في العمل فيسبكون مرجعه إليه ، والمراد
إلى حيث لا يملك الفرض والرفع سواء هذا وعيد عظيم لمن خالف الدين الحق .

المسألة الثانية * قال أبو حنيفة رحمه الله : الطوع الانقياد ، يقال : طاعه بطوعه
طوعاً إذا انقاد له ونضجه ، وإذا معنى الأمر فقد أطاعه ، وإذا ونقه فقد طوعه ، قال ابن
السكيت : يقال طاع له وأطاع ، فنصب طوعاً وكرهاً على أنه مصدر وقع موقع المثنى ،
وتعديره طائفاً وكرهاً ، كنولك أنتي واكتفاً ، ولا يجوز أن يقال : أنتي كلاماً أي متكتفاً ،
لأن الكلام ليس بضرب اللاتين والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ قُلْ بِنَامَتِ اللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِخْتِصَابُ وَيَقُوبُ
وَالْأَسْبَاطُ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تَفْرُقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ
لَهُمْ مَلَكُوتٌ ۖ ﴾

اعلم أنه تعالى ما ذكر في الآية المقدمة أنه إنما أحد الميثاق على الأبياء في تفويض

نرسول الذي يأتي مصدق لما معهم بين في هذه الآية أن من صدقة محمد ﷺ كونه مصدقاً لما معهم فقال (قل آمنا بالله) إلى أسر الآية وههنا مسائل :

١ المسألة الأولى في وحد الضمير في (قل) وجمع في (آمنا) وفيه وجوه : (الأول) إنه تعالى حين خاطبه ، إنما خاطبه بلفظ الوجدان ، وعلمه إنه حين يخاطب القوم يخاطبهم بلفظ الجمع على وجه التعظيم والتخصيم ، مثل ما يتكلم الملوك والعظماء (والثاني) أنه خاطبه أولاً بخطاب الوجدان ليندل هذا الكلام على أنه لا يبلغ هذا التكليف من الله إلى الخلق إلا هو ، ثم قال (آمنا) تنبيهاً عن أنه حين يقول هذا القول فإن أصحابه يوافقونه عليه (الثالث) إنه تعالى عنه في هذا التكليف بقوله (قل) يظهر به كونه مصدقاً لما معهم ثم قال (آمنا) تنبيهاً على أن هذا التكليف ليس من خواصه بل هو لازم لكل المؤمنين كما قال (والمؤمنين كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله) .

٢ المسألة الثانية في قدم الإيمان بالله على الإيمان بالأنبياء ، لأن الإيمان بالله أصل الإيمان بالنبوة ، وفي المرتبة الثانية ذكر الإيمان بما أنزل عليه ، لأن كتب سائر الأنبياء حرموها وبدكوها فلا سبيل إلى معرفة أحوالها إلا بما أنزله الله على محمد ﷺ ، فكان ما أنزل على محمد كالأصل لما أنزل على سائر الأنبياء ، فلهذا تقدم عليه ، وفي المرتبة الثالثة ذكر بعض الأنبياء وهم الأنبياء الذين يعترف أهل الكتاب بوجودهم ، ويؤمنون في نبوتهم (والأسباط) هم أسباط يعقوب عليه السلام الذين ذكر الله أنهم اثني عشر في سورة الأعراف ، وإنما أوجب الله تعالى الإقرار بنبوة كل الأنبياء عليهم للسلام لغوائد (أحداها) ثبت كونه عليه السلام مصدقاً لجميع الأنبياء ، لأن هذا الشرط كان معتبراً في أخذ الميثاق (وثانيها) التنبيه على أن مذاهب أهل الكتاب متناقضة ، وذلك لأنهم إنما يصدقون النبي الذي يصدقونه فكان ظهور المعجزة عليه ، وهذا يقتضي أن كل من ظهرت المعجزة عليه كان نبياً ، وعلى هذا يكون تخصيص البعض بالتصديق والبعض بالكذب متناقضاً ، بل الحق تصديق الكل والاعتراف بنبوة الكل (وثالثها) إنه قال قبل هذه الآية (اغفر ديس الله يهون وله أسلم من في السموات والأرض) وهذا تنبيه على أن إصرارهم على تكذيب بعض الأنبياء إصرار عن دين الله ومنازعة مع الله ، فههنا أظهر الإيمان بنبوة جميع الأنبياء ، لينزول عنه وعن أمته ما وصف أهل الكتاب به من منازعة الله في الحكم والتكليف (ورابعها) أن في الآية الأولى ذكر أنه أخذ الميثاق على جميع النبيين ، أن يؤمنوا بكل الرسل من أتى بعدهم من الرسل ، وههنا أخذ الميثاق على محمد ﷺ بأن يؤمن بكل من أتى قبله من الرسل ، ولم يأخذ عليه الميثاق لمن يأتي بعده من الرسل ، فكانت هذه الآية دالة من هذا الوجه على أنه لا تنبي بعده البتة ، فإن قيل : لم عدي (أنزل) في هذه الآية بحرف الاستعلاء ، وفيها

نقدم من مثلهما حرف الانتهاء ؟ قلنا : لوجود المعنيين جميعاً . لأن الوحي ينزل من فوق ويستهي إلى الرسل ، فعلى تارة بأحد المعنيين وأخرى بالأخر ، وقيل أيضاً إنما قيل (عليهما) في حق الرسول . لأن الوحي ينزل عليه (وإليهما) في حق الأمة لأن الوحي بأنبيهم من الرسول على وجه الانتهاء وهذا تصحيح ، الا ترى إلى قوله (وما أنزل إليك) (وأنزل إليك الكتاب) وروى قوله (آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا)

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلف العلماء في أن الإيمان هؤلاء لانبياء الذين تقدموا ونسحت شرائعهم كيف يكون ؟ وحقيقة الخلاف ، أن شرع ما صار مرسوماً ، فهل يصير بيوتة منسوخة ؟ فمن قد أتى بها تصحيح منسوخة قال : يؤمن أنهم كانوا أنبياء ورسلاً ، ولا يؤمن بأنهم الآن أنبياء ورسلاً ، ومن ذلك إن نسخ الشريعة لا يقتضي نسخ النبوة قال : يؤمن أنهم أنبياء ورسلاً في الحال فلهذا الموضع

﴿ مسألة الرابعة ﴾ قوله (لا يفرق بين أحد منهم) فيه وجوه (الأول) قال الأصم : التفرق قد يكون تنقيص البعض على البعض ، وقد يكون لأجل الفرق بينهم ما كانوا على سبيل واحد في الطاعة لله والمرد من هذا الوجه يعني : نفر بأنهم كانوا بأسرهم على دين واحد في الدعوة إلى الله وفي الانقياد لتكليف الله (الثاني) قال بعضهم المراد (لا يفرق بين أحد منهم) بأن يؤمن ببعض دون بعض كما نفرت اليهود والنصارى (الثالث) قال أبو مسلم (لا يفرق بين أحد منهم) أي لا يفرق ما أجمعوا عليه . وهو كقوله (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) ودم قولاً وصفهم بالتفرق فقال (لقد تقطع بينكم وخص عنكم ما كنتم توعون) .

أما قوله (ونحن له مسلمون) فيه وجوه (الأول) إن بقراينا بيوتة هؤلاء لانبياء إنما كان لأجل كوننا مع دين الله تعالى مستسلمين لحكمه وأمره ، وفيه تنبيه على أن حاله على خلاف الدين خاصهم الله بقوله (فغير دين الله يعنون وله أسلم من في السموات والأرض) (والثاني) قال أبو مسلم (ونحن له مسلمون) أي مستسلمون لأمر الله بالرضا وترك المخالفة وتلك صفة المؤمنين بالله وهم أهل الصلوة والكثرة ويوصفون بالمحاربة لله كما قال (إن جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) (الثالث) أن قوله (ونحن له مسلمون) يفيد الحصر والتفدير له أسلمنا لا لغرض آخر من سمعة ورياء وطلب مال ، وهذا تنبيه على أن جاهلهم بالنصد من ذلك فاهم لا يهملون ولا يقولون إلا للسمعة والرياء وطلب الأموال والله أعلم .

وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٦﴾
 كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ
 الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ أَوَلَيْكَ جَزَاءُهمُ أَنْ عَلَّمَهُمُ اللَّهُ
 وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٩﴾

﴿٨٩﴾

قوله تعالى ﴿ ومن يتبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ .

نعلم أنه تعالى لما قال في آخر الآية المقدمة (ونحن له مسلمون) أتبعه ما نرى في هذه الآية أن الدين ليس إلا الإسلام ، وأن كل دين سوى الإسلام فانه غير مقبول عند الله ، لأن المقبول للعمل هو أن يرضي الله ذلك العمل ، ويرضي عن فاعله وشبهه عب ، ولذلك قال تعالى (إذا تقبل الله من المؤمنين) ثم بين تعالى أن كل من له دين سوى الإسلام فكما أنه لا يكون مقبولا عند الله ، فكذلك يكون من الخاسرين ، والخسار في الآخرة يكون بحرمان النوات ، وحصول العقاب ، ويدخل فيه ما يلحقه من التأسف والتحسر على ما فعله في الدنيا من العمل الصالح وعلى ما غطله من التعب والمشقة في الدنيا في تقريره ذلك الدين الباطل واعلم أن ظاهر هذه الآية يدل على أن الإيمان هو الإسلام إذ لو كان الإيمان غير الإسلام لوجب أن لا يكون الإيمان مصولا لموله تعالى (ومن يتبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) لا أن ظاهر قوله تعالى (قالت الأعراب أمّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) يقتضي كون الإسلام مفاداً للإيمان ووجه التوفيق بينهما أن تحمل الآية الأولى على المعروف الشرعي ، والآية الثانية على الوضع اللغوي .

قوله تعالى ﴿ كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين ، أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴿٤٥﴾

خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون . إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ﴿٤١﴾ .

اعلم أنه تعالى لما عظم أمر الإسلام والإيمان بقوله (ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) أكد ذلك التعظيم بأن وعيد من ترك الإسلام ، فقال (وكيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم) وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في سبب النزول أقوال (الأول) قال ابن عباس رضي الله عنهما . نزلت هذه الآية في عشرة رهط كانوا آمنوا ثم ارتدوا ولحقوا بحكة ثم أخذوا يترصون به ريب المنون فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية . وكان فيهم من تاب فاستثنى الثالث منهم بقوله (إلا الذين تابوا) (الثاني) نقل أيضاً عن ابن عباس أنه قال : نزلت في يهود قريظة والعصير ومن دنا بدبتهم كفروا بالنبي ﷺ بعد أن كانوا مؤمنين قبل مبعده ، وكانوا يشهدون له بالنبوة ، فلما بعث وجاءهم بالبيات والمعجزات كفروا بغياً وحسداً (والثالث) نزلت في الحرث بن سويد وهو رجل من الأنصار حين ندم على رده فأسبل إلى قومه أن أسألو في هل لي من توبة ؟ فأرسل إليه أخوه بالآية ، فأقنن إلى المدينة وتاب على يد الرسول ﷺ وقبل الرسول ﷺ توبته ، قال الفغفال رحمه الله : لتعلم في هذه الآية قولان : منهم من قال إنه قوله تعالى (ومن يتبع غير الإسلام ديناً) وما بعده ، من قوله (وكيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم) إلى قوله (وأولئك هم الضالون) نزل جميع ذلك في قصة واحدة ، ومنهم من جعل ابتداء القصة من قوله (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفرون) ثم على التقديرين ففيها أيضاً قولان (أحدهما) أنها في أهل الكتاب (والثاني) أنها في قوم مرتدين عن الإسلام آمنوا ثم ارتدوا على ما شرحناه

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلف العلماء في تفسير قوله (وكيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم) أم لمعزلة فقالوا : أن أصولنا تشهد بأنه تعالى هدى جميع الخلق إلى الدين بحسب الشريعة ، ووضع الدلائل وفعل اللطاف ، إذ لو يعلم الكفر بهذه الأشياء لعصا الكافر وأصل معذراً ، ثم إنه تعالى حكم بأنه لم يهد هؤلاء الكفار ، فلا بد من تفسير هذه الهداية بشيء آخر سوى نصب الدلائل ، ثم ذكروا فيه وجوهاً (الأول) المراد من هذه الآية منع اللطاف التي يؤمنها المؤمنون ثواباً لهم على إيمانهم كما قال تعالى (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا لنهتدي بهم سبيلك) وقال

تعالى (ويزيد الله الذين آخذوا هدى) وقال تعالى (والذين اعتدوا اراذلهم هدى) وقال (يهدي الله من يشاء الى صراط مستقيم) فدللت هذه الايات على أن المهتدي قد يريده الله هدى (الثاني) أن المراد أن الله تعالى لا يهديهم إلى الحق قال تعالى (إن الذين كفروا دخلوا النار هم فيها خالدون) (والثالث) أنه لا يمكن أن يكون المراد من اهدية خلق المعرفة فيه لأن على هذا التقدير يلزم أن يكون أحد من الله تعالى لأنه تعالى إذا خلق المعرفة كان مؤتمناً مهتدياً ، وإذا لم يشهد بها كان كائناً صالحاً ، ولولا كان الكفر من الله تعالى لم يصح أن يهديه الله على الكفر ولم يصح أن يضايك الكفر إليهم ، لكن الآية ناطقة بكونهم مذمومين بسبب الكفر وكونهم فاعلين للكفر فإنه تعالى قال (وكيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم) فضايف الكفر إليهم وذمهم على ذلك الكفر فهذا جملة أقوالهم في هذه الآية ، وأما أهل السنة فقلوا : المراد من اهدية خلق المعرفة ، قلوا : وقد حرت سنة الله في دار التكليف أن كل فعل يقصد العبد إلى تحصيله فإن الله تعالى خلقه عقيب قصد العبد ، فكأنه تعالى قال : كيف يخلق الله فيهم المعرفة وهم فاعلون ، تحصيل الكفر أو أدائه والله أعلم .

❖ المسألة الثالثة ❖ قوله (واشهدوا) فيه قولان :

(الأول) أنه عطف والتقدير بعد أن آمنوا وبعد أن شهدوا أن الرسول حق ، لأن عطف الفعل على الاسم لا يجوز فهو في الظاهر وإن اقتضى عطف الفعل على الاسم لكنه في المعنى عطف الفعل على الفعل (الثاني) أن الواو للحال بإضمار (قدم) والتقدير كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم حال ما شهدوا أن الرسول حق .

❖ المسألة الرابعة ❖ تقدير الآية : كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم ، وبعد الشهادة بأن الرسول حق ، وقد جاءتهم البينات ، فعطف الشهادة بأن الرسول حق ، على الإيمان ، والمعطوف مغاير للمعطوف عليه ، فيلزم أن الشهادة بأن الرسول حق مغايرة للإيمان (وجوبه) إن عطفها أن لا يدل هو التصديق بالفتن ، والشهادة هو الإقرار بالسلطان ، وهي متساويان فصارت هذه الآية من هذا الوجه دالة على أن الإيمان مغاير للإقرار بالسلطان وأنه معنى قائم بالقلب .

❖ المسألة الخامسة ❖ محتم أن نحمل أنه تعالى استعظم كفر القوم من حيث أنه حصل بعد حصول ثلاث (أحدها) بعد الإيمان (وثانيها) بعد شهادة كون الرسول حقاً (وثالثها) بعد بحسب البينات ، وإذا كان الأمر كذلك كان ذلك الكفر صلاحاً بعد البصيرة وبعد إظهار الشهادة ، فيكون الكفر بعد هذه الأشياء ، فيجوز لأن من هذا الكفر يكون كدغاة والحدود ، وهذا يدل

عل أن زلة العالم أفتح من زلة الجاهل .

أما قوله تعالى (والله لا يهدي القوم الظالمين) فمعه سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ قال في أول الآية (كيف يهدي الله قوماً) وقال في آخرها (والله لا يهدي القوم الظالمين) وهذا تكرار

(وأجواب) أن قوله (كيف يهدي الله) يختص بالمؤمنين ، ثم إنه تعالى عصب ذلك اختكم في المرتدة في الكافر الأصلي فقال (والله لا يهدي القوم الظالمين) .

﴿ السؤال الثاني ﴾ لم سمي الكافر ظالماً ؟ .

(أجواب) قال تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) والسبب فيه أن الكافر أورد نفسه موارد البلاء والعقاب بسبب ذلك الكفر ، فكان ظالماً لنفسه .

ثم قال تعالى (أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها) والمعنى أنه تعالى حكم بأن الذين كفروا بعد إيمانهم بمنعهم الله تعالى من هدايته ، ثم بين أن الأمر غير متصور عليه ، بل كما لا يهديهم في الدنيا يلعمهم اللعن العظيم (يعذبهم في الآخرة ، على سبيل التأييد والخلود .

واعلم أن لعنة الله ، مخالفة للعنة الملائكة ، لأن لعنته بالإبعاد من الجنة وإنزال العقوبة والعداب واللجنة من الملائكة هي بالقرآن ، وكذلك من الشس ، وكل ذلك مستحق لهم بسبب ظلمهم وكفرهم . صصح أن يكون جزاء لذلك وهما سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم عم جميع الناس ومن يوافقه لا يلعم ؟ .

قلنا : فيه وجوه (الأول) قال أبو مسلم له أن يلعمه وإن كان لا يلعمه (الثاني) أنه في الآخرة يلعم بعضهم بعضاً قال تعالى (كلما دخلت أمة لعنت أختها) وقال (ثم يوم نقبأنا يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضاً) وعلى هذا التفسير فقد حصل اللعن للكفار من الكفار (والثالث) كان الناس هم المؤمنون ، والكفار ليسوا من الناس ، ثم ما ذكر لعن الثلاث قال (اجمعين) (الرابع) وهو الأصح عندي أن جميع الخلق يلعنون المبطل والكافر ، ولكنه يعطف في نفسه أنه ليس بمبطل ولا بكافر ، فإذا لعن الكافر وكان هو في علم الله كافراً ، فقد لعن نفسه وإن كان لا يلعم ذلك .

﴿ السؤال الثاني ﴾ قوله (خالدين فيها) أي خالدين في اللعنة ، فما خلود اللعنة ؟ .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعَثَ إِيَّيْهِمْ ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا أَنْ تُقَبَّلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ
الضَّالُّونَ ﴿٥٥﴾

قلنا : فيه وجهان (الأول) أن التخفيف في القلعة على معنى أنهم يوم القيامة لا يزال يلعنهم الملائكة والمؤمنون ومن معهم في النار فلا يخفون شيء من أحوالهم ، من أن يلعنهم لآخر من هؤلاء (الثاني) أن المراد بخلود اللعن بخلود أثر اللعن ، لأن اللعن يوجب العقاب ، فبعد عن خلود أثر اللعن بخلود اللعن ، ونظيره قوله تعالى (من أعرض عني فإنه يجعل يوم القيامة ورأ خالدين فيه) (الثالث) قال ابن عباس قوله (خالدين فيها) أي في جهنم فعلى هذا الكثيرة عن غير مذكور ، واعلم أن قوله (خالدين فيها) نصب على الحال بما قبله ، وهو قوله تعالى (عليهم نعمة الله) .

ثم قال (لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) معنى الانظار التحير قال تعالى (نظرة إلى مسرة) فالمعنى أنه لا يجعل عذابهم أخف ولا يؤخر لعقاب من وقت إلى وقت وهذا تحقيق قوله المتكلمين : إن العذاب الملحق بالكافر مضرة خالصة عن شوائب المنافع دائمة غير منقطعة ، نعوذ به بالله .

ثم قال (إلا الذين تابوا من بعد ذلك) والمعنى إلا الذين تابوا عنه ، ثم بين أن التوبة وحده لا تكفي حتى يتصف بها العمل الصالح فقال (وأصلحوا) أي أصححوا باطنهم مع الحق بالترقيات وظواهرهم مع الخلق بالعبادات ، وذلك بأن يعملوا بأننا كنا على الباطل حتى أنه لو اغتر بطريقتهم الفلسفة مغتر رجع عنها .

ثم قال (فإن الله غفور رحيم) وفيه وجهان (الأول) غفور لقبانهم في الدنيا بالستر ، رحيم في الآخرة بالعفو (الثاني) غفور بإزالة العذاب ، رحيم بإعطاء الثواب ، ونظيره قوله تعالى (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف) ودخلت الماء في قوله (فإن الله غفور رحيم) لأنه الجزاء ، وتقدير الكلام : إن تابوا فإن الله يغفر لهم .

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَعْدِ إِيَّاهُمْ ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا أَنْ تُقَبَّلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴾ وفي الآية مسائلان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتلوا فيها بزيادة الكفر ، والعياض أن المراد يكون فاعلا للزيادة بأن يقسم ويصير ليكون الإصرار كالزيادة ، وقد يكون فاعلا للزيادة بأن يقسم إلى ذلك الكفر كقرا

آخر ، وعلى هذا التقدير الثاني ذكروا فيه وجوه (الأول) أن أهل الكتاب كانوا مؤمنين بمحمد عليه الصلاة والسلام قبل بعثته ، ثم كفروا به عند البعث ، ثم ارددوا كفراً بسبب طمعهم فيه في كل وقت ، ونقصهم بميثاقه ، ونشتمهم للمؤمنين ، وإنكارهم لكل معجزة تظهر (الثاني) أن اليهود كانوا مؤمنين بموسى عليه السلام ، ثم كفروا بسبب إنكارهم عيسى والإنجيل ، ثم ارددوا كفراً ، بسبب إنكارهم محمداً عليه الصلاة والسلام وانفراق (الثالث) أن الآية نزلت في الذين ارتدوا وذهبوا إلى مكة ، وازدادهم الكفر أنهم غاسوا : نفيم مكة فترى محمد ﷺ ربيب المتن (الرابع) المراد فرقة رقدوا ، ثم عزموا على الرجوع إلى الاسلام على سبيل النفاق ، فسمى الله تعالى ذلك النفاق كفراً

المسألة الثانية : أنه تعالى حكى في الآية الأولى بقول توبة المرتدين ، وحكم في هذه الآية بعدم قبولها وهو يوم النافض ، وأيضاً ثبت بالدليل أنه متى وجدت التوبة شروطها فإنها تكون مقبولة لا محالة ، فلهذا اختلف المفسرون في تفسير قوله تعالى (لن تقبل توبتهم) على وجوه ١

(الأول) قال الحسن وقتادة وعطاء . السبب أنهم لا يتوبون إلا عند حضور الموت والله تعالى يقول (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن) (الثاني) أن يجعل هذا على ما إذا دنوا باللسان ولم يحصل في قلوبهم إخلاص (الثالث) قال الفخامي والقفال وابن الأثيري : أنه تعالى لما قدم ذكر من كفر بعد الإيمان ، وبين أنه أهل للعنة ، إلا أن يتوب ذكر في هذه الآية أنه لو كفر مرة أخرى بعد ثلث التوبة فإن التوبة الأولى نصير غير مقبولة ونصير كأنها لم تكن ، قال وهذا الوجه أليق بالآية من سائر الوجوه لأن التقدير : (إلا الذين تابوا وأصلحوا فإن الله غفور رحيم) فإن كانوا كذلك ثم ازدوا كفراً لن تقبل توبتهم ، (الرابع) قال صاحب الكشف : قوله (لن تقبل توبتهم) جعل كناية عن الموت على الكفر ، لأن الذي لا تقبل توبته من الكفار هو الذي يموت عن الكفر ، كأنه قيل إن اليهود والمتردين الذين فعلوا ما فعلوا ماتوا على الكفر داخلين في جملة من لا تقبل توبتهم (الخامس) لعل المراد ما إذا نلبوا عن تلك الزيادة فقط فإن التوبة عن ثلث الزيادة لا تصير مقبولة ما لم يحصل التوبة عن الأصل ، وأقول : جملة هذه الجوابات إما تنمى على ما إذا حملنا قوله (إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ارددوا كفراً) على المعهود السابق لا على الاستعراق وإلا فكم من مرتد تاب عن ارتداده توبة صحيحة مقرّنه بالإخلاص في زمان التكليف ، فأما الجواب الذي حكياه عن القفال والفخامي فهو جواب مطرد سواء حملنا اللفظ على المعهود السابق أو على الاستعراق .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَرَاءَ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُمْ سُحُبٌ مِّنَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿١٠﴾

أما قوله (وأولئك هم الضالون) ففيه مؤلفان (الأول) (وأولئك هم الضالون) يعني كون غيرهم ضالا ، وليس الأمر كذلك فإن كل كافر فهو ضال سواء كفر بعد الإيمان أو كان كافرا في الأصل (والجواب) هذا محمول على أنهم هم الضالون على سبيل التكامل

﴿ السوال الثاني ﴾ وصفهم أولا بالملأى على الكفر والغنى فيه والكفر اقبح أنواع الضلال والوصف بما يراد لتعبئة ، والبالغة بما يحصل بوصف الشيء هو أقوى حالا منه لا بما هو أصعب حالا منه (والجواب) قد ذكرنا أن نراد أنهم هم الضالون على سبيل التكامل ، وعلى هذا التقدير تحصل البالغة .

قوله تعالى ﴿ ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهب ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴾ .

اعلم ان الكافر على ثلاثة أقسام (أحدها) الذي يتوب عن الكفر توبة صحيحة مقبولة وهو الذي ذكره الله تعالى في قوله (إلا الذين تابوا واصلحوا فإن الله غفور رحيم) (وثانيها) الذي يتوب عن ذلك الكفر توبة فاسدة وهو الذي ذكره الله في الآية المتقدمة وقال : إنه لن تقبل توبته (وثالثها) الذي يموت على الكفر من غير توبة البتة وهو الملاكور في هذه الآية ، ثم إنه تعالى أسير عن هؤلاء بثلاثة أنواع .

﴿ النوع الأول ﴾ قوله (فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به) قال الراحدي ملء الشيء فهو ما يملؤه وانتصب (ذهباً) على التفسير ، ومعنى التفسير : أن يكون الكلام تاماً إلا أنه يكون معها كقولهم : عندي عشرون ، فالعدد معلوم ، والمعلوم مبهم ، فإذا قلت : درهم فسميت العدد ، وكذلك إذا قلت : هو أحسن الناس فقد سميت عن حسنه ، ولم تبي في ماذا ، فإذا قلت وحدها أو فعلاً فقد بينته ونهضته على التفسير وإنما نهضت لأنه ليس له ما ينخفض ولا ما يرفعه فلما خلا من هذين نصب لأن النصب أخف المخركات فيجعل كنهه لا عامل فيه قال صاحب الكشاف : وقرا الأعمش (ذهب) بالرفع رداً على من ، كما يقال : عندي عشرون نفساً ورجالاً .

وهنا ثلاثة أسئلة :

﴿ السؤال الأول ﴾ : لم قيل في الآية المتقدمة (لن تقبل) خير فله وفي هذه الآية (ولن يعجل) بانهاء ؟ .

(الجواب) : ان دخول الفاء يدل على أن الكلام مبني على الشرط والجزاء ، وعند عدم الفاء ثم يعهم من الكلام كونه شرطاً وجزاء ، تفوت : الذي جاءني نه درهم : فهذا لا يفيد أن الدرهم حصل له بسبب المحي ، وإذا قلت : الذي جاءني فله درهم : فهذا لا يفيد أن الدرهم حصل له بسبب المحي ، فنذكر الفاء في هذه الآية يدل على أن عدم قبول القدية معتل بالموت عن الكفر .

﴿ السؤال الثاني ﴾ : ما فائدة الواو في قوله (ولو افئدى به) ؟ .

(الجواب) : ذكروا فيه وجوها (الأول) قال الزجاج : إنها للمعطف ، والتقدير : لو تقرب إلى الله بملء الأرض ذهباً لم يفعه ذلك مع كفره ، ولو افئدى من العذاب بملء الأرض ذهباً لم يقبل منه ، وقد اختار ابن الأثيري قال : وهذا أركه في التخليط لأنه تصريح بتني القبول من جميع الوجوه (الثاني) (الواو) دخلت لبيان التفصيل بعد الإجمال وذلك لأن قوته (ولن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً) بمحمل الوجوه الكثيرة ، فنص على نفي التبول جهة القدية (الثالث) وهو وجه حظر بياني ، وهو أن من غصب على بعض عبده ، فإذا أخفقه ذلك العبد بتحفة وهدية لم يقبلها البتة إلا أنه قد يقبل منه القدية ، فأما إذا لم يقبل منه القدية أيضاً كلك ذلك غاية العصب ، والمباينة إنما تحصل بتلك المرتبة التي هي الغاية ، فحكم تعالى بأنه لا يقبل منهم من الأرض ذهباً ولو كان واقعاً على سبيل العدة تنبيهاً على أنه لا لم يكن مشرولاً بهذا الطريق ، فكان لا يكون مقبولاً منه بأسائر الطرق الأولى .

﴿ السؤال الثالث ﴾ : ان من المعلوم أن الكافر لا يملك يوم القيامة قبراً ولا قطميراً ومعنوم أن ينتقير ان يملك الذهب فلا يبيع الذهب البتة في الدار الآخرة ، فما فائدة قوله (لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً) .

(الجواب) : فيه وجهان (أحدهما) أنهم إذا ماتوا على الكفر فلو أنهم كانوا قد أنفقوا في الدنيا من الأرض ذهباً لن يقبل الله تعالى ذلك منهم ، لأن الطائفة مع الكفر لا تكون مذبونة (والثاني) أن الكلام وقع على سبيل الغرض ، وانتقير : فالذهب كناية عن أعز الأشياء ، وانتقير : لو أن الكافر يوم القيامة فقدر على أعز الأشياء ثم قدر على بذله في غاية الكثرة لعجز أن يتوصل بذلك إلى تحلٍ بعض نفسه من عذاب الله ، وبالحكمة فالقصد أنهم يسرون من تخفيس

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا ۖ مِمَّا تَحِبُّونَ ۚ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا ۖ مِمَّا تَحِبُّونَ ۚ عِلْمٌ

النفس من العذاب .

﴿ النوع الثاني ﴾ من الوعيد المذكور في هذه الآية قوله (ولهم عذاب أليم) وأعلم أنه تعالى لما بين أن الكافر لا يمكنه تخليص نفسه من العذاب ، أرفده بصفة ذلك العذاب ، فقال (ولهم عذاب أليم) أي مؤلم .

﴿ النوع الثالث ﴾ من الوعيد قوله (وما لهم من ناصرين) والمعنى أنه تعالى لما بين أنه لا خلاص لهم عن هذا العذاب الأليم بسبب النفية ، بين أيضاً أنه لا خلاص لهم عنه بسبب النصرة والإعانة والشفاعة ، ولأصحابنا أن ينجسوا هذه الآية على إثبات الشفاعة وذلك لأنه تعالى ختم تعدد وعيد الكفار بعدم النصرة وشفاعة قل هو حاصل هذا المعنى في حق غير الكافر سئل تخصيص هذا الوعيد بالكافر ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ ﴾ .

أعلم أنه تعالى لما بين أن الإنفاق لا يرفع الكافر البتة علم المؤمنين كيفية الإنفاق الذي ينتفعون به في الآخرة ، فقال (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ) وبين في هذه الآية أن من أنفق مما أحب كان من حملة الأبرار ، ثم قال في آية أخرى (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ) وقال أيضاً (إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرُونَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ كَانُوا يَكْفُرُونَ) وقال أيضاً (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَوَائِكِ يَتْلَوْنَ نَعْرُوفٍ وَجُوهُهُمْ نُضْرَةٌ نَعِيمٍ يَسْقُونَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْمُومٍ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَلْيَنَافَسُ الْمُتَنَافِسُونَ) وقال (لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ) فانه تعالى لما حصل في سائر الآيات كيفية ثواب الأبرار اكتفى ههنا بأن ذكر أن من أنفق ما أحب نال البر ، وفيه لطيفة أخرى .

وهي أنه تعالى قال (لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ) ولكن البر من أمر بالله واليوم الآخر واللاتكفة (إلى آخر الآية) فذكر في هذه الآية أكثر أعمال الخير ، وصفا البر ثم قال في هذه الآية (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ) والمعنى أنكم وإن أنتم بكل تلك الخيرات المذكورة في تلك الآية فأنكم لا تعودون بغضبة البر حتى تنفقوا مما تحبون ، وهذا يدل على أن الإنسان إذا أنفق ما يحبه كان ذلك أفضل الطاعات ، وههنا بحث وهو : أن لفاصل أن يقول كلمة (حتى) لانتهاء الغاية ، فتركه (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ) يقتضي أن من أنفق مما أحب فقد نال البر ومن نال البر دخل تحت الآيات الدالة على عظم الثواب للأبرار ، فهذا

يقضي أن من أنفق ما أحب وصل إلى الثواب العظيم وإن لم يأت بسائر الطاعات ، وهو باطل ، وجواب هذا الإشكال : أن الإنسان لا يمكنه أن ينفق محبوبه إلا إذا توسل بإتفاق ذلك المحبوب إلى وجدان محبوب أشرف من الأول ، فعلى هذا الإنسان لا يمكنه أن ينفق الدنيا في الدنيا إلا إذا تفنن سعادة الآخرة ، ولا يمكنه أن يعترف بسعادة الآخرة إلا إذا أقر بوجود الصانع العالم القادر ، وأقر بأنه يجب عليه الانقياد لتكاليفه وأوامره ونواهيه ، فإذا تأملت علمت أن الإنسان لا يمكنه إتفاق الدنيا في الدنيا إلا إذا كان مستجمعا لجميع الخصال المحمودة في الدنيا ، ولنرجع إلى التفسير لنقول في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ كان السلف إذا أحبوا شيئا جعلوه لله ، روى أنه لما نزلت هذه الآية قال أبو طلحة : يا رسول الله لي حائط بالمدينة وهو أحب أموالي إل أفأتصدق به ؟ فقال عليه السلام : يخ بئذ مال رابع ، وإلى أرى أن تجعلها في الأقربين ، فقال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله ، فقسمها في أقاربه ، وروى أنه جعلها بين حسان بن ثابت وأبي بن كعب رضي الله عنهما ، وروى أن زيد بن حارثة رضي الله عنه جاء عند نزول هذه الآية بفرس له كان يجهه ويجعله في سبيل الله ، فحمل عليها رسول الله ﷺ أسافة ، فوجد زيد في نفسه فقال عليه السلام : إن الله قد قبلها ، واشترى ابن عمر جارية أمعبته فأعتقها فقبل له : لم أعتقها ولم نصب منها ؟ فقال : لئن تكلموا البر حتى تنفقوا عما تحبون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ للمفسرين في تفسير البر قولان (أحدهما) ما به يصبرون أبرا حتى يدخلوا في قوله (إن الأبرار لفي نعيم) فيكون المراد بالبر ما يحصل منهم من الأعمال المقبولة (والثاني) الثواب واجبة فكله قال : لئن تكلموا هذه المذلة إلا بالاتفاق على هذا الوجه .

أما القائلون بالقول الأول ، فمنهم من قال (البر) هو المتقوى واحتج بقوله (ولئن البر من آمن بالله) إلى قوله (أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) وقال أبوذر : إن البر هو الخير ، وهو قريب مما تقدم .

وأما الذين قالوا : البر هو الجنة فمنهم من قال (لئن تكلموا البر) أي لئن تكلموا ثواب البر ، ومنهم من قال : المراد بر الله وأولياءه وإكرامه إياهم وتفضله عليهم ، وهو من قول النفس : برني فلان بكذا ، وبر فلان لا يقطع عني ، وقال تعالى (لا ينالكم الله عن الدين لم يغفلوكم في الدين) إلى قول (أن تبروهم) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلف المفسرون في قوله (مما تحبون) منهم من قال : إنه نفس المال ، قال تعالى (وإنه لحب الخير لشديد) ومنهم من قال : أن تكون الهبة رجعة جيدة ، قال

تعالى (ولا تيمموا الخيث منه تنفقون) ومنهم من قال : ما يكون محتاجا إليه قال تعالى (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا) أحد تفسير الحب في هذه الآية على حاجتهم إليه ، وقال (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) وقال عليه السلام : أفضل الصدقة ما تصدقت به وأنت صحيح شحيح تأمل العبد وتحتسب الغفره والأول أن يقال : كل ذلك معتبر في باب الفضل وكثرة الثواب .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اختلف المفسرون ، في أن هذا الاتفاق ، هل هو الزكاة أو غيرها ؟ قال ابن عباس : أردت به الزكاة ، يعني حتى تخرجوا زكاة أموالكم ، وقال الحسن : كل شيء أنفق المسلم من ماله طلب به وجه الله فإنه من الذين عنى الله سبحانه بقوله (لئلا تنفقوا مما تحبون) حتى الثمرة ، والفاضي اختار القول الأول ، واحتج عليه بأن هذا الاتفاق ، وقف الله عليه كون المكلف من الأبرار ، والفقير بالجنة ، بحيث لو لم يوجد هذا الاتفاق ، لم يصر العبد بهذه المنزلة ، وما ذاك إلا الاتفاق الثواب ، وأنزل : لو خصصنا الآية بغير الزكاة لكان أولى لأن الآية مخصوصة بابناء الأحب ، والزكاة الواجبة ليس فيها إنشاء الاحب ، فإنه لا يجب على المزكي أن يخرج أشرف أمواله وأكرمها ، بل الصحيح أن هذه الآية مخصوصة بإنشاء المال على سبيل التلب .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ نقل الواحدي عن مجاهد والكلبي : أن هذه الآية منسوخة بآية الزكاة ، وهذا في غاية الجهد لأن إيجاب الزكاة كيف ينال الترضيب في بدل المحبوب لوجه الله سبحانه وتعالى

﴿ المسألة السادسة ﴾ قال بعضهم كلمة (من) في قوله (مما تحبون) للنسح ، وقراء عبد الله (حتى تنفقوا بعض ما تحبون) وفيه إشارة إلى أن اتفاق الكل لا يجوز ثم قال (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) وقال آخرون : إنها للثنين .

وأما قوله ﴿ وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم ﴾ ففيه سؤال :

وهو أن يقال : قيل فإن الله به عليم على جهة جواب الشرط مع أن الله تعالى يعلمه على كل حال .

(والجواب) من وجهين (الأول) أن فيه معنى الجزاء تقييده : وما تنفقوا من شيء فإن الله به يجازيكم قل أم كثر ، لأنه عليم به لا يخفى عليه شيء منه ، فجعل كونه علما بذلك الاتفاق كناية عن إعطاء الثواب ، والتعريض في مثل هذا الموضع يكون أبلغ من التصريح

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِشُرُوعٍ فَأَتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٦﴾ قُلْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٤٧﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤٨﴾

(وانتبه) : أنه تعالى يعلم الوجه الذي لأجله يفعلونه ويعلم أن الداعي إليه أهو الإخلاص أم الرياء ويعلم أنكم تتفقون الأحب الأجود ، أم الأخر الأرذل .

واعلم أن نظم هذه الآية قوله (وما فعلوا من حبر يعلمه الله) وقوله (وما أنفقتم من نفقة أو تبارتم من فقر فإن الله يعلمه) قال صاحب الكشف (من) في قوله (من شيء) لتبيين ما ينفقونه أي من شيء ، كان طيب تحبونه أو خبيثا تكرهونه فإن الله به عليم يجازيكم على قدره .

قوله تعالى ﴿ كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ فمن افتري على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون . قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴿١٤٨﴾ .

اعلم أن الآيات المتقدمة إلى هذه الآية كانت في تقرير الدلائل الدالة على نبوة محمد ﷺ ، وفي توجيه الالتزامات الواردة على أهل الكتاب في هذا الباب .

وأما هذه الآية فهي في بيان الجواب عن شبهات النجوم فإن ظاهر الآية يدل على أنه ﷺ كان يدهي أن كل الطعام كان حلالاً صار البعض حراماً بعد أن كان حلالاً وانقوم نازعوه في ذلك وزعموا أن الذي هو الآن حرام كان حراماً أبداً .

وإذا عرفت هذا فنقول : الآية تحتمل وجوهاً (الأول) أن اليهود كانوا يقولون في إنكار شرع محمد ﷺ على ذكر السح ، فبطل الله عليهم ذلك بأن (كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه) فذلك الذي حرمه على نفسه ، كان حلالاً ثم صار حراماً عليه وعلى أولاده فبعد حصل النسخ ، فبطل قولكم : السح غير جائز . ثم إن اليهود لما توجه عليهم هذا السؤال أنكروا أن يكون حرمة ذلك الطعام الذي حرم الله بسبب أن إسرائيل حرمه على نفسه ، بل زعموا أن ذلك كان حراماً من لدن زمن آدم عليه السلام إلى هذا

الزكاة ، قصد هذا طلب الرسول عليه السلام منهم أن يقتصروا التوراة فإن للتوراة ناطقة بأن بعض أنواع الطعام إنما حرم بسبب أن إسرائيل حرمه على نفسه ، فخافوا من العضيضة وامتنعوا من إحضار التوراة ، فحصل عند ذلك أمور كثيرة نفوي دلائل نبوة محمدية (أحدها) أن هذا السؤال قد توجه عندهم في إنكار النسخ ، وهو لازم لا يحصر عنه (وثانيها) أنه ظهر للناس كلهم وأهم ينسبون إلى التوراة ما ليس فيها تارة ، ويمتنعون عن الإقرار بما حرم فيها أخرى (وثالثها) أن الرسول عليه السلام كان رجلاً أميناً لا يفترأ ولا يكتب فامتنع أن يعرف هذه المسألة انعاماً من عموم التوراة إلا بخبر السراة فهذا وجه حسن علمي في تفسير الآية وبين انظم .

﴿ الوجه الثاني ﴾ أن اليهود قالوا له : إلك تدعي أنك على ملة إبراهيم ، فهو كان الأمر كذلك فكيف تأكل لحوم الإبل وألبانها مع أن ذلك كان حراماً في دين إبراهيم فجعلوا هذا الكلام شبه طاعة في صحة دعواه ، فأجاب النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الشبهة بأن قال : ذلك كان حلالاً لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام ، إلا أن يعقوب حرمه على نفسه بسبب من الأسباب وبقيت تلك الحُرمة في أولاده فأفكر اليهود ذلك ، فأمرهم الرسول عليه السلام بإحضار التوراة وطالبهم بأن يستخرجوا منها آية تدل على أن حوم الإبل وألبانها كانت حُرمة على إبراهيم عليه السلام فعجروا عن ذلك وامتنعوا فظهر عند هذا أنهم كانوا كاذبين في ادعاء حُرمة هذه الأشياء على إبراهيم عليه السلام .

﴿ الوجه الثالث ﴾ أنه تعالى لما أنزل قوله (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها إلا ما حملت ظهورها أو الخوايا ، أو ما اختلط بعظم ذلك جزياهم ببعض) وإذا كصادقون (وقال أيضاً (فيظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم خبثات أحلت لهم) فدللت هذه الآية على أنه تعالى إنما حرم على اليهود هذه الأشياء جزاء لهم على بغيهم وظلمهم وقبيح فعلهم وإنه لم يكن شيء من الطعام حرام غير الطعام الواحد الذي حرمه إسرائيل على نفسه ، فلو ذلك على اليهود من وجهين (أحدهما) أن ذلك يدل على أن تلك الأشياء حُرمت بعد أن كانت مباحة ، وذلك يقضي ونوع النسخ وهم يكرونه (والثاني) أن ذلك يدل على أنهم كانوا موصوفين بقبح الأفعال ، فلما حق عليهم ذلك من هذين الوجهين أنكروا كون حُرمة هذه الأشياء متعددة ، بل زعموا أنها كانت حُرمة أبداً ، فطالبهم النبي صلى الله عليه وسلم بآية من التوراة تدل على صحة قولهم فعجروا عنه فامتنعوا ، فهذا وجه الكلام في تفسير هذه الآية وكله حسن مستقيم ، ونرجع إلى تفسير الألفاظ .

أما قوله (كل الطعام كان حلالاً) الآية ففيه مسائل

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف (كل الطعام) أي كل المأكولات أو كل

أنواع الطعام وأقول : اختلف الناس في أن تنقذ المفرد الممثل بالآلف واللام هل يقيد العموم أم لا ؟ .

ذهب قوم من الفقهاء والأدباء إلى أنه يقيد ، واحتجوا عليه بوجوه (أحدها) أنه تعالى 'دخس لفظ (كل) على لفظ الطعام في هذه الآية ، ولولا أن لفظ الطعام فاته مقام لفظ المطعومات وإلا لما جاز ذلك (وثانيها) أنه استثنى عنه ما حرم إسرائيل على نفسه والاستثناء يخرج من الكلام ما نزل به لتحل ، فلولا دخول كل الأقسام تحت لفظ الطعام ولولا لم يصح هذا الاستثناء وأكثروا هذا بقوله تعالى (إن الإنسان لغي حسر) الذين آمنوا (وثالثها) أنه تعالى وصف هذا اللفظ المفرد بما يوصف به لفظ الجمع ، فقال (والنحل بأسفاتها لها طلع نضيد رزقا للعباد) ففي هذا من ذهب إلى هذا المذهب لا يحتاج إلى الإحصاء الذي ذكره صاحب الكشاف ، أما من قال إن الاسم المفرد المعنى بالآلف واللام لا يقيد العموم ، وهو الذي نظرناه في أصول الفقه احتج إلى الإحصاء الذي ذكره صاحب الكشاف .

المسألة الثانية : الطعام اسم لكل ما يطعم ويؤكل ، وزعم بعض أصحاب أبي حنيفة رحمه الله عليه إنه اسم للبر خاصة ، وهذه الآية دالة على ضعف هذا الوجه ، لأنه استثنى من لفظ الطعام ما حرم إسرائيل على نفسه ، والمفسرون اتفقوا على أن ذلك الذي حرمه إسرائيل على نفسه كان نباتاً سوى الحنطة ، وسوى ما يتخذ منها وما يؤكد ذلك قوله تعالى في صفه الماء (ومن ثم يطعمه فإنه مني) وقال تعالى (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم) وأراد الذابح ، وقالت عائشة رضي الله عنها : ما لنا طعام إلا الأسودان ، والمراد التمر والماء .

إذا عرفت هذا فنقول : طاهر هذه الآية يدل على أن جميع المطعومات كالأحلال حلال لئني إسرائيل ثم قال اتفقنا : لم يلبسنا أنه كانت الجنة مباحة لهم مع أنها طعام ، وكذا النول في حنيزير ، ثم قال فيحتمل أن يكون ذلك على الأصحمة لئني كان يدعى اليهود في وقت الرسول بغير أنها كانت محرمة على إبراهيم ، وسلي هذا التفسير لا تكون الآلف واللام في لفظ الطعام للاستعراق ، بل للعمد الساتر ، وعلى هذا التفسير يزول الإشكال ومثله قوله تعالى (قل لا أجد فيها آوحي إلى عمر ماعى طعامهم بضعهم إلا أن يكره مينة أو دما مسفوحاً أو لحم خنزير) فإنه إذا خرج هذا الكلام عن أشياء سألوا عنها فعرفوا أن المحرم منها كذا وكذا دون غيره فكذا في هذه الآية .

المسألة الثالثة : الحل مصدر يقال : حل الشيء حلاً فكذلك : ذلت البداية دلاً وهو الرجل عزاً ، ولذلك استوى في الرصف به المذكر والمؤنث والواحد والجمع قال تعالى (لاهي

حل له () والنوصف بالمصدر يفيد المبالغة بهما الخن والحلال والمحلل واحد ، قال ابن عباس رضي الله عنهما في زعمهم هي حل ويل رواه سليمان بن عبيدة فحسن سليمان : ما حل ؟ فقال محل

أما قوله تعالى (إلاما حرم إسرائيل على نفسه) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتلوا في الشيء الذي حرمه إسرائيل على نفسه على وجوه (الأول) روى ابن عباس أن النبي ﷺ قال : « إن يعقوب مريض مريضاً شديداً فذكر لئن عفا الله ليحرم من أحب الطعام والشراب عليه ، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل وأحب الشراب إليه لبها » وهذا قول أبي العافية وعبد الله ومقاتل (والثاني) قيل إنه كان به عرق الساء فذكر إن شفاه الله أن لا يأكل شيئاً من لحمه (والثالث) جاء في بعض الروايات أن النبي حرمه على نفسه : وأنه الكيد وأنحى الإمام علي بن المظهر ، ونقل الففاه رحمه الله عن ترجمة التوراة ، أن يعقوب لما خرج من حران إلى كنعان بعث بروداً إلى عيصو أخيه إلى أرض ساعير ، فاصرف لرسول إليه ، وقال : يا عيصو هو ذا بذلك ومعه أرضه مائة رحل ، فدعير يعقوب وحزن جداً وصلى ودعا وقام هدايا لأخيه وذكر القصص إلى أن ذكر الملك الذي لقيه في صورة رجل ، فدعا ذلك الرجل ووضع أصبعه على موضع عرق الساء ، فحدثت تلك العصبية وحقت فمن أجل هذا لا يأكل بنو إسرائيل العروق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ظاهر الآية يدل على أن إسرائيل حرم ذلك على نفسه ، وفيه مؤل وهو أن التحريم والتحليل إنما يثبت بخلاف الله تعالى ، فكيف صار تحريم يعقوب عليه السلام سبباً لخصونه بالحرمة .

أجاب المفسرون عنه من وجوه (الأول) أنه لا يبعد أن الإنسان إذا حرم شيئاً على نفسه فإن الله يحرمه عليه ألا ترى أن الإنسان يحرم امرأته على نفسه بالطلاق ، ويحرم حديقته بالعق ، فكذلك جائز أن يقول تعالى إن حرمت شيئاً على نفسك فأما أيضاً أحرمه عليك (الثاني) إنه عليه الصلاة والسلام ربما اجتهد فأدّى اجتهداه إلى التحريم ، فقال بحرمة وإما قلنا إن الاجتهاد يدر من الأنبياء لمجوه (الأول) قوله تعالى (فاعتبروا يا أولي الأبصار) ولا شك أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام رؤساء أولي الأبصار (والثاني) قال (لعلمه النبي يستبطونه منهم) مدح المستبطين والأنبياء أولي بهذا المدح (والثالث) قال تعالى لمحمد عليه الصلاة والسلام (عفا الله عنك لم أذنت لهم) فهو كان ذلك الإذن بالنص ، لم يقل لهم أذنت ، بل على أنه كان بالاجتهاد (الرابع) أنه لا طاعة إلا للأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام

فيها أعظم نصيب ولا شك أن استنباط أحكام الله تعالى بطريق الاجتهاد صاعقة عظيمة شاقة ، فوجب أن يكون للأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيها نصيب لا سيما ومعارفهم أكثر وعقولهم أنور وأذهانهم أصفى وتوفيق الله تعالى تسديده معهم أكثر ، ثم إذا حكموا بحكم بسبب الاجتهاد بحرم على الأمة مخالفتهم في ذلك الحكم كما أن الإجماع إذا انعقد على الاجتهاد فإنه يحرم مخالفته والأظهر والأقوى أن إسرائيل صلوات الله عليه إما حرم ذلك على نفسه بسبب الاجتهاد إذ لو كان ذلك بانحصار لقال إلا ما حرم الله على إسرائيل فلما أضاف التحريم إلى إسرائيل دل هذا على أن ذلك كان بالاجتهاد وهو كما بقدر . الشافعي يحمل لحم الخيل وأبو حنيفة يحرمه بمعنى أن اجتهاده أدى إليه فكذلك ههنا .

(الثالث) بمحمل أن التحريم في شرعه كالنذر في شرعه ، فكما يجب علينا الوفاء بالنذر كان يجب في شرعه الوفاء بالتحريم .

واعلم أن هذا لو كان فإنه كان عتصاً بشرعه أما في شرعنا فهو غير ثابت قال تعالى (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك) (الرابع) قال الأصم : لعن نفسه كانت مائنة إلى كل تلك الأنواع فمنع من أكلها قهراً كلتمس وطلب مرضاه الله تعالى ، كما يفعله كثير من الزهاد فغير من ذلك الاعتداع بالتحريم (الخامس) قال قوم من المتكلمين أنه يجوز من الله تعالى أن يقول لعبده : احكم فانك لا تحكم إلا بالحيسوب فلعل هذه الواقعة كانت من هذا القبيل ، وللمتكلمين في هذه المسألة منازعات كثيرة ذكرناها في أصول الفقه .

❖ **نكته الثالثة** ❖ ظاهر هذه الآية يدل على أن الذي حرمه إسرائيل على نفسه فقد حرمه الله على بني إسرائيل ، وذلك لأنه تعالى قال (كن الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل) فحكم بحل كل أنواع المأكلات لبني إسرائيل ، ثم استثنى عنه ما حرمه إسرائيل على نفسه ، فوجب حكم الاستثناء أن يكون ذلك حراماً على بني إسرائيل وإنه أعلم .

أما قوله تعالى (من قبل أن تنزل التوراة) فالمعنى أن قبل نزول التوراة كان حلالاً لبني إسرائيل كل أنواع المعلومات سوى ما حرمه إسرائيل على نفسه ، أما بعد التوراة فلم يبق كذلك بل حرم الله تعالى عليهم أنواعاً كثيرة ، روى أن بني إسرائيل كانوا إذا أتوا منب عظيم حرم الله عليهم نوعاً من أنواع الطعام ، أو سخط عليهم شيء لهلاك أو مصرة ، دليله قوله تعالى (فيضلن من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) .

ثم قال تعالى (غر عتوا بالتوراة فأتوها إن كنتم صادقين) وهذا يدل على أن القوم نازعوا رسول الله ﷺ ، إما لأنهم ادعوا أن تحريم هذه الأشياء كان موجوداً من لدن آدم عليه

السلام إلى هذا الزمان . فكتبه رسول الله ﷺ في ذلك ، وبما لأن الرسول ﷺ ادعى كون هذه المظبوطات مباحة في الزمان القديم ، وأنها إنما حُرمت بسبب أن إسرائيل حرمها على نفسه ، فإزعموا في ذلك ، فطلب الرسول عليه السلام إحصاء التوراة ليستخرج منها ما تسلمون من علماء أهل الكتاب أنه موافق لقول الرسول ، وعلى كلا الوجهين ، فالنفس طاهر ، والمكرى القبيح أن يخرجوا هذه الآية . وذلك لأن الرسول عليه السلام ضالهم في ادعوا بكتابات الله ، ولو كان القبيح حجة لكان لهم أن يقولوا لا يلزم من عدم هذا الحكم في التوراة عدمه ، لأننا نثبت بالقبيح ، ويمكن أن يجنب عنه بأن النزاع ما وقع في حكم شرعي ، وإنما وقع في أن هذا الحكم ، هل كان موجوداً في زمان إبراهيم وسائر الأبياء عليهم السلام أم لا ؟ ومثل هذا لا يمكن إثباته إلا بالنقض ، فلهذا المعنى طامعهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، بنقض التوراة

ثم قال تعالى (فمن كفرى على الله الكذب) الافتراء اختلاق الكذب ، والفسقة الكذب والقدح ، وأصله من مرى الأديم ، وهم قطعه ، فنقض للكذب افتراء ، لأن الكذب يقطع به في القول من غير تحقيق في الوجود

ثم قال (من بعد ذلك) أي من بعد ظهور الخفة بأن التحريم إنما كان من جهة عصب ، ولم يكن محرماً ما قبله (فأولئك هم الظالمون) فاستحققوا لعذاب الله لأن كفرهم ظلم منهم لأنفسهم ولأن أمسؤوه عن الدين .

ثم قال تعالى (قل صدق الله) ويحتمل وجوهاً (أحدها) (قل صدق) في أن ذلك النوع من الطعام صار حراماً على إسرائيل وأولاده بعد أن كان حلالاً لهم . ففسح القرآن بالنسخ ، وبطلت شبهة اليهود (وثانيها) (صدق الله) في قوله إن لحوم الأبل وألبانها كانت محلة لإبراهيم عليه السلام وإنما حُرمت على بني إسرائيل لأن إسرائيل حرمها على نفسه ، فثبت أن محمد ﷺ لا أنفى محل لحوم الأبل وألبانها ، فقد أثبت بملة إبراهيم (وثالثها) (صدق الله) في أن سائر الأطعمة كانت محلة لبني إسرائيل وأنها إنما حُرمت على اليهود جزاء على فواحش أفعالهم .

ثم قال تعالى (فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً) أي التبعوا ما يدعوكم إليه محمد صلوات الله عليه من ملة إبراهيم . وهو قال . ملة إبراهيم حنيفاً ، أو قال . ملة إبراهيم الحنيف لأن الحال والصفة سواء في المعنى .

ثم قال (وما كان من المشركين) أي لم يدع مع الله إلهاً آخر ، ولا عبد سواه ، كما فعله

إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِسَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥٥﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا

بعضهم من عبادة الشمس والنمر ، أو كما فعله العرب من عبادة الأوثان ، أو كما فعله اليهود من ادعاء أن عزير ابن الله ، وكما فعله النصارى من ادعاء أن المسيح ابن الله ، والعرض منه بيان أن محمداً صلوات الله عليه على دين إبراهيم عليه السلام ، في الفروع والأصول .

أما في الفروع ، فلما ثبت أن الحكم بحله كان إبراهيم قد حكم بحله أيضاً ، وأما في الأصول فلأن محمداً صلوات الله وسلامه عليه لا يدعو إلا إلى التوحيد ، والبراءة عن كل معبود سوى الله تعالى وما كان إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه إلا على هذا الدين .

قوله تعالى ﴿ إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ الَّذِي بِسَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ﴿ في اتصال هذه الآية بما قبلها وجوه (الأول) أن المراد عنه الجواب عن شبهة أخرى من شبه اليهود في إنكار نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، وذلك لأنه عليه السلام لما حول القبلة إلى الكعبة تحس اليهود في نبوته ، وقالوا أن بيت المقدس أفضل من الكعبة وأحق بالاستقبال ، وذلك لأن وضع قبل الكعبة ، وهو أرض المحشر ، وقبله جملة الأنبياء ، وإذا كان كذلك كان تحويل القبلة منه إلى الكعبة باطلاً ، فأجاب الله تعالى عنه بقوله (إن أول بيت وضع للناس) فبين تعالى أن الكعبة أفضل من بيت المقدس وأشرف ، فكان جعلها قبله أولى (والثاني) أن المقصود من الآية المقدمة بيان أن النسخ هل يجوز أم لا ؟ فإن النبي ﷺ استدلل على جوازه بأن الأطمعة كانت مباحة لبني إسرائيل ، ثم أن الله تعالى حرم بعضها ، والفوم فآزغوا رسول الله ﷺ فيه ، وأعظم الأمور التي أخبر رسول الله ﷺ نسخها هو القبلة ، لا جرم ذكر تعالى في هذه الآية بيان ما لأجله خولت الكعبة ، وهو كون الكعبة أفضل من غيرها (الثالث) أنه تعالى لما دل في الآية المقدمة (فأتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) وكان من أعظم شعار ملة إبراهيم الحج ، ذكر في هذه الآية فضيلة البيت ، ليمرغ عليه إيجاب الحج (الرابع) أن اليهود والنصارى زعم كل فرقة منهم أنه على ملة إبراهيم ، وقدمت هذه المناظرة في الآيات المقدمة ، فإن الله تعالى بين كذبهم ، من حيث أن حج الكعبة كان ملة إبراهيم واليهود والنصارى لا يحجونه ، فبدل هذا على كذبهم في ذلك ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال المحققون (الأول) هو الفرد السابق ، فإذا قال : أول عبد

اشترى به فهو حر فلو اشترى عبدين في المرة الأولى لم يعتق أحد منهما لأن الأول هو الفرد ، ثم لو اشترى في المرة الثانية عبداً واحداً لم يعتق ، لأن شرط الأول كونه سابقاً فثبت أن الأول هو الفرد السابق .

إذا عرفت هذا فقول : إن قوله تعالى (إن أول بيت وضع للناس) لا يدل على أنه أول بيت خلعه الله تعالى ، ولا أنه أول بيت ظهر في الأرض ، بل طاهر الآية يدل على أنه أول بيت وضع للناس ، وكونه موضوعاً للناس يقتضي كونه مشتركاً فيه بين جميع الناس ، فأما سائر البيوت فيكون كل واحد منها مختصاً بواحد من الناس فلا يكون شيء من البيوت موضوعاً للناس ، وكون البيت مشتركاً فيه بين كل الناس ، لا يحصل إلا إذا كان البيت موضوعاً للطاعات والعبادات وقبلة للخلق ، فدل قوله تعالى (إن أول بيت وضع للناس) على أن هذا البيت وضعه الله موضوعاً للطاعات واختارات والمعبادات ، فيدخل فيه كون هذا البيت قبلة للصلوات ، وموضعاً للحج ، ومكاناً يزداد ثواب العبادات والطاعات فيه .

فإن قيل : كونه أولاً في هذا الوصف يقتضي أن يكون له شأن ، وهذا يقتضي أن يكون بيت المقدس يشاركه في هذه الصفات التي منها وجوب حجه ، ومعلوم أنه ليس كذلك .

(والخراب) من وجهين (الأول) أن لفظ (الأول) في اللغة اسم لشئ ، الذي يوجد ابتداءً ، سواء حصل عقبه شيء آخر أو لم يحصل ، يقال : هذا أول قدومي مكة ، وهذا أول مال أصنعه ولو قال : أول عيد ملكته فهو حر فملك عبداً عتق وإن لم يملك بعده عبداً آخر ، فكذلك هنا ، (والثاني) أن المراد من قوله (إن أول بيت وضع للناس) أي أول بيت وضع لطاعات الناس وعبادتهم وبيت المقدس يشاركه في كونه بيتاً موضوعاً للطاعات والعبادات ، يدلل فونه عليه الصلاة والسلام لا تستد الرحال إلا إلى ثلاث مساجد : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجدي هذا ، وهذا الفرد يكفي في صدق كون الكعبة أول بيت وضع للناس ، وأما أن يكون بيت المقدس مشاركاً له في جميع الأمور حتى في وجوب الحج ، فهذا غير لازم والله أعلم .

❖ لمسألة الثانية ❖ اعلم أن قوله (إن أول بيت وضع للناس الذي مباركاً) يحتمل أن يكون المراد كونه أولاً في النوضع والبناء ، وأن يكون المراد كونه أولاً في كونه مباركاً وحدي فحصل للمفسرين في تفسير هذه الآية قولان (الأول) أنه أول في البناء والوضع ، والذاهبون إلى هذا المذهب هم أقوال (أحدها) ما روى الواحدي رحمه الله تعالى في التيسير بأسناده عن مجاهد أنه قال : خلق الله تعالى هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرضين ، وفي رواية أخرى : خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرض بألفي سنة ، وإن فوّعه

ففي الأرض السابعة السفلى وروى أيضاً عن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضوان الله تعالى عليهم أجمعين عن أبيه عن النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى بعث ملائكته فقال ابنوا لي في الأرض بيتاً على مثال البيت المعمور وأمر الله تعالى من في الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور ، وهذا كان قبل خلق آدم » .

وأيضاً ورد في سائر كتب التفسير عن عبدالله بن عمر ، ومجاهد والسدي : أنه أول بيت وضع على وجه الماء عند خلق الأرض والسماء ، وقد خلقه الله تعالى قبل الأرض بألفي عام وكان زينة بهيئة على الماء ثم دحيت الأرض تحته ، قال الفغان في تفسيره : روى حبيب بن ثابت عن ابن عباس أنه قال : وجد في كتاب في المقام أو تحت المقام « أنا الله ذويكة وضعتها يوم وضعت الشمس والقمر ، وحرمتها يوم وضعت هذين الحجرين ، وحففتها بسبعة أملاك حنفاء » (وثانيها) أن آدم صلوات الله عليه وسلامه لما أعبط إلى الأرض شكوا الوحشة ، فأمره الله تعالى ببناء الكعبة وظاف بها ، وبقي ذلك إلى زمان نوح عليه السلام ، فلما أرسل الله تعالى الطوفان ، رفع البيت إلى السماء السابعة حيال الكعبة ، يتعبد عنده الملائكة ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك سوى من دخل من قبل فيه ، ثم بعد الطوفان اتدرس موضع الكعبة ، وبقي محتجباً إلى أن بعث الله تعالى جبريل صلوات الله عليه إلى إبراهيم عليه السلام ودله على مكان البيت ، وأمره بممارته ، فكان المهندس جبريل والبناء إبراهيم والمعين إسماعيل عليهم السلام .

واعلم أن هذين القولين يشتركان في أن الكعبة كانت موجودة في زمان آدم عليه السلام . وهذا هو الأصوب وبدل عليه وجوه (الأول) أن تكليف الصلاة كان لازماً في دين جميع الأنبياء عليهم السلام ، بدليل قوله تعالى في سورة مريم (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ومن حنفاء مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ومن هدينا واحبتنا إذ نزل عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً) فدللت الآية على أن جميع الأنبياء عليهم السلام كانوا يسجدون لله والسجدة لا بد لها من قبله ، فلو كانت قبله شئت وإدريس ونوح عليهم السلام مريضاً آخر سوى القبلة لبطل قوله (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة) فوجب أن يقل : إن قبله أولئك الأنبياء المتقدمين هي الكعبة ، فدل هذا على أن هذه الجهة كانت أبداً مشرفة بمكرمة (الثاني) أن الله تعالى سمي مكة أم القرى ، وظاهر هذا يقتضي أنها كانت سابقة على سائر البقاع في الفضل والشرف منذ كانت موجودة (الثالث) روى أبو النبي ﷺ قال في خطبه يوم فتح مكة « ألا إن الله قد حرم مكة يوم خلق السموات والأرض والشمس والقمر » وتحريم مكة لا يمكن إلا بعد وجود مكة (الرابع) أن الأناس النبي حكيناها عن الصحابة

والتابعين دالة على أنها كانت موجودة قبل زمان إبراهيم عليه السلام .

واعلم أن من أنكر ذلك أن يحنج سوجه (الأول) ما روي أن النبي ﷺ قال : اللهم إني حرمت المدينة كني حرم إبراهيم مكة ، وظاهر هذا يقتضي أن مكة ساء إبراهيم عليه السلام ولقائل أن يقول : لا نبعد أن يقال البيت كان موجوداً قبل إبراهيم وما كان محرماً ثم حرم إبراهيم عليه السلام (الثاني) فسكوا بقوله تعالى (وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) ولقائل أن يقول : لعل البيت كان موجوداً قبل ذلك ثم أهدم ، ثم أمر الله إبراهيم برفع قواعده وهذا هو الوارد في أكثر الأخبار (الثالث) قال القاضي إن الذي يقال من أنه رفع زمان الطوفان إلى السماء بعيد ، وذلك لأن الموضع الشريف هو تلك الجهة المعينة ، والجهة لا يتכן رفعها إلى السماء ألا ترى أن الكعبة والعياد بالله تعالى لو تهدمت ونقل الأحجار والخشب والتراب إلى موضع آخر لم يكن له شرف الشرف ، ويكون شرف تلك الجهة شيئاً بعد الأهدام ، ويجب على كل مسلم أن يصلي إلى تلك الجهة معينة ، وإذا كان كذلك فلا فائدة في نقل ثلث الخدعان إلى السماء ولقائل أن يقول : ما صارت تلك الأجسام في العزة إلى حيث أمر الله بنقلها إلى السماء ، وإنما حصلت لها هذه العزة بسبب أنها كانت حاصلة في تلك الجهة ، فصار نقلها إلى السماء من عظم الملائل على غاية تعظيم تلك الجهة وإعزازها ، فهذا حجة ما في هذا القول :

﴿ القول الثاني ﴾ ان المراد من هذه الآية كون هذا البيت أولاً في كونه مباركا وهدى للخلق روي أن النبي عليه الصلاة والسلام مثل عن أول مسجد وضع للناس ، فقال عليه الصلاة والسلام : المسجد الحرام ثم بيت المقدس أفبيل كم بينهما ؟ قال : أربعون سنة ، وعن علي رضي الله عنه أن رجلاً قال له : أهو أول بيت ؟ قال : لا قد كان قبله بيوت ولكنه أول بيت وضع لبأس مباركا فيه الهدى والرحمة والبركة أول من بناه إبراهيم ثم بنوه قوم من العرب من جرهم . ثم هدم قبناه العيلقة ، وهم ملوك من أولاد عيليق بن سام بن نوح ، ثم هدم صباء فريش

واعلم أن دالة الآية على الأولوية في الفضل والشرف أمر لا بد منه ، لأن المقصود الأصلي من ذكر هذه الأولوية بيان الفضيلة ، لأن المقصود ترجيحه على بيت المقدس ، وهذا إنما يتم بالأولية في الفضيلة والشرف ، ولا تأثير للأولية في البناء في هذا المقصود ، إلا أن ثبوت الأولوية بسبب الفضيلة لا ينال ثبوت الأولوية في البناء ، وقد دللنا على ثبوت هذا المعنى أيضاً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إذا ثبت أن المراد من هذه الأولوية زيادة الفضيلة والنفعة ولم يذكر ههنا

وجوه فضيلة البيت :

﴿ الفضيلة الأولى ﴾ اتفقت الأمم على أن يبنى هذا البيت هو الخليل عليه السلام ، ويأتي بيت انفضس سليمان عليه السلام ، ولا شك أن الخليل أعظم درجة وأكثر منزلة من سليمان عليه السلام فمن هذا الوجه يجب أن تكون الكعبة أشرف من بيت المقدس .

واعلم أن الله تعالى أمر الخليل عليه السلام بمهارة هذا البيت ، فقال (وإذا يؤنس لأبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وظهر بيتي للطائفين والقائمين والركع والسجود) والمبلغ لهذا التكليف هو جبريل عليه السلام ، فلماذا قيل : ليس في العالم بناء أشرف من الكعبة ، فالأمر هو الملك الخليل والمهندس هو جبريل ، والبنائي هو الخليل ، والتلميذ إسماعيل عليهم السلام .

﴿ الفضيلة الثانية ﴾ (مقام إبراهيم) وهو الحجر الذي وضع إبراهيم فدمه عليه فجعل الله ما تحت قدم إبراهيم عليه السلام من ذلك الحجر دون سائر أجزائه كالطين حتى غاص فيه قدم إبراهيم عليه السلام ، وهذا ما لا يقدر عليه إلا الله ولا يظهره إلا على الأنبياء ، ثم لما رفع إبراهيم قلعه عنه خلق فيه الصلاة الحجرية مرة أخرى ، ثم إنه تعالى أبقى ذلك الحجر على سبيل الاستمرار والديموم فهذه الأنواع من الآيات العجيبة والمعجزات الباهرة أظهرها الله سبحانه في ذلك الحجر .

﴿ الفضيلة الثالثة ﴾ ملة ما يجتمع فيه من حصى الجمار ، فانه منذ آلاف سنة وقد يبلغ من يرمي في كل سنة سبائة ألف إنسان كل واحد منهم سبعين حصاة ، ثم لا يرى هناك إلا ما نواجم في سنة واحدة فكان غير كثير ونيس الوضع الذي ترمي إليه الجمرات مسيل ماء ولا مهب رياح شديدة وقد جاء في الآثار أن من كانت حجته مقبولة رفعت حجارة بهراته إلى السماء .

﴿ الفضيلة الرابعة ﴾ إن الظبور تترك المرور فوق الكعبة عند طبعاتها في اقراء بل تحرف عنها إذا ما وصلت إلى فوقها .

﴿ الفضيلة الخامسة ﴾ أن حنده يمنع الوحش لا يؤذي بعضها بعضاً كالكلاب والقطب ، ولا يصطاد فيه الكلاب والوحوش وتلك خاصية عجيبة وأيضاً كل من سكن مكة آمن من النهب والظلمة وهو بركة دعا إبراهيم عليه السلام حيث قال (رب اجعل هذا آمناً) وقال تعالى في صفة أمته (أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم) وقال (فليمدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمهم من خوف) ولم يقل الله أن ظناً هدم الكعبة وعرب مكة بالكلية ، وأما بيت المقدس فقد هدمه بختنصر بالكلية .

﴿الفضيلة السادسة﴾ : أن صاحب القيل وهو أبرهة الأشمر لما فاد الخيوش والغيل إلى مكة لتخريب الكعبة وعجز قريش عن مقاومة أولئك الخيوش وفارقوا مكة وتركوا به الكعبة فأرسل الله عليهم ضرباً أبابيل ، وأبابيل هم الجحاش من الطير بعد الجحاش ، وكانت صقاراً تحمل أحجاراً ترميهم بها فهلك تلك وهلك العسكر بتلك الأحجار مع أن كانت في غاية الصغر ، وهذه آية باهرة دالة على شرف الكعبة وإرهاص نبوة محمد عليه الصلاة والسلام .

فإن قال قائل : لم لا يجوز أن يقال إن كل ذلك بسبب طلسم موضوع هناك بحيث لا يعرفه أحد من الأمر في تركيب الطلسمات مشهور .

فلما : لو كان هذا من باب الطلسمات لكان هذا طليساً مخالفاً لآثار الطلسمات فإنه لم يحصل لشيء سوى الكعبة مثل هذا البقاء الضال في هذه المدة العظيمة ، ومثل هذا يكون من المعجزات ، فلا يتمكن منها سوى الأنبياء .

﴿الفضيلة السابعة﴾ : إن الله تعالى وضعها بواد غير ذي زرع ، والحكمة من وجوه (أحدها) أنه تعالى قطع بذلك رجاء أهل حرمه وسدنة بيته ممن سواه حتى لا ينوكلوا إلا على الله (وثانيها) أنه لا يسكنها أحد من الجبابرة والأكاسرة فائهم يريدون طيات الدنيا فإذا لم يجدوها هناك تركوها ذلك الموضع ، فانقصود تنزيه ذلك الموضع عن لوث وجود أهل الدنيا (وثالثها) أنه فعل ذلك فلا يقصدها أحد لتجارة بل يكون ذلك محض العبادة والزيارة فقط (ورابعها) ظهر الله تعالى بذلك شرف الفقر حيث وضع أشرف البيوت في أقل المواقع نصيباً من الدنيا ، فكأنه قال : جعلت الفقراء في الدنيا أهل البلد الأمين ، وكذلك تجعلهم في الآخرة أهل المقام الأمين ، ثم في الدنيا بيت الأمن وفي الآخرة دار الأمن (وخامسها) كأنه قال : لما لم يجعل الكعبة إلا في موضع حال عن جميع نعم الدنيا فكذلك لا تجعل كعبة المعرفة إلا في كل قلب يحمل عن محبة الدنيا ، وهذا ما يتعلق بغض الكعبة ، وعند هذا ظهر أن هذا البيت أول بيت وضع للناس في أنواع الفسائل والمناقب ، وإذا طهر هذا بطن قومه اليهود - إن بيت المقدس أشرف من الكعبة والله أعلم .

ثم قال تعالى (للذي ببكة) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ : لا شك أن المراد من (بكه) هو مكة ثم اختلفوا فمنهم من قال : بكه ومكة لساناً لمسمى واحد ، فإن البناء وأقيم حرفان متضاربان في المخرج فيقام كل واحد منهما مقام الآخر فيقال : هذه ضربة لآرم ، وضربة لازب ، ويقال : هذا دأثم ودأثب ، ويقال : رتب ورثم ، ويقال : سدد رأسه ، وسبده ، وفي اشتقاق بكه وجهان (الأول) أنه

من اليك الذي هو عبارة عن دفع البعض بعضاً، يقال : بكته بيكة بكاءً إذا دفعه وزحمه ، وتباك النجوم إذا زودوا فلهاذا قال سعيد بن جبير : سميت مكة بكة لأنها يتكئون فيها أي يزوجهون في الطواف ، وهو قول محمد بن علي البغوي وعنه قتادة قال بعضهم : رأيت محمد بن علي البقر يصلي فمرت امرأة بين يديه فذهبت أدفعها فقال : دعها فإنها سميت بكة لأنه يبعث بعضهم بعضاً ، ثم المرأة بين يدي الرجل وهو يصلي ، والرجل بين يدي المرأة وهي تصلي لا بأس بذلك في هذا المكان .

﴿ الوجه الثاني ﴾ سميت بكة لأنها تلك أعنى الجمابة لا يريد بها جبار سوء إلا اندقت عقه قال قطرب : تقول العرب بككت عقه أبكك بكاً إذا وصعت منه ورددت نحوه

وأما مكة ففي اشتقاقها وجوه (الأول) أن اشتقاقها من 'مها فك الذنوب أي تزيلها كلها ، من قولك : امتك انفصل صرع ثمة ، إذا امتص ما فيه (الثاني) سميت بذلك لاجتماع الناس من كل جانب من الأرض ، يقال امتك الفصيل ، إذا استقصى ما في الضرع ، ويقال تمككت العظم ، إذا استقصيت ما فيه (الثالث) سميت مكة ، نقله مائمه ، كان أرضها امتك ماءها (الرابع) قيل : إن مكة وسط الأرض ، والعيون والمياه تنبع من تحت مكة ، فالأرض كلها فك من ماء مكة ، ومن الناس من فرق بين مكة وبكة ، فقال بعضهم : إن بكه اسم للمسجد خاصة ، وأما مكة ، فهو اسم لكل البلد ، قالوا : والتدليل عليه اشتقاق بكة من الازدحام والندامه ، وهذا مما يحصل في المسجد عند الطواف ، لا في سائر الموضع ، وقال الآخرون : مكة اسم للمسجد والمطاف . وبكة اسم البلد ، والتدليل عليه أن قوله تعالى (للذي بيكة) يدل على أن البيت حاصل في بكة ومطرف في بكة فلو كان مكة اسماً للبيت لفظل يكون بكة ظرفاً للبيت ، أما إذا جعلنا مكة اسماً للبلد ، استقام هذا الكلام

﴿ المسألة الثانية ﴾ مكة أسماء كثيرة . قال لفظاً رحمه الله في تفسيره : مكة وبكة وأم رحم وكوبسة والساشة والحاطمة تحطم من استخف بها ، وأم القرى قال تعالى (تنزل أم القرى ومن حولها) وسببت بهذا الاسم لأنها أصل كل بلدة ومها دحييت لأرض ، وفقد المعنى مرفق ذلك الموضع من جميع جوانحي الأرض

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لمكة أسس (أحدها) الكعبة قال تعالى (جعل الله الكعبة البيت الحرام) والسبب فيه أن هذا الاسم يدل على الإشراف والإرتفاع ، وسمي الكعب تيمناً لإشرافه وارتفاعه على الرميح ، وسميت امرأة الساعدة الشريفة كعباً . لارتفاع قديها ، فلما كان هذا البيت أشرف بيوت الأرض وأقدمها زمناً ، وأكثرها فضيلة سمي بهذا الاسم (وثانيها)

البيت العتيق : قال تعالى (ثم جعلها إلى البيت العتيق) وقال (وليطوفوا بالبيت العتيق) وفي اشتقاقه وجوه (الأول) العتيق هو القديم ، وقد بينا أنه أقدم بيوت الأرض بل عند بعضهم أن الله خلقه قبل الأرض والسماء (والثاني) أن الله أعطفه من الشرق حيث رفعه إلى السماء (الثالث) من عتق الطائر إذا قوى في وكفه ، فلما بلغ في القوة إلى حيث أن كل من قصد تربيته أهلكه الله سمي عتيقاً (الرابع) أن الله أعطفه من أن يكون ملكاً لأحد من المخلوقين (الخامس) أنه عتيق بمعنى أن كل من زاره أعطفه الله تعالى من النار (وثالثها) المسجد الحرام قال سبحانه (سبحانه الذي أسرى بعبد لهيلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) والمراد من كونه حراماً سبجياً ، إن شاء الله في تفسير هذه الآية .

فإن قال قائل : كيف الجمع بين قوله (إن أول بيت وضع للناس) وبين قوله (وطهر بيتي للطائفين) فأضاهه مرة إلى نفسه ومرة إلى الناس .

(والجواب) كأنه قيل : البيت لي ولكن وضعت لا لأجل منفعتي فأنى منزعه عن الحاجة ولكن وضعت لك ليكون قبلة لدعائك والله أعلم .

ثم قال تعالى (مباركاً وهدي للعالمين) .

واعلم أنه تعالى وصف هذا البيت بأنواع الفضائل (فاقوها) أنه أول بيت وضع للناس ، وقد ذكرنا معنى كونه أولاً في الفضل ونزبه منها وجوهاً آخر (الأول) قال علي رضي الله عنه ، هو أول بيت غصى بالبركة ، ويأن من دخله كان آمناً ، وقال الحسي : هو أول مسجد صعد الله فيه في الأرض وقال مطرف : أول بيت جعل قبلة (وثانيها) أنه تعالى وصفه بكونه مباركاً ، وفيه مسائلتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ انتصب (مباركاً) على الخيال والتقدير الذي استقر هو بيكة مباركاً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ البركة لها معنيان (أحدهما) النمو والتزايد (والثاني) البقاء والدوام ، يقال تبارك الله ، ثبوت لم يزل ، والبركة شبه الخوض لشوت الماء فيها ، وبرك البعير إذا وضع صدره على الأرض وثبت واستقر ، فإن قسرنا البركة بالتزايد والتمتع فهذا البيت مبارك من وجوه (أحدها) أن الطاعات إذا أتى بها في هذا البيت ازداد ثوابها ، قال رحمه الله : فضل المسجد الحرام على مسجد ذي كفضل مسجد ذي على سائر المساجد ، ثم قال رحمه الله : صلاة في مسجد ذي أفضل من ألف صلاة فيما سواه ، فهذا في الصلاة ، وأما الحج ، فقال عليه الصلاة والسلام : من حج ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، وفي حديث آخر : الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة ، ومعلوم أنه لا أكثر بركة مما يجلب المغفرة

والرحمة (وثانيها) قال الفضل رحمه الله تعالى : ويجوز أن يكون بركته ما ذكر في قوله تعالى (يحيى إليه شعرات كل شيء) فيكون كقوليه (إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله) (وثالثها) أن المعامل يجب أن يستحضر في ذهنه أن الكعبة كالنقطة وليتصور أن صفوف المتوجهين إليها في السنوات كالنواثر المحيطة بالمركز ، ويتأمل كم عدد الصفوف المحيطة بهذه النقطة حال اشتغالهم بالصلاة ، ولا شك أنه يحصل فيما بين هؤلاء المصلين أشخاص أرواحهم عدوية ، وقلوبهم قديمة وأسرارهم خردانية وضمايرهم ربانية ثم يد تلك الأرواح النصلية إذا توجّهت إلى كعبة المعرفة وأجسادهم توجّهت إلى هذه الكعبة المحمية فمن كان في الكعبة يتصل أنوار أرواح أولئك المتوجهين بنور روحه ، فتزداد الأنوار الإلهية في قلبه ، ويعظم لمعان الأضواء الروحانية في سره وهذا بحر عظيم ومقام شريف ، وهو ينهك عن معنى كونه مباركاً .

وأما إن فسرت البركة بالدوام فهو أيضاً كذلك ، لأنه لا تنفك الكعبة من الطائفتين والعاكفتين والركع السجود ، وأيضاً الأرض كرة ، وإذا كان كذلك فكل وقت يمكن أن يفرض فهو صبح لقوم ، وظهر لآخر ، وعصر لآخر ، ومغرب لآخر وعشاء لآخر ، ومتى كان الأمر كذلك لم تكن الكعبة مفضلة فقط عن توجه قوم إليها من طرف من أطراف العالم لأداء فرض الصلاة ، فكان الدوام حاصلًا من هذه الجهة ، وأيضاً بدء الكعبة على هذه الحالة ألقاً من السنين دوام أيضاً ثبت كونه مباركاً من الوجوه .

﴿ الصفة الثالثة ﴾ من صفات هذا البيت كونه (هدى للعالمين) وفيه مسائلان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قيل - المعنى أنه قبلة للعالمين يبتدون به إلى جهة صلاتهم ، وقيل : هدى للعالمين أي دلالة على وجود الصانع المختار ، وصديق محمد ﷺ في النبوة بما فيه من الآيات التي ذكرناها والعجائب التي حكيناها فإن كل ما يدل على النبوة فهو يعينه يدل أولاً على وجود الصانع ، وجميع صفاته من العلم والقدرة والحكمة والاستثناء . وقيل - هدى للعالمين إلى الحق لأن من أدّى الصلوات الواجبة إليها استوجب الحق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الزجاج : المعنى ودا هدى للعالمين ، قال : ويجوز أن يكون (وهدي) في موضع رفع على معنى وهو هدى .

ثم قوله تعالى (فيه آيات بينات) ففيه قولان (الأول) أن المراد ما ذكرناه من الآيات التي فيه وهي : أمن الخائف ، ونجاة الخمار على كثرة الرمي ، وامتناع الطير من الطلوع عليه واستشفاء المريض به وتعجيل العقوبة لمن انتهك فيه حرمة ، وإهلاك أصحاب القبل لا يقصدوا

تخريره فعلى هذا تفسير الآيات وبينها عبر مذكور .

وقوله (مقام إبراهيم) لا تعلق له بقوله (فيه آيات بينات) فكأنه تعالى قال (فيه آيات بينات) ومع ذلك فهو مقام إبراهيم ومقره والموضع الذي اختاره وعبد الله فيه ، لأن كل ذلك من الخلال التي بها يشرف ويعظم .

﴿ القول الثاني ﴾ أن تصير الآيات مذكور ، وهو قوله (مقام إبراهيم) أي : هي مقام إبراهيم .

فان قيل : الآيات جملة ولا يصح نسبها بشيء واحد ، أحلوا عنه من وجوه (الأول) أن مقام إبراهيم بمنزلة آيات كثيرة ، لأن ما كان معجزة لرسول الله ﷺ ، فهو دليل على وجود الصانع ، وعلمه وقدرته وإرادته وحيلته ، وكونه غيباً منزهاً مقدساً عن مشابهة المحدثات فمقام إبراهيم وإن كان شيئاً واحداً إلا أنه لما حصل فيه هذه الوجوه الكثيرة كان بمنزلة الدلائل كقوله (إن إبراهيم كان أمياً قانتاً) (الثاني) أن مقام إبراهيم اشتمل على آيات ، لأن أثر القدم في الصخرة انصاء أية ، وعوضه فيها إلى الكعبين أية ، وإلانة بعض الصخرة دون بعض أية ، لأنه لأن من الصخرة ما تحت قدميه فقط ، وإيقاؤه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام أية خاصة لإبراهيم عليه السلام وحفظه مع كثرة أعدائه من اليهود والنصارى والمشركون والذين آمنوا فثبت أن مقام إبراهيم عليه السلام آيات كثيرة (الثالث) قال الزجاج إن قوله (ومن دخله كان آمناً) من بقية تفسير الآية كأنه قيل : فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأمن من دخله ، ولفظ الجميع قد يستعمل في الاثنين ، قال تعالى (وإن تنوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) وقال عليه السلام « الاثنان فما فوقهما جمعة » ومنهم من حمى الثلاثة فقال : مقام إبراهيم ، وأن من دخله كان آمناً ، وأن الله على الناس حجة ، ثم حذو (أن) اختصاراً ، كما في قوله (قل أمر ربي بالقسط) أي أمر ربي بأن تقسطوا (التوامع) يجوز أن يذكر اختصاراً ، كما في قوله (قل أمر ربي بالقسط) أي أمر ربي بأن تقسطوا (التوامع) يجوز أن يذكر هاتان الآيتان ويطوي ذكر غيرها دلالة على تكاثر الآيات ، كأنه قيل فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، وأمن من دخله ، وكثير سواهما (الخامس) قرأ ابن عباس ومجاهد وأبو جعفر المنذني في رواية قتيبة (أية بينة) على التوحيد (السادس) قال المبرد (مقام) مصدر فلم يجمع كما قال (وعلى سمعهم) والمراد مقامات إبراهيم ، وهي ما أقامه إبراهيم عليه السلام من أمور الخلق وأعمال النسلك ولا شئت أنها كثيرة وعلى هذا فالمراد بالآيات شعائر الحج كما قال (ومن يعظم شعائر الله) .

ثم قال تعالى (مقام إبراهيم) وفيه أقوال (أحدها) أنه لما ارتفع بنيك الكعبة ، وضعف إبراهيم من رفع الحجارة قام على هذا الحجر قفاصت فيه قدمه (والثاني) أنه جاء زائراً من الشام إلى مكة ، وكان قد حلف لأمرائه أن لا ينزل بمكة حتى يرجع ، فلما وصل إلى مكة قالت له أم (إسماعيل) : إنزل حتى نغسل رأسك ، فلم ينزل ، فجاءته بهذا الحجر فوضعت على الجلب الأيمن ، فوضع قدمه عليه حتى غسلت أحد جانبي رأسه ، ثم حولته إلى الجلب الأيسر ، حتى غسلت الجانب الآخر ، فبقي ثمر قدمه عليه (والثالث) أنه هو الحجر الذي قام إبراهيم عليه عند الأذان بالحج ، قال الفاضل رحمه الله ، ويجوز أن يكون إبراهيم قام على ذلك الحجر في هذه المواضع كلها .

ثم قال تعالى (ومن دخله كان آمناً) وهذه الآية نظائر منها قوله تعالى (وإذا جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً) وقوله (أو لم يروا أن جعلنا حرمناً آمناً) وفان إبراهيم (رب اجعل هذا بلداً آمناً) وقال تعالى (اطعمهم من حنء واسهم من خوف) قال أبو بكر المزني : لما كانت الآيات المذكورة عقيب قوله (يا أول بيت وضع للناس) موجودة في الحرم ثم قال (ومن دخله كان آمناً) يجب أن يكون مراده جميع الحرم ، وأجمعوا على أن الحرم لا يفيد الأمان فيما سوى النفس ، إنما الخلاف فيما إذا وجب انفصاص عليه خارج الحرم فالتجاء إلى الحرم فهل يستوفي منه انفصاص في الحرم ؟ قال الشافعي : يستوفي ، وقال أبو حنيفة : لا يستوفي ، بل يمنع منه الطعام والشراب والبيع والشراء والكلام حتى يخرج ، ثم يستوفي منه انفصاص ، والكلام في هذه المسألة قد تقدم في تفسير قوله (وإذا جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً) واحتج أبو حنيفة رضي الله عنه بهذه الآية ، فقال : فظهر الآية الأخذ عن كونه آمناً ، ولكن لا يمكن حمله عليه إذ قد لا يصبر أمناً فيضع الخلف في الخبر ، فوجب حمله على الأمر ترك العمل به في الحنابات التي دون النفس ، لأن الضرر فيها أخف من الضرر في القتل ، وجب إذاً وجب عليه انفصاص جنابة أثنى ما في الحرم ، لأنه هو الذي حثك حرمة الحرم ، فينبى في محل الخلاف على منصوص ظاهر الآية .

(بالجواب) أن قوله (كان آمناً) إثبات لمسى الأمن ، ويكفي في العمل به إثبات الا من بعض الوجوه ، ونحن نقول به وبإثانه من وجوه (الأولى) أن من دخله للنسك تقرباً إلى الله تعالى كان آمناً من النار يوم القيامة ، قال النبي عليه السلام « من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمناً » وقال أيضاً « من صبر عن حرمكة ساعة من نهار شققت عنه جهنم صيرة ماتني عام » وقال « من حج ولم يرفق ولم يفسد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » (والثاني) يحتمل أن يكون المراد ما أودع الله في قلوب الخلق من الشفقة على كل من التجأ إليه

وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا

ودفع المكروه عنه ، ولما كان الأمر واقعاً على هذا الوجه في الأكثر أحبر بوقوعه على هذا الوجه مطلقاً وهذا أولى مما قالوه لوجهين (الأول) لما على هذا التقدير لا نحصل الحر قائماً مقام الأمر وهم جعلوه قائماً مقام الأمر (والثاني) أنه تعالى إنما ذكر هذا السبيل فضيلة البيت وذلك إنما يحصل بشيء كان معلوماً للقوم حتى يصير ذلك حجة على فضيلة البيت ، فاما الحكم الذي بينه الله في شرح محمد عليه السلام فله لا يصبر ذلك حجة على اليهود والنصارى في إثبات فضيلة الكعبة .

﴿ الوجه الثالث ﴾ في تأويل الآية : أن المعنى من دخله عام عمرة القضاء مع النبي ﷺ كان . معاً لأنه تعالى قال (اندخلوا المسجد الحرام إن شاء الله آمين) (الرابع) قال الضعيف : من حج حجة كان أمناً من المنوب التي اكتسبها قبل ذلك .

وأعلم أن طرف الكلام في جميع هذه الأجوبة شيء واحد ، وهو أن قوله (كان أمناً) حكم بثبوت الأمن وذلك يكفي في العمل به إثبات الأمن من وجه واحد وفي صورة واحدة فإذا حرناه على بعض هذه الوجوه فقد عملنا بمقتضى هذا النص فلا يبقى للنص دلالة على ما قالوه ، ثم يتأكد ذلك بأن حمل النص على هذا الوجه لا يقضي إلى تخصيص النصوص الدالة على وجوب الفصاحص وحمله على ما قالوه يقضي إلى ذلك فكان قولنا أولى والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما ذكر فضائل البيت ومنافعه ، أردفه بذكر إيجاب الحج وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم (حج البيت) بكسر الحاء والبخون يفتحها ، قبل الفتح لغة أفعال ، والكسر لغة نحدوها واحد في المعنى ، وقالهما جائزاً مطلقاً في اللفظ ، مثل رطل ورطل ، وبزدر وبزدر ، وقبل المكسورة اسم للعمل والمفتوحة مصدر ، وقال سيوريه . يجوز أن تكون المكسورة أيضاً مصدراً ، كالذكر والعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في قوله (من استطاع إليه سبيلاً) وجوه (الأول) قال أرواح : موضع (من) حفص على البيت من (الناس) والمعنى : ولله على من استطاع من الناس حج البيت (الثاني) قاله الفراء إن نويت الاستئناف بمن كانت شرطاً وامسقط الخراء للدلالة ما قبله عليه ، والتفسير من استطاع إلى الحج سبيلاً لله عليه حج البيت (الثالث) قال ابن الأثيري :

يجوز أن يكون (من) في موضع رفع على معنى الترجمة للناس ، كانه قيل : من الناس الذين عليهم لله حج البيت ! فقيل هم من استطاع إليه سبيلاً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ انتفى الاكثرون على أن الزاد والراحلة شرطان لمصالح الاستطاعة ، روى جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ أنه قسر استطاعة المسبيل إلى الحج بوجود الزاد والراحلة ، وروى الفقهاء عن جوير عن المحدث أنه قال : إذا كان شاباً صحيحاً ليس له مال فعليه أن يؤاجر نفسه حتى يقضي حجه فقال له قائل : أكلّف الله الناس أن يمشوا إلى البيت ؟ فقال : لو كان لبعضهم ميراث بمكة أكان يتركه ؟ قال : لا بل ينطلق إليه ولو حياً ، قال : فكذلك يجب عليه حج البيت ، عن عكرمة أيضاً أنه قال : الاستطاعة هي صحة البدن ، وإمكان المشي إذا لم يجد ما يركبه .

واعلم أن كل من كان صحيح البدن فاندأ على المشي إذا لم يجد ما يركب فانه يصدق عليه أنه يستطيع ذلك الفعل ، فتخصيص هذه الاستطاعة بالزاد والراحلة ترك لظاهر اللفظ فلا بد فيه من دليل منفصل ، ولا يمكن التعويل في ذلك على الأخبار المروية في هذا الباب لأنها اختيار أحد فلا يترك لأجلها ظاهر الكتاب لأسباب وقد طعن محمد بن جرير الطبري في رواية تلك الأخبار ، وطعن فيها من وجه آخر ، وهو أن حصول الزاد والراحلة لا يكفي في حصول الاستطاعة فانه يعتبر في حصول الاستطاعة صحة البدن وعدم الخوف في الطريق ، وظاهر هذه الأخبار يقتضي أن لا يكون شيء من ذلك معتبراً ، فصارت هذه الأخبار مطعوناً فيها من هذا الوجه بل يجب أن يحول في ذلك على ظاهر قوله تعالى (وما جعل عليكم في الدين من حرج) وقوله (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ احتج بعضهم بهذه الآية على أن الكفار مخذّبون بفروع الشرائع قالوا لأن ظاهر قوله تعالى (والله على الناس حج البيت) يعم المؤمن والكافر وعده الإيمان لا يصلح معارضاً وخصصاً هذا العموم ، لأن الدهري مكلف بالإيمان بمحمد ﷺ مع أن الإيمان بآفة الذي هو شرط صحة الإيمان بمحمد عليه السلام غير حاصل والمحدث مكلف بالصلاة مع أن الوضوء الذي هو شرط صحة الصلاة غير حاصل ، فلم يكن عدم الشرط مانعاً من كونه مكلفاً بالشرط ، فكذا ههنا والله أعلم .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ احتج جمهور المعتزلة بهذه الآية على أن الاستطاعة قبل الفعل ، فقالوا : لو كانت الاستطاعة مع الفعل لكان من لم يجمع مستطيعاً للحج ، ومن لم يكن مستطيعاً للحج لا يتدوله التكليف المذكور في هذه الآية فيلزم أن كل من لم يجمع أن لا يصير

وَمَنْ كَفَرَ فَعَنْ اللَّهِ غِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٥٧﴾

مأموراً فصح بسبب هذه الآية وذلك باطل بالانقاف .

اجاب الأصحاب بأن هذا أيضاً لازم له ، وذلك لأن القادر بما أن يصير مأموراً بالفعل قبل حصول الداعي إلى الفعل أو بعد حصوله ، ما قبل حصول الداعي فصح ، لأن قبل حصول الداعي يمتنع حصول الفعل ، فيكون التكليف به تكليف ما لا يطاق . وأما بعد حصول الداعي فالفعل يصير واجب الحصول ، فلا يكون في التكليف به فائده ، وإذا كانت الاستطاعة منفية في الخاتين وجب أن لا يتوجه التكليف المذكور في هذه الآية على أحد .

في المسألة السادسة : روى أنه لما نزلت هذه الآية قيل : يا رسول الله أكتب الحج علينا في كل عام ، ذكروا ذلك ثلاثاً ، سمكت الرسوبية ، ثم قال في الرابعة : لو قلت نعم لوجبت ولم وجبت ما قطعتم بها ولو لم تقوموا بها لكرمتم ألا قودعوني ما واعدتكم وإذا أمرتكم بأمر فاعملوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن أمر فانتهوا عنه فانما هلك من كان قبلكم بكثرة اختلافهم على نبيائهم ، ثم احتج العلماء بهذا الخبر على أن الأمر لا يفيد التكرار من وجهين (الأول) أن الأمر ورد بالحج ولم يفد التكرار (والثاني) أن الصحابة استمعوا أنه هل يوجب التكرار أم لا ؟ ولو كانت هذه الصيغة تعيد التكرار لما اعتصموا إلى الاستفهام مع كونه عاملاً بالغة .

في المسألة السابعة : استطاعة السبيل إلى الشيء عبادة عن إمكان الوصول ، قال تعالى (فاعل إلى حرج من سبيل) وقال (فهل إلى مرد من سبيل) وقال (ما على الحسين من سبيل) فبغير في حصول هذا الإمكان صحة إبدان ، وزوال خوف التلف من السبع أو العدو ، وهذا الطعام والشراب والنفقة على المال الذي يشتري به الزاد والمرحلة وأن يقضي جميع الديون وسرد جميع المودائع ، وإن وجب عليه الإتيان على أحد لم يجب عليه الحج إلا إذا ترك من المال ما يكفيه في المحي - والذهاب وتفصيل هذا الباب المذكورة في كتب الفقهاء والله أعلم

ثم قال تعالى : ومن كفر فإن الله غني عن العالمين : وفيه مسائل .

في المسألة الأولى : في هذه الآية قولان :

القول الأول : أنها كلام مستقل بنفسه وعبارة عام في حق كل من كفر بالله ولا تعلق

له بما قبله

﴿ انقول الثاني ﴾ أنه متعلق بما قبله والمقاتلون هذا القوم منهم من حمله على ترك الحج ومنهم من حمله على من لم يعتد وجوب الحج ، أما الذين حملوه على ترك الحج فقد عولوا فيه على ظاهر الآية فإنه لما تقدم الأمر بالحج ثم أتبعه بقوله (ومن كفر) فهم عنه أن هذا التكفر ليس إلا ترك ما تقدم الأمر به ثم انهم أكدوا هذا الوجه بالأخبار ، روى عن النبي ﷺ أنه قال : من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً ، وعن أبي أمامة قال : قال النبي ﷺ : من مات ولم يحج حجة الإسلام ولم تحمه حجة غامرة أو مرض عابس أو سلطان حشر فليمت على أي حد شاء يهودياً أو نصرانياً ، وعن سعيد بن جبير : لم مات جباري ولا مبسر ولم يحج لم أصل عليه ، فإن قيل : كيف يجوز الحكم عليه بالتكفر بسبب ترك الحج ؟

أجاب القضاة رحمه الله تعالى عنه : يجوز أن يكون المراد به التكليف ، أي قد قارب التكفر وعمل ما يحمله من كفر بالحج ، وبطريق قوله تعالى (ولعلبت القلوب الخناسر) أي كانت تبليغ ، وبطريق قوله عليه الصلاة والسلام : من ترك صلاة متعمداً فقد كفر ، وقوله عليه الصلاة والسلام : من أتى امرأة حائضاً أو في دبرها فقد كفر ، وأما الأكثرون فهم الذين حملوا هذه التوجيه على من ترك اعتقاد وجوب الحج ، قال الصحاح : لما رُفِئت آية الحج جمع المرسون ﷺ أهل الأديان الستة المشركين ، والنصارى واليهود والصابئين والمجوس والمسيكين فحفظهم وقال : **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الحج فحجوا** ، فأمن به المشركون وكفروا به الملل الخمس ، وقالوا لا يؤمن به ، ولا يصلي إليه ، ولا نحجه ، فأنزل الله تعالى قوله (ومن كفر فإِنَّ الله غني عن العالمين) وهذا المول هو الكافري .

﴿ اسأله الثانية ﴾ اعلم أن تكليف تشريع في العبادات فساد ، منها ما يكون أصلاً معضولاً إلا أن تقاسمه لا تكون معقولة مثل الصلاة فإن أصلها معقول وهو تعظيم الله تعالى كيفية الصلاة غير معقولة ، وهذا الركعة أصلها دفع حجة البصير وكيفية غير معقولة ، والصوم صفة معقول ، وهو فهم النفس وكيفية غير معقولة ، أما الحج فهو سفر إلى موضع معين على كيفية مخصوصة ، فالحكمة في كسفات هذه العبادات غير معقولة وأصلها غير معلومة

إذا عرفت هذا فقولوا : قال المحققون إن الإتيان بهذا النوع من العبادة أدل على كمال العبودية واقتضاه والانتفاء من الإتيان بالسور الأول ، وإذا كان ذلك الاتي بالسور الأول بمقتضى أنه إما أن يكون لما عرف بعضه من وجود المنافع به ، أما الاتي ما وراء الثاني فإنه لا يأتي به إلا لمجرد الانتفاء والطاعة والعبودية ، فلجل هذا المعنى اقتضت الأمر بالحج في هذه الآية على سواها كثيرة من التوكيد (أحدها) قوله (والله على البأس حج البت) والمعنى أنه سبحانه لا يكونه إلهاً أنتم عبده هذه الطاعة فيجب الانتفاء سواء عرفوا وجه الحكمة فيها أو لم يعرفوا (وثانيها)

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿١٧٠﴾
 قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَقُولُونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مِمَّا آمَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ
 شُهَدَاءُ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ ۖ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٧١﴾

أنه ذكر (النفس) ثم أبدل منه (من استطاع إليه سبيلاً) وفيه ضربان من التأكيد ، أما أولاً فلا أن الألفاظ تثبت للفراد وتكرير ، وذلك يدل على شدة العناية ، وأما ثانياً فلأن اجن أولاً وفصل ثانياً وذلك يدل على شدة الاهتمام (وثالثها) أنه سبحانه عبر عن هذا الوجوب بمعنيين (إحداهما) لام الملك في قوله (والله) (وثانيتهما) كذمه (على) وهي المنجوز في قوله (والله على الشئ) (ورابعها) أن طاهر اللفظ يفضي بإجباره على كل (إنسان) يستطيعه ، وتعميم التكليف يدل على شدة الاهتمام (وخامسها) أنه قال (ومن كفر) مكان ، ومن لم يحج وهذا تغليظ شديد في حق تارك الحج (وسادسها) ذكر الاستعانة وذلك بما يدل على القوت والمسخط والخذلان (وسابعها) قوله (عن العالمين) ولم يقل عنه لأن المستغني عن كل العالمين أولى أن يكون مستغنياً عن ذلك الإنسان الواحد وعن جماعته ، فكان ذلك أدل على المسخط (وثمنها) أن في أول الآية قال (والله على الناس) فيبين أن هذا الإيجاب كان لمجرد عزه الإلهية وكبرياء الرربة ، لا لجر نفع ولا لمنع ضرر ، ثم أكد هذا في آخر الآية بقوته (فان الله غني عن العالمين) وما يدل من الأحكام على تأكيد الأمر ، الجمع ، فونه عليه الصلاة والسلام ، حوا قبل أن لا تحجوا منه قد هدم البيت مرتين ويرفع في الثالث ، وروى : حوا قبل أن لا تحجوا حوا قبل أن يجمع المرحانيه ، قيل : معناه أنه يتعذر عليكم السفر في البر في مكة لعدم الأمن أو غيره ، وعن ابن مسعود ، حوا هذا البيت قبل أن تبيت في اليداية شجرة لا تأكل منها ذبابة إلا هلكت .

قوله تعالى ﴿ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنه شهيد على ما تعملون ، قل يا أهل الكتاب لم تقولون عن سبيل الله مِمَّا آمَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

اعلم أن في كيفية النظم وجهين (الأول) وهو الأوفق : أنه تعالى لما أورد هذا لاث على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، ورد في التوراة والإنجيل من البشارة بمحمد ، ثم ذكر عيب ذلك شبهات القوم .

﴿ فانتبهة الأولى ﴾ ما يتعلق بنكار السج .

قوله تعالى : قل يا أهل الكتاب لم تكفرون ، الآية سورة آل عمران (٧١)

وأجاب عنها بقوله (كل الطعام حلال لئني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه) .
❖ **والشبهة الثانية** ❖ ما يتعلق بالكعبة وجوب استقبالها في الصلاة وجوب حجها .

وأجاب عنها بقوله (إن أول بيت وضع للناس) إلى آخرها ، فعند هذا تمت وظيفة الاستدلال وكمل الجواب عن شبهات أرباب الضلال ، فعند ذلك خاطبهم بالكلام الذين وقال (لم تكفرون بآيات الله) بعد ظهور البينات وزوال الشبهات ، وهذا هو الغاية القصوى في ترتيب الكلام وحسن نظمه .

❖ **الوجه الثاني** ❖ وهو أنه تعالى لما بين فضائل الكعبة وجوب الحج ، والغوم كانوا عالمين بأن هذا هو الدين الحق والملة الصحيحة قال لهم (لم تكفرون بآيات الله) بمسألة أن علمهم كونهما حقة صحيحة .

واعلم أن الميطل إما أن يكون ضالاً فقط ، وإما أن يكون مع كونه ضالاً يكون مضللاً ، والغوم كانوا موصوفين بالأمريين جميعاً فبدأ تعالى بالإتيان عليهم في العفة الأولى على سبيل الفرق واللفظ .

وفي الآية مسائل :

❖ **المسألة الأولى** ❖ بقوله (يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله) واختلفوا فيمن المراد بأهل الكتاب ، فقال الحسن : هم علماء أهل الكتاب الذين علموا صحة نبوته ، واستدل عليه بقوله (وأنتم شهداء) وقال بعضهم : بل المراد كل أهل الكتاب لأنهم وإن لم يعلموا فالحجة قائمة عليهم فكانهم يترك الاستدلال والعدول إلى التقليد بمنزلة من علم ثم أنكر .

هنا قيل : ولم حصص أهل الكتاب بالذكر دون سائر الكفار ؟ .

قلنا لوجهين (الأول) أنا بينا أنه تعالى أورد الدليل عليهم من التوراة والإنجيل على صحة نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، ثم أحسب عن شبههم في ذلك ، ثم لما تم ذلك خاطبهم فقال (يا أهل الكتاب) فهذا الترتيب الصحيح (الثاني) أن معرفتهم بآيات الله أقوى لخدم اعترافهم بالتحديد وصل النبوة ، ولعرفتهم بما في كتبهم من الشهادة بصدق الرسول والبشارة بنبوته .

❖ **المسألة الثانية** ❖ قالت المعتزلة في قوله تعالى (لم تكفرون بآيات الله) دلالة على أن الكفر من قبلهم حتى يصح هذا التوبيخ وكذلك لا يصح توبيخهم على طولهم وصحتهم ومرضهم .

(والجواب عنه) المعارضة بالعلم والداعي

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المراد (من آيات الله) الآيات التي نصيها الله تعالى على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، والمراد بكفرهم ما كفرهم بدلائلها على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام .

ثم قال (والله شهيد على ما تعملون) انوار للحاك والمعنى لم تكفروا بآيات الله التي دللتكم على صدق محمد عليه الصلاة والسلام . واحال أن الله شهيد على أعمالكم ومحاربتكم عليها . وهذه الحال توجب أن لا تجزوا على الكفر بآياته

ثم إنه تعالى لما أنكر عليهم في صلاحهم ذكر بعد ذلك الإنكار عليهم في إصلاصهم لصعوبة المسلمين فقال (قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن) قال الفر : يقال صدقته أصده هبطاً وأصدته أصدده ، وقرأ الخس (تصدون) يضم اثناء من أصدده ، قال المفسرون : وكان صددهم على سبيل الله بالقاء الشبه والشكوك في فنوب الضحفة من المسلمين وكانوا يكررون كون صفة في كتابهم .

ثم قال (تبعوها عوجاً) العوج بكسر العين قليل من الاستواء في كل ما لا يرى . وهو الدين والقول ، فها النبي الذي يرى فيدل فيه عوج بفتح العين كاختلاف الحق والشجرة ، قال ابن الأنباري : البهي يقتصر له على مفعول واحد . إذا لم يكن معه انلام فتقولك . بعيت المال والأجر والثواب وأريد ههنا : تبعون لها عوجاً ، ثم أسقطت اللام كما دلوا . وهذا درهماً أي وهبت لك درهماً ، ومثله صحت لك ظلياً وأشد

فتسرق غلامهم ثم نادى انظروا أصيدكم أم حماراً

أراد أصيد لكم والحاء في (تبعوها) عائدة إلى (السيل) لأن السيل يؤت وبذكر (العوج) يعني به الزرع والتحرير ، أي تتسمون لسبله الزرع والتحرير بالنسبة التي توردونها على الضعفة نحو قرحهم : السح بدل عن الساء وقولهم . إنه ورد في التوراة أن شريعة موسى عليه السلام باقية إلى الأبد ، وفي الآية وجه آخر وهو أن يكون (عوجاً) في موضع الحال والمعنى : تبعوها ضالين وذلك أنهم كانوا يدعون أنهم على دين الله ورسوله فساد الله تعالى : إنكم تعلمون سبيل الله صالين وعلى هذا القول لا يحتاج إلى إصهار اللام في تبعوها

ثم قال (وأنتم شهداء) وفيه وجوه (الأول) قال ابن عباس رضي الله عنهما : يعني أنتم شهداء أن في التوراة أن دين الله الذي لا ينيل غيره هو الإسلام (الثاني) وأنتم شهداء

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِبُّوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ آوَوْا إِلَيْكُم بِرُدِّوهُمْ بَعْدَ إِعْمَانِكُمْ كُفْرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٥٦﴾

على ظهور المعجزات على نبوته ﷺ (الثالث) وأنتم شهداء أنه لا يجوز الصد عن سبيل الله (الرابع) وأنتم شهداء بين أهل دينكم هدول بتقون بأقوالكم ويعولون على شهدائكم في عظام الأمور وهم الاحبار والعلماء : أن من كان كذلك فكيف يليق به الإصرار على البطلان والكذب والضلال والإضلال .

ثم قال (وما الله بغافل عما تعملون) والمراد التهديد ، وهو كقول الرجل لصده ، وقد أنكر طريقة لا ينفي على ما أنت عليه ولست غافلاً عن أمرك وإنما ختم الآية الأولى بقوله (والله شهيد) وهذه الآية بقوله (وما الله بغافل عما تعملون) وذلك لأنهم كانوا يظهرن الكفر بشيعة محمد ﷺ وما كانوا يظهرن الفداء الشبه في قلوب المسلمين ، بل كانوا يجادلون في ذلك بوجوه الخيل فلا جرم قال فيها أظهره (والله شهيد) وفيها أضمره (وما الله بغافل عما تعملون) وإنما كثر في الآيتين قوله (قل يا أهل الكتاب) لأن المقصود التوبيخ على ألطف الوجوه ، وتكرير هذا الخطاب اللطيف 'قرب إلى التلطف في صرلهم عن طريقتهن في الضلال والإضلال وأدل على النصيح لهم في الدين والإشفاق .

قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطبوا فريقتان من الذين آووا إليكم الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم ﴾ .

واعلم أنه تعالى لا حفر لفريق من أهل الكتاب في الآية الأولى عن الإغواء والإضلال حذر المؤمنين في هذه الآية عن إغوائهم وإضلالهم ومنعهم عن الالتفات إلى فوهم ، روى أن شاس ابن قيس اليهودي كان عظيم الكفر شديد الظن على المسلمين شديد الحسد ، فاتفق أنه مر على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج قرأهم في مجلس لهم يتحدثون ، وكان قد زال ما كان بينهم في الجاهلية من العداوة ببركة الإسلام ، فشن ذلك على اليهودي

فجس إلىهم وذكرهم بما كان بينهم من الحروب قبل ذلك وقرأ عليهم بعض ما قيل في تلك الحروب من الأشعار فتنازع القوم وتخاصموا وقالوا السلاح السلاح فوصل الخبر إلى النبي عليه السلام ، فخرج إليهم بجن معه من المهاجرين والأنصار ، وقال : أترجعون إلى أحواص الخاهلية وأنابن أظهركم ، وقد أكرمكم الله بالإسلام وألف بين قلوبكم فعرف القوم أن ذلك كان من عمل الشيطان ، ومن كيد ذلك اليهودي ، فالتقوا السلاح وعانق بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ ، فم كان يوم أتيح 'ولاً واحسن أحرأ من ذلك اليوم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية فضوله (إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب) يحتل أن يكون الفرد هذه الواقعة ، ويحتل أن يكون المراد جميع ما يحاولونه من أنواع الاصلال ، فين تدق أن المؤمنين إن لأنوا وقينوا منهم فوهم أدى ذلك حالاً بعد حال إلى أن يعودوا كفاراً ، والكفر يوجب اهلاك في الدنيا والدن ، أما في الدنيا فيوقع العداوة والبغضاء وهيجان الفتنة وتورث المحاربة المؤهبة إلى سفك الدماء ، وأما في الدنيا فيظاهر .

ثم قال تعالى (وكيف تكفرون وأنتم تثل على عليكم آيات الله وفيكم رسوله) وكلمة (كيف) تعجب ، والتعجب إنما يليق بمن لا يعلم السبب ، وذلك على الله تعالى ، والبراد منه . منع وانتقبط وذلك لأن تلاوة آيات الله عليهم حالاً بعد حال مع كون الرسول فيهم الذي يزيل كل شبهة ويقرر كل حجة ، كمنع من وقوعهم في الكفر ، فكان صدور انكفر على الذين كانوا يحضرة الرسول أعد من هذا الوجه ، فضوله (إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين) نية على أن المنصد الأقصى هؤلاء اليهود والمنافقين أن يردوا المسلمين عن الإسلام ثم أرشد المسلمين إلى أنه يجب أن لا ينصت إلى قولهم ، بل التراجع أن يرجعوا عند كل شبهة يسمعونها من هؤلاء اليهود إلى الرسول ﷺ ، حتى يكشف عنها ويرزق وجه الشبهة فيها .

ثم قال (ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم) والمنصود : إنه لما ذكر الوعيد ردى بهذا الوعد ، والمعنى : ومن يتمسك بنين الله ، ويجوز أن يكون حثهم على الإلتحاة إليه في دفع شرور الكفار والأعصام في اللغة الاستمسك بالشيء ، وأصله من العصمة ، والعصمة منع في كلام العرب ، والعاصم المانع ، واعتصم فلان بالشيء إذا تمسك بالشيء في منع نفسه من الوقوع في إفة ، ومنه قوله تعالى (ولقد رآه ذنه عن نفسه فاستعصم) قال قتادة : ذكر في الآية أمرين يتحان عن الوقوع في الكفر (أحدهما) تلاوة كتاب الله (والثاني) كون الرسول فيهم . أما الرسول ﷺ فقد مضى إلى رحمة الله ، وأما الكتاب فباق على وجه الدهر .

وأما قوله (فقد هدى إلى صراط مستقيم) فقد احتج به أصحابنا على أن فعل العبد

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ، وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٧٥﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ الْأَرْضِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٧٦﴾

مُحَلِّقُ اللَّهِ تَعَالَى ، قَالَوا : لَأنَّ جَمَلَ اعْتِصَامِهِمْ هِدْيَةً مِنْ اللَّهِ ، فَلَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ الْأَعْيَادَ مَعْلَا لَهُمْ وَهِدَايَةً مِنْ اللَّهِ ثَبَتَ مَعْنَاهُ ، أَمَّا الْمُعْتَرِكَةُ فَقَدْ ذَكَرُوا فِيهِ وَجُوهًا (الْأَوَّلُ) أَنَّ لِمَوْلَاهُ هَذِهِ الْمُبْدَايَةَ الزِّيَادَةَ فِي الْأَنْطِلَاقِ الْمُرْتَبِيةِ عَنِ آدَاءِ الطَّاعَاتِ كَمَا قَالَ تَعَالَى (يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ بِرِضْوَانِهِ لِمِجْلِ السَّلَامِ) وَهَذَا اخْتِيَارُهُ الْقَوْلَ رَحِمَهُ اللَّهُ (وَالثَّانِي) أَنَّ التَّقْدِيرَ مَنْ عَصَاهُ مَا اللَّهُ فَتَعَدَّ مَا يَعْمَلُ فَإِنَّهُ هَدَى إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ لِيَجْعَلَ ذَلِكَ (الثَّلَاثُ) أَنَّ مَنْ يَعْتَصِمُ بِاللَّهِ فَقَدْ حَسَنَ إِلَى طَرِيقِ نِعْمَةٍ (وَالرَّابِعُ) هَذَا صَاحِبُ الْكُشَافِ (فَقَدْ هَدَى) أَيْ فَقَدْ حَصَلَ لَهُ الْهُدَى لَا عِوَالَهُ ، كَمَا يَقُولُ (إِذَا حُتَّ فَلَا تَأْفُقْ أَفْطَحْتُ ، كَانَ الْهُدَى قَدْ حَصَلَ فَهُوَ بِمَجْرَعِهِ حَامِلًا) وَذَلِكَ لِأَنَّهُ اعْتَصَمَ بِاللَّهِ فَتَوَقَّعَ لِنِعْمَتِهِ كَمَا أَنَّ قَاصِدَ الْمَكْرِمِ مُوَجَّعٌ لِلْإِفْلَاحِ عِنْدَهُ

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ، وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ الْأَرْضِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

اعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى ثَلَاثُ مَآثِرٍ الْعَزِيزِ مِنْ إِضْلَالِ الْكَافِرِ وَمِنْ تَلَبُّسِهِ فِي آيَةِ الْأَوَّلَى أَمْرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي عِنْدِ الْآيَاتِ بِمَجَامِعِ الطَّاعَاتِ ، وَمَعَانِدِ الْحِمَمَاتِ ، فَأَمْرُهُمْ 'وَلَا تَسْفُوا اللَّهَ وَهَوَاقِفُهُ (اتَّقُوا اللَّهَ) وَثَابِتًا بِالْإِعْتِصَامِ بِحَبْلِ اللَّهِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ) وَثَلَاثُ بَيِّنَاتٍ بِأَنَّ اللَّهَ وَهُوَ قَوِيٌّ ، وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، وَالصَّبْرُ فِي هَذَا التَّرْتِيبِ أَنَّ فِعْلَ الْإِنْسَانِ لَا يَدْرَأَنَّ يَكُونُ مَعْلُومًا ، إِمَّا بِالرَّغْبَةِ وَإِمَّا بِالرَّغْبَةِ ، وَالرَّغْبَةُ مُقَدِّمَةٌ عَلَى الرَّغْبَةِ ، فَإِنَّ دَعْوَةَ الصَّرْرِ مُنْذِرٌ عَلَى جِلْبِ التَّغْيِيرِ ، هَوَاقِفُهُ (اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ) إِشْرَافٌ إِلَى التَّخَوُّفِ مِنْ عِصْيَانِ اللَّهِ تَعَالَى ، ثُمَّ جَعَلَهُ سَبَبًا لِلْأَمْرِ بِاتِّعَاضِكَ بِدِينِ اللَّهِ وَالْإِعْتِصَامِ بِحَبْلِ اللَّهِ ، ثُمَّ أَرَادَهُ بِالرَّغْبَةِ ، وَهِيَ قَوْلُهُ

(وادكروا النعمة الله عليكم) فكانه قال : خوف عقاب الله يوجب ذلك ، وكثرة نعم الله توجب ذلك فلم تبق جهة من الجهات الموجبة للعمل إلا وهي حاصلة في وجوب انقيادكم لأمر الله ووجوب طاعتكم لحكم الله ، فظهر بما ذكرناه أن الأمور الثلاثة المذكورة في هذه الآية مرتبة على أحسن الوجوه ، وليرجع إلى التفسير :

أما قوله تعالى (اتقوا الله حق تقاته) ففيه مسائل :

المسألة الأولى : قال بعضهم هذه الآية منسوخة وذلك لما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين لأن حق تقاته : أن يطاع فلا يعصى طرفه عين ، وأن يشكر فلا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى ، والعباد لا طاقة لهم بذلك ، فأنزل الله تعالى بعد هذه (فاتقوا الله ما استطعتم) ونسخت هذه الآية أولها وبه يسخ أخرى وهو قوله (ولا تخشوا إلا وأنتم مسلمون) وزعم جمهور المحققين أن القول بهذا النسخ باطل واحتجوا عليه من وجوه (الأول) ما روي عن معاذ أنه عليه السلام قال له : هل تدري ما حق الله على العباد ؟ قال الله : ورسوله أعلم ، قال : هو أن يعبدوه ولا شركوا به شيئاً ، وهذا لا يجوز أن يسخ (الثاني) أن معنى قوله (اتقوا الله حق تقاته) أي كما يجب أن تنفي ، وذلك بأن يحتب جميع معاصيه ، ومثل هذا لا يجوز أن يسخ لأنه إباحة لبعض المعاصي ، وإذا كان كذلك صار معنى هذا ومعنى قوله تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) واحداً لأن من اتقى الله ما استطاع فقد اتقاه حق تقاته ، ولا يجوز أن يكون المراد بقوله (حق تقاته) ما لا يستطيع من التقوى ، لأن الله سبحانه أخسر أنه لا يكلف نفساً إلا ريسها والوسع دون الطاقة ونظير هذه الآية قوله (وجاهدوا في الله حق جهاده) .

فإن قيل : أليس أنه تعالى قال (وما قدرنا الله حق قدره) .

قلنا : مسين في تفسير هذه الآية أنها جاءت في القرآن في ثلاثة مواضع وكلها في صفة الكفار لا في صفة المسلمين ؛ أما الذين قالوا : إن المراد هو أن يطاع فلا يعصى فهذا صحيح والذي يصدر عن الإنسان على سبيل السهو والسيان فغير فادح فيه لأن التكليف مرفوع في هذه الأوقات ، وكذلك قوله : أن يشكر فلا يكفر ، لأن ذلك واجب عليه عند خلو ذهنه عن الله بالبال ، فاعاد عند السهو فلا يجب ، وكذلك قوله : أن يذكر فلا ينسى ، فإن هذا إنما يجب عند الدعاء والعبادة وكل ذلك مما لا يطلق ، فلا وجه لما ظهروا أنه منسوخ

قال المصنف رضي الله تعالى عنه ، أقول : للأولين أن يضربوا قلوبهم من وجهين (الأول) أن كنه الإلهية غير معلوم للمخلوق ، فلا يكون كمال فهمه وقدرته وعجزته معنوماً

قوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ، الآية سورة النور ٢٧٧ »

للخلق ، وإذا لم يحصل العلم بذلك لم يحصل الخوف والاتق بذلك فلم يحصل الاتقاء للاتق به (الثاني) أنهم أمروا بالاتقاء الغلظ والمخفف معاً فتسبح الغلظ وبني المخفف ، وقيل : إنه هذا باطل ، لأن الواجب عليه أن يقي ما أمكن والنسخ إجماعاً حتى في الواجبات لا في النهي ، لأنه يجب رفع الحجر عما يقتضي أن يكون الإنسان محموراً عنه وإنه غير جائز .

في المسألة الثانية ﴿ قوله تعالى (حق نقته) أي كما يجب أن يقي بدل عليه قوله تعالى (حق اليقين) ويقال : هو الرجل حقاً ، ومنه قوله عليه السلام « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » وعن علي رضي الله عنه أنه قال : أنا علي لا كذب أنا ابن عبد المطلب ، والنهي اسم الفعل من فوقت نقبت : كما أن الهدى اسم الفعل من قولك امتدبت .

أما قوله تعالى (ولا تخونوا إلا وأنتم مسلمون) فلفظ انتهى واقع على الموت ، لكن المقصود الأمر بالإتقاة على الإسلام ، وذلك لأنه لما كان يحكمهم الثبات على الإسلام حتى إذا نكسهم الموت أضافهم وهم على الإسلام - صار الموت على الإسلام بمنزلة ما قد دخل في إمكانهم ، ومضى الكلام في هذا عند قوله (إن الله اصطفى لكم الدين فلا تخونوا إلا وأنتم مسلمون) .

ثم قال تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعاً) .

واعلم أنه تعالى لما أمرهم بالاتقاء عن المحظورات أمرهم بالتمسك بالإعتصام بما هو كالأصل لجميع الخبرات والبطائنات ، وهو الاعتصام بحبل الله .

واعلم أن كل من يمشي على طريق دقيق يخاف أن تزلزل رجته ، فإذا تمسك بحبل مشدود انصرف بهجته ذلك الطريق آمن من الخوف ، ولا شك أن طريق الحق طريق دقيق ، وقد أنزل رجل الكثير من الخلق عنه ، فمن اعتصم بدليل الله وبنياته فإنه يأمن من ذلك الخوف ، فكان المراد من الحبل هذا كل شيء يمكن اتصاف به إلى الحق في طريق الدين ، وهو أنواع كثيرة ، فذكر كل واحد من التفسيرين واحداً من تلك الأشياء ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : المراد بالحبل هذا العهد المذكور في قوله (وأوفوا بالعهد أوف بعهدكم) وقال (إلا بحبل من الله وحبل من الناس) أي بعهد ، وإنما سمي العهد حبلًا لأنه يزول عنه الخوف من الذهاب إلى أي موضع شاء ، وكان كالحبل الذي من تمسك به زان عنه الخوف ، وقيل : إنه القرآن ، وروى عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : أميتها ستكون فتنة قيل : فما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله فيه ناس من قبلكم وغير من بعدكم وحكم ما بينكم وهو حبل الله المتين ، وروى عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال : هذا القرآن حبل الله ، وروى عن

أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال : إني نزلت فيكم التقليل . كتاب الله تعالى يحيل عليكم من النساء إلى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ، وقيل : إنه دس الله ، وقيل : هو طاعة الله ، وقيل : هو إخلاص التوبة ، وقيل : إحصاءه . لأنه تعالى ذكر عقيب ذلك قوله (ولا تفرقوا) وهذه الأقوال كلها متطابقة ، والتحقيق ما ذكرنا أنه لما كان النازل في الشر يعتصم بحيل تحرزاً من السقوط فيها . وكان كتاب الله وعهده وذنبه وطاعته وموافقته لطاعة المؤمنين حرزاً للصاحبه من السقوط في قعر جهنم جعل ذلك حلاً لله ، وأمره بالاعتصام به .

ثم قال تعالى (ولا تفرقوا) وفيه مسائلتان :

❖ المسألة الأولى : في التأويل وهو (الأول) أن ينهي عن الاختلاف في الدين وذلك لأن الحق لا يكون إلا واحداً ، وما عداه يكون جهلاً وضلالاً . فلما كان كذلك وجب أن يكون النهي عن الاختلاف في الدين ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (فماذا بعد الحق إلا الضلال) (والثاني) أنه ينهي عن المعادة والخاصة ، فانهم كانوا في الجاهلية موافقين على المحاربة والمنازعة فنهى الله عنهم عنها (الثالث) أنه ينهي عما يوجب التفرقة وبزيل الألفة والمحبة

واعلم أنه روى عن النبي ﷺ أنه قال : ستفرق أمتي على سبعين فرقة النحوي منهم واحد والبقية في النار ف قيل : ومن هم يا رسول الله ؟ قال الجماعة . وروى : السرد الأعظم ، وروى : ما أنا عليه وأصحابي ، والوجه المعقول فيه : أن النهي عن الاختلاف والأمر بالانفلاق يدل على أن الحق لا يكون إلا واحداً ، وإذا كان كذلك كان النحوي واحداً .

❖ المسألة الثانية : استدللت نفاة القياس بهذه الآية ، فقالوا : الأحكام الشرعية إما أن يقال : إنها سبحانه نصب عليها دلائل يقينية أو نصب عليها دلائل ظنية ، فإن كان الأول امتنع الاكتفاء فيها بالقياس الذي يعبد الظن ، لأن الدليل الظني لا يكتفي به في الموضع اليقيني ، وإن كان الثاني كان الأمر بالرجوع إلى تلك الدلائل الظنية بتصحيح وقوع الاختلاف ووقوع النزاع ، فكان ينبغي أن لا يكون التفرق والتبايع مهيأ عنه ، لكنه منهي عنه بقوله تعالى (ولا تفرقوا) وقوله (ولا تبايعوا) ولغتان أن يفسود : الدلائل الدالة على العمل بالقياس تكون مخصصة لعوم قوله (ولا تفرقوا) ولعوم قوله (ولا تبايعوا) والله أعلم .

ثم قال تعالى (وذكر النعمة الله عليكم) واعلم أن نعم الله على الخلق إما دينية وإما دنيوية وإنه تعالى ذكرها في هذه الآية ، أما النعمة الدينية فهي قوله تعالى (إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمة إخوان) وفيه مسائل :

❖ المسألة الأولى : قيل إن ذلك اليهودي نا ألقى الفتنة بين الأوس والخزرج وهم كل

واحد منها محاربة صاحبه ، فخرج الرسول ﷺ ولم يزل يرفق بهم حتى سكنت الفتنة . وكان الأوس والخزرج أخوين لأب وأم ، فوفعت بينهما العداوة ، وتطاولت الحروب مائة وعشرين سنة إلى أن أطفأ الله ذلك بالإسلام ، فالآية تبار إليهم وإلى أحواصهم ، فإنهم قبل الإسلام كان يمارب بعضهم بعضاً ويغض بعضهم بعضاً ، فلما أكرمهم الله تعالى بالإسلام صاروا إخوة متوأمين متناصحين وصبروا إخوة في الله . وتطير هذه الآية قوله (لو أنمقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) .

واعلم أن كل من كان وجهه إلى الدنيا كان معادياً لأكثر الخلق ، ومن كان وجهه إلى خدمة الله تعالى لم يكن معادياً لأحد ، والسبب فيه أنه ينظر من الحق إلى الخلق فيرى الكل أسيراً في قبضة القضاء والقدر فلا يعادي أحداً ، ولهذا قيل : إن العارف إذا أمر برفق ويكون ناصحاً لا يعنف ويعير فهو مستبصر بسر الله في القدر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الزجاج : أصل الأخ في اللغة من اشوخي وهو الطلب فالأخ مقصده مقصد أخيه ، والصديق مأخوذ من أن يصدق كل واحد من انصديقين صاحبه . في قلبه ، ولا يخفي عنه شيئاً وقيل أبو حاتم قال أهل البصرة : الأخوة في النسب والأخوان في الصداقة ، قال وهذا غلط ، قال الله تعالى (إنا المؤمنون إخوة) ولم يعن النسب ، وقال (أو بيوت إخوانكم) وهذا في النسب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (فأصبحتم بنعمته إخواناً) يدل على أن المعاملات الحسنة الجارية بينهم بعد الإسلام إنما حصلت من الله ، لأنه تعالى حين تلك الداعية في قلوبهم وكلنت تلك الداعية نعمة من الله مستلزمة لحصول الفعل ، وذلك يطين قول المعتزلة في خلق الأفعال ، قال النكسي : إن ذلك بالهداية والبيان والتحذير والعرفه والألطاف .

قلنا : كل هذا حاصل في زمان حصول المحاورات والمقاتلات ، فاختصاص أحد الزمانيين بحصول الألفة والنجدة لا بد أن يكون لأمر زائد على ما ذكرتم .

ثم قال تعالى (وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها) .

واعلم أنه تعالى لما شرح النعمة الدينية ذكر بعدها النعمة الأخروية ، وهي ما ذكره في آخر هذه الآية ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المعنى أنكم كنتم مشركين بكفركم على جهنم ، لأن جهنم مشبهة بالحفرة التي فيها النار فجعل استحقاقهم للنار بكفرهم كالإشراف منهم على النار ، وانصير

منهم إلى حفرتها ، فيبين تعالى أنه أنقذهم من هذه الحفرة ، وقد أربوا من الوقوع فيها .

قلبت المتزنة : ومعنى ذلك أنه تعالى لطف بهم بالرسول عليه السلام وصائر ألقاه حتى آمنوا قال أصحابنا : جميع الأنطاف مشترك فيه بين المؤمن والكافر ، فلو كان فاعل الإيمان وموجد هو العبد لكان العبد هو الذي أنقذ نفسه من النار ، والله تعالى حكيم بأنه هو الذي أنقذهم من النار ، فدل هذا على أن حاله أفعال العبد هو الله سبحانه وتعالى .

• المسألة الثانية • شفا الشيء حرفه مقصور ، مثل شفا البشر والجمع الإشفاء ، ومنه يقال : أنشئ على الشيء ، إذا أشرف عليه كأنه بلغ شفاه ، أي حده وحرفه وقوله (فأنقذكم منها) قال الأزهري : يقال أنقذته وأنقذته واستنقذته ، أي خلصته ونجّيته .

وفي قوله (فأنقذكم منها) سؤال وهو : أنه تعالى إنما ينقذهم من الموضع الذي كانوا فيه وهم كانوا على شفا حفرة ، وشفا الحفرة مذكر فكيف قال منها ؟

وأجابوا عنه من رجوه (الأول) التضمير عائداً إلى الحفرة ، ولما أنقذهم من حفرة فقد أنقذهم من شفا الحفرة لأن شفاها منها (والثاني) أنه راجعة إلى النار ، لأن المقصد الإنجاء من النار لا من شفا الحفرة ، وهذا قول الزجاج (الثالث) أن شفا الحفرة ، وشفاها حرفها ، فجاء أن يجبر عنه بالتذكير والتأنيث .

• المسألة الثالثة • أنهم لو ماتوا على الكفر لوقعوا في النار ، فعشنت حياتهم التي يتوقع بعدها الوقوع في النار بالعمود على حرفها ، وهذا فيه تنبيه على تحخير مدة الحياة ، فإنه ليس بين الحياة وبين الموت المستلزم للوقوع في حفرة إلا ما بين طرف الشيء ، وبين ذلك الشيء ، ثم قال (كذلك بين الله) الكف في موضع نصب ، أي مثل التبيان المذكور بين الله لكم سائر الآيات لكي تهتدوا بها ، قال الحنبلي : الآية تدل على أنه تعالى يريد منهم الإعتقاد ، أحاط الواحدي عنه في البسيط فقال : بل المعنى لتكونوا على رجاء هداية .

وأقول : وهذا اجواب ضعيف لأن على هذا التفسير يلزم أن يريد الله منهم ذلك الرجاء ومن المعلوم أن على مذهبا قد لا يريد ذلك الرجاء ، فالجواب الصحيح أن يتدل كلمة (لعل) للترجي ، والمعنى أما فعلنا فعلا يشبه فعلى من يترجى ذلك والله أعلم .

قوله تعالى • ولئن كنتم أممّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر

وَلتكن منكم أمة يدعون إلى الخير وَيامرون بالمعروف ويمنون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴿١٨١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تفرقوا وَاختلفوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأولئك لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَادْخُلُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٨٣﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٨٤﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نتلوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ بِرِيدُ ظُلُمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٨٥﴾ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٨٦﴾

وأولئك هم المفلحون ولا تكونوا كالألذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم يوم تبيض وُجوه وتسود وُجوه فأما الذين اسودت وُجوههم أكفرتهم بعد إيمانكم فادخلوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين ابيضت وُجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظُلُمًا للعالمين ، والله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور ﴿

اعلم أنه تعالى في الآيات المتقدمة عاب أهل الكتاب على شينين (أحدهما) أنه عليهم عمل الكفر ، فقال (يا أهل الكتاب لم تكفرون) ثم بعد ذلك عابهم على سببهم في إلقاء الغير في الكفر ، فقال (يا أهل الكتاب سم تصفون عن سبيل الله) فيما انفصل به إلى غطاة المؤمنين أمرهم أولاً بتقصي الإيمان ، فقال (اتقوا الله حتى تقائه ولا تموتوا إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعاً) ثم أمرهم بالسعي في إلقاء الغير في الإيمان والطلعة ، فقال (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير) وهذا هو الترتيب الحسن الموافق للعقل ، وفي الآية مسائلان :

﴿ مسألة الأول ﴾ في قوله (منكم) قولان (أحدهما) أنه (من) ههنا ليست

للتبعض (الدين) (الأول) أن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل أمة في قوله (كنتم خير أمة أخرجت للناس لأمرون بالمعروف ونهون عن المنكر) (والثاني) هو أنه لا مكلف إلا ويجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إما بيده ، أو بلسانه ، أو بقلبه . ويجب على كل أحد وقع الضرر عن النفس إذا ثبت هذا فقول : معنى هذه الآية كونوا أمة دعوة إلى الخير أمرين بالمعروف ناهين عن المنكر ، وأما كلمة (من) فهي هنا للتبعض لا للتبعض كقوله تعالى (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) ويقال أيضاً : لفلان من أولاده جند ولأما من علمانه عسكر يريد بذلك جميع أولاده وعلمانه لا بعضهم . كذا هيئاً ، ثم قالوا : إن ذلك وإن كان واجباً على الكل إلا أنه متى قام به قوم سقط التكليف عن الباقين ، ويظهر قوله تعالى (انمروا خفلاً وثقالاً) وقوله (إلا تنفروا بعدكم عهداً ألياً) فالأمر عام ، ثم إذا قامت به طائفة وقعت الكفاية وزال التكليف عن الباقين .

❖ والقول الثاني (أن (من) هيئاً للتبعض ، والقاتلون بهذا القول اختصوا أيضاً على قولين (أحدهما) أن فائدة كلمة (من) هي أن في القوم من لا يقدر على الدعوة ولا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل السام والمريض والعاجزين (والثاني) أن هذا التكليف يختص بالعلماء وينك عليه وجهان (الأول) أن هذه الآية مشتملة على الأمر بثلاثة أشياء : الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر : ومعلوم أن الدعوة إلى الخير مشروطة بالعلم بالخير والمعروف والمنكر ، فإن اخضع يوماً عاد إلى الباطل وأمر بالمعسر ونهى عن المعروف ، ورما عرف الحكم في مذهبه وجهله في مذهب صاحبه فهنا عن غير معكر ، وقد يفلظ في موضع اللسان ويلين في موضع الخلقة ، وينكر على من لا يريد إنكاره إلا نادياً ، ثبت أن هذا التكليف منوجه على العلماء ، ولا شك أنهم بعض الأمة ، ويظهر هذه الآية فونه تعالى (فنمروا نفر من كل هرفة منهم خائفة ينبغيهم في الدين) (والثاني) أما جمعنا على أن ذلك واجب على سبيل الكفاية بمعنى أنه متى قام به البعض سقط عن الباقين ، وإذا كان كذلك كان المعنى لهذه الآية بذلك بعضكم ، فكان في الحقيقة هذا إيجاباً على البعض لا على الكل ، والله أعلم .

❖ وفيه قول رابع (وهو قول الضحاك) إذ المراد من هذه الآية أصحاب رسول الله ﷺ لأنهم كانوا يتعلمون من الرسول عليه السلام ويعلمون الناس ، والتأويل على هذا الوجه كونوا أمة مجتمعين على حفظ سنن الرسول ﷺ وتعلم الدين

❖ المسألة الثانية (هذه الآية اشتملت على التكليف بثلاثة أشياء ، أولها الدعوة إلى الخير ثم الأمر بالمعروف ، ثم النهي عن المنكر ، ولأجل العطف يجب كون هذه الثلاثة متغايرة ، فنقول : أما الدعوة إلى الخير فأنفصلها الدعوة إلى إثبات ذات الله وصعده وتقديسه

عن مشابهة الممكنات وإما قلنا إن الدعوة إلى الخير تشتمل على ما ذكرنا لقوله تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة) وقوله تعالى (قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) .

إذا عرفت هذا فقول : الدعوة إلى الخير تنقسم تحت نوعان (أحدهما) الترغيب في فعل ما ينهي وهو المعروف (والثاني) الترغيب في ترك ما لا ينهي وهو النهي عن المنكر فذكر الجنس أولاً ثم أتبعه نوعيه سالفة في بيان ، وأما شرائط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فمذكورة في كتب الكلام

ثم قال تعالى (وأولئك هم المفلحون) وقد سبق تفسيره وفيه مسائل :

❖ المسألة الأولى ❖ منهم من تمسك بهذه الآية في أن القاسق ليس له أن يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ، قال لأن هذه الآية تدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من المفلحين ، والقاسق ليس من المفلحين ، فوجب أن يكون الأمر بالمعروف ليس بنفسه ، وأجيب عنه بأن هذا ورد على سبيل الغالب فإن الظاهر أن من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر لم يشرع فيه إلا بعد صلاح أحواله نفسه ، لأن العاقل يقدم مهم نفسه على مهم الغير ، ثم إنهم أكدوا هذا بقوله تعالى (أنأمروا الناس بالبر وتسنوا أنفسكم) وبقوله (لم تقولوا ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) ولأنه لم يجز ذلك لجاز أن يزني بأمرأة أن يأمرها بالمعروف في أنه لم يكشف وجهها ومعلوم أن ذلك في غاية الفضح ، والعشاء قالوا : انفسق له أن يأمر بالمعروف لأنه وجب عليه ترك ذلك المنكر ووجب عليه النهي عن ذلك المنكر ، فيأن ترك أحد الزوجين لا ينزله ترك الواجب الآخر ، وعن السلف : مروا بالخير وإن لم تفعلوا ، وعن الحسن أنه سمع مطرف ابن عبيدة يقول : لا أقول ما لا أفعل ، فقال : وأينا يفعل ما يقول ؟ ود الشيطان لو ظفر بهذه الكلمة منكم فلا يأمر أحد بمعروف ولا ينهي عن المنكر .

❖ المسألة الثانية ❖ عن النبي ﷺ ، من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر كان خليفة الله في أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه ، وعن علي رضي الله عنه : أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقال أيضاً : من لم يعرف يقبله معروفاً ولم ينكر منكراً فكس وجعل أعداءه

أسفله ، وروى الحسن عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال : يا أيها الناس اتقوا بالمعروف وانتهوا عن المنكر فميتشوا بخير ، وعن الثوري : إذا كان الرجل محباً في جيرانه محموداً عند إخوانه فاعلم أنه مداهن .

❖ المسألة الثالثة ❖ قال الله سبحانه وتعالى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فبد بخت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي ترخي حتى تنفي ، إلى أمر الله) قدم الإصلاح على القتال ، وهذا يقتضي أن يبدأ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالأدنى منزلياً إلى الأعلى فالأعلى ، وكذا قوله تعالى (وأهملوه في المضاجع وأصبروهن) يدل على ما ذكرناه ، ثم لا يتم الأمر بالتغليظ والتشديد وجب عليه التمهيد بالليد ، فإن سجد قبل اللسان ، فإن عجز بالمعذب ، وأحوال الناس مختلفة في هذا الباب .

ثم قال تعالى (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات) .

وفي الآية مسائل :

❖ المسألة الأولى ❖ في النظم وجهان (الأول) أنه تعالى ذكر في الآيات المقدمة أنه بين في التوراة والإنجيل ما يدل على صحة دين الإسلام وصحة نبوة محمد ﷺ ، ثم ذكر أن أهل الكتب حسدوا محمداً ﷺ واحتلوا في إلقاء الشكوك والشبهات في تلك النصوص الظاهرة . ثم إنه تعالى أمر المؤمنين بالإيمان بالله والدعوة إلى الله ، ثم عثم ذلك بأن حذر المؤمنين من مثل فعل أهل الكتاب ، وهو إلقاء الشبهات في هذه النصوص واستخراج التوريات الفاسدة الرافعة لدلالة هذه النصوص فقال : (ولا تكونوا) أي المؤمنون عند سماع هذه البينات (كالذين تفرقوا واختلفوا) من أهل الكتاب (من بعد ما جاءهم) في التوراة والإنجيل تلك النصوص الظاهرة فعمل هذا الوجه تكون الآيات من تسعة جملة الآيات المقدمة (والثاني) وهو أنه تعالى لما أمر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وذلك مما لا يتم إلا إذا كان الأمر بالمعروف قادراً على تنفيذ هذا التكليف على الظلمة والعالين ، ولا تحصل هذه القدرة إلا إذا حصلت الألفة والمحبة بين أهل الحق والدين ، لا حرم جذبهم تعالى من الفرقة والاختلاف لكي لا يصير ذلك سبباً لعجزهم عن القيام بهذا التكليف ، وعلى هذا الوجه تكون هذه الآية من تسعة الآية السابقة فقط .

❖ المسألة الثانية ❖ قوله (تفرقوا واختلفوا) فيه وجوه (الأول) تفرقوا واختلفوا بسبب اتباع أغرى وطاعة النفس والجسد ، كما أن إبليس ترك نص الله تعالى بسبب حسده لأدم (الثاني) تفرقوا حتى صار كل فريق منهم يصدق من الأنبياء بعضاً دون بعض ، فصاروا بذلك إلى العداوة والفرقة (الثالث) صاروا مثل مبتدعة هذه الأمة ، مثل المشبهة والفسادية والخشوية .

في المسألة الثالثة قال بعضهم (تعرفوا واختلّفوا) معاهم واحد، وذكرها للتأكيد وقيل: بل معاهم مختلف، ثم اختلفوا فقبل تعرفوا، التعداد واختلّفوا في الشين، وقيل: تعرفوا حسب المصريح النبويّات القاسدة من ذلك الخصوص، ثم اختلفوا بأن حاول كل واحد منهم نصرته وبمذهبه (ولذلك) تعرفوا، بل إنهم بأن صار كل واحد من أولئك الأحزاب رئيساً في ملة، ثم اختلفوا بأن صار كل واحد منهم يدعى أنه نبي الحق وأن صاحبه نبي الباطل، وأنقول: إنك إذا نظرت علمت أن أكثر عملة هذا الزمان صاروا موصوفين بهذه نصية فيبأن الله العظم والرحمن.

في الآية الرابعة: ﴿وَيَقُولُ مَنْ يَدْعُنَا إِلَى الْبَيِّنَاتِ وَلَوْ أَنَّهُمْ (حُجَّتُهُمْ) خُورًا حُجَّتَ عَلَامَهُمْ مِنَ الْقَبْلِ إِذَا كُنَ مِنَ الْخَائِثِ مُتَقَدِّمًا﴾.

ثم قال تعالى (وأبشركم عذاب عقيم) يعني الذين تفرقوا عن عذاب عقيم في
الآخرة سبب نفاهم ، فكان ذلك رحمة لهم من العذاب.

ثم قال تعالى (يوم نبيض وجوه وتسود وجوه) اعلم انه تعالى لما أمر اليهود بحصر الأنبياء وهدمهم عن بعض ، ثم أمر المسلمين بأن يعضواهم عن الحصر أتبع ذلك بذكر أحوال الأعداء ، ناكثاً للأمر ، وفي الآية مسائل .

(المائدة الأولى) في مصب (يوم) وجهان (الأول) أنه نصبت على الظرف ،
والنصبير : ولهم عذاب عظيم في هذا اليوم . وعلى هذا التفسير فبعد (وجهان) أن
ذلك العذاب في هذا اليوم . ولا حرج أن من حكم هذا اليوم أن يبيض فيه وجوه وتؤد وجوه
(والناس) أنه منصوب بالماضي (ذكر) .

في المسألة الثانية في هذه الآية لما ناطق من قول تعالى (ويوم انقضاء نرى الذين كانوا على الله وحدهم مسودين) ومنها قوله (ولا يرون وجوههم فخر ولا ذلة) ومنها قوله (وجود يومئذ صدحكة مستمرة) وجود يومئذ غمها عميرة ترهقها غيرة) ومنها قوله (وجود يومئذ نصرة إلى ربها مائلة ووجود يومئذ نصرة نص أن يفعل بها خدعة) ومنها قوله (تعرف في وجوههم نصرة التميم) ومنها قوله (يعرف المجرمون بهم)

إذا عرفت هذا فنقول : في هذا البيص والسواد والغبرة والفقره والخضرة للمفسرين قولان (أحدهما) أن البيص مجاز عن الفزع والسورور ، والسواد عن الحُم ، وهذا غلط مستحيل ، قال تعالى (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم) وبذلك الغلان عذتي بد الخبز ، أي جليلة شدة . وما سلم الحسن من علي رضي الله عنه الأمر المعذية قال له بعضهم : يا مسود وجه المؤمن ، ولعنه في الثوب .

يا بياض القسرون سودت وجهي
 فلعمري لأخفينك جهدي
 عن عيالي وعن عيان الحيول
 وسواد لوجهك الملعون

وتقول العرب لمن نال غيته وفاز بمطلوبه : ابيض وجهه ومعناه الاستشعار والنهوض وعند انتهته بالشروع يقولون : الحمد لله الذي بفضله وصل إليكم هذه الآية إن المؤمن يرد يوم القيامة على ما قدمته وجهه واخبر لونه وتبينت صورته ، فعلى هذا معنى الآية إن المؤمن يرد يوم القيامة على ما قدمته يداه فإن كان ذلك من الحسنات يبيض وجهه بمعنى استسلم بنعم الله وقضيه ، وعلى ضد ذلك إذا رأى الكافر أعماله القبيحة محصاة اسود وجهه بمعنى شدة الحزن والحلم وهذا قول أبي مسلم الأصفهاني .

❦ والقول الثاني ❦ إن هذا البياض والسواد يحصلان في وجوه المؤمنين والكافرين ، وذلك لأن اللفظ حقيقة فيها ، ولا دليل يوجب ترك الحقيقة - فوجب المصير إليه ، قلت : ولأبي مسلم أن يقول : الدليل على ما قلناه ، وذلك لأنه تعالى قال (وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غمرة ترهقها فترة) فجعل الغبرة والفترة في مقابلة الضحكة والاستشعار ، فلو لم يكن المراد بالغبرة والفترة ما ذكرنا من المتعذر لما صبح جعله مقابلاً ، فعلما أن المراد من هذه الغبرة والفترة الغم والحزن حتى يصح هذا التقابل ، ثم قال القائلون بهذا القول ، الحكمة في ذلك أن أهل الموقف إذا رأوا البياض في وجه إنسان عرفوا أنه من أهل الثواب فزادوا في تعظيمه فيحصل له الفرح بذلك من وجهين (أحدهما) أن السعيد يفرح بأن يعلم قومه أنه من أهل السعادة ، قال تعالى تخبراً عنهم (يا ليت قومي يعلمون بما عمر بي وبني وجعلني من المكرمين) (الثاني) أنهم إذا عرفوا ذلك حصوه بمزيد التعظيم فنت أن ظهور البياض في وجه المكلف سبب لمزيد سروره في الآخرة وهذا الطريق يكون ظهور السواد في وجه الكفار سبباً لمزيد غمهم في الآخرة ، فهذا وجه الحكمة في الآية ، وأما في الدنيا فالتكليف حين يكون في الدنيا إذا عرف حصول هذه الخاتمة في الآخرة صار ذلك مرعباً له في الطاعات وترك المحرمات لكي يكون في الآخرة من قبيل من يبيض وجهه لا من قبيل من يسود وجهه ، فهذا تقرير هذين القولين .

❦ المسألة الثالثة ❦ احتج أصحابنا بهذه الآية على أن التكليف إما مؤمن وإما كافر ، وأنه ليس ههنا منزلة بين المنزلتين كما يذهب إليه المعتزلة ، فقالوا : إنه تعالى قسم أهل القيامة إلى قسمين منهم من يبيض وجهه وهم المؤمنون ، ومنهم من يسود وجهه وهم الكافرون ولم يذكر

الثالث، فلو كان ههنا قسم ثالث لذكره الله تعالى قائلوا وهذا أيضاً متأكد بقوله تعالى (وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة) وجوه يومئذ عليها غيرة ترهقها فترة أولئك هم الكفرة الفجرة)

أجاب القاضي منه بأن عدم ذكر القسم الثالث لا يدل على عدمه ، بل ذلك أنه تعالى إنما قال (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) فذكرهما على سبيل التنكير ، وذلك لا يفيد المصوم ، وأيضاً لما ذكر في الآية المؤمنين والذين كفروا بعد الإيمان ولا شبهة أن الكافر الأصلي من أهل النار مع أنه غير داخل تحت هذين القسمين ، هكذا القول في الفائق .

واعلم أن وجه الاستدلال بالآية هو أننا نقول : الآيات المتقدمة ما كانت إلا في الترغيب في الإيمان بالتحديد والنسوة وفي التزجر عن الكفر بها ثم إنه تعالى أتبع ذلك بهذه الآية فظاهرها يقتضي أن يكون لبعض الوجوه نصيباً لمن آمن بالتوحيد والنسوة ، وسواد الوجه يكون نصيباً لمن أنكر ذلك ، ثم دل ما بعد هذه الآية على أن صاحب البياض من أهل الجنة ، وصاحب السواد من أهل النار ، فحينئذ يلزم نفي المنزلة بين المنزتين ، وأما قوله يشكل هذا بالكافر الأصلي فجواباً عنه من وجهين (الأول) أن نقول لم لا يجوز أن يكون المراد منه أن كل أحد أسسم وقت استخراج النذرية من صلب آدم ؟ وإذا كان كذلك كان الكل داخلًا فيه (والثاني) وهو أنه تعالى قال في آخر الآية (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) فجعل موجب العذاب هو التكفر من حيث إنه كفر لا الكفر من حيث أنه بعد الإيمان ، وإذا وقع التعليل بمطلق التكفر دخل كل الكافر فيه سواء كفر بعد الإيمان ، أو كان كافرًا أصلياً والله أعلم

ثم قال (فاما الذين اسودت وجوههم 'كفرتهم بعد إيمانكم) وفي الآية سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ أنه تعالى ذكر القسمين أولاً فقال (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) فقدم البياض على السواد في الملقط ، ثم لما شرع في حكم هذين القسمين قدم حكم السواد ، وكان حق الترتيب أن يقدم حكم البياض

(والجواب عنه من وجوه) (أحدها) أن الرواد للجمع المطلق لا للترتيب (وثانيها) أن المنصود من المطلق إيصال الرحمة لا إيصال العذاب قال عليه الصلاة والسلام حاكياً عن رب المرأة سبحانه « خلدنهم ليربحوا على لا أراهم عليهم » وإذا كان كذلك فهو تعالى ابتداء يذكر أهل التواب وهم أهل البياض ، لأن تقديم الأشراف على الآخرين في الذكر أحسن ، ثم ختم بذكرهم أيضاً تنبيهاً على أن إرادة الرحمة أكثر من إرادة الغضب كما قال « سبغت رحمتي غضي » (وثالثها) أن العصاة والشعراء قالوا - يجب أن يكون مطلع الكلام ومفطحة ذنب بسر الطبع وبشرح الصدر ولا شك أنه ذكر رحمة الله هو الذي يكون كذلك فلا جرم يسر

الاستعداد بذكر أهل الثواب والاحتساب بذكرهم

﴿ السؤال الثاني ﴾ أبي حنبل (أما) ؟

(والجواب) هو محذوف ، والتقدير فيقال لهم : أنكرتم بعد إيمانكم ، وإيمان حسن الخلق لدلالة الكلام عليه ومثله في التزييل كثير قال تعالى (يا لئلا تكون يا حنون عليهم من كل باب سلام عليكم) وقال (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا) وقال (ولونرى إذ المجرمون ماكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا) .

﴿ السؤال الثالث ﴾ من المراد هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم ؟

(والجواب) للمفسرين فيه قول (أحدها) قال أبي بن كعب : أنكل أمر حال ما استخرجهم من صلب آدم عليه السلام ، فكل من كفر في الدنيا ، فقد كفر بعد الإيمان ، ورواه الواحدى في البيضاوى عن النبي ﷺ (وثانيها) أن المراد : أنكرتم بعد ما فسر لكم ما بوجوب الإيمان وهو الدلائل التي نصيها الله تعالى عن التوحيد والنبوة ، والدليل على صحة هذا التأويل ، قوله تعالى فيما قبل هذه الآية (يا أهل الكتاب لم تكفروا بآيات الله وأنتم تشهدون) فمفهم على الكفر بعد وضوح الآيات ، وقال المؤمنون (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات) .

ثم قال ههنا (أنكرتم بعد إيمانكم) فكان ذلك محمولا على ما ذكرناه حتى نصير هذه الآية مفردة لما قلنا ، وعلى هذا الوجه تكون الآية عامة في حق كل الكفار ، وأما الذين حصصوا هذه الآية ببعض الكفار فانهم وجوه (الأول) قال عكرمة والأصم والزجاج المراد أهل الكتاب فانهم قبل سمعت النبي ﷺ كانوا مؤمنين به ، فلما بعث ﷺ كفروا به (الثاني) قال قتادة : المراد الذين كفروا بعد الإيمان بسبب الآراء (الثالث) قال الحسن : الذين كفروا بعد الإيمان بالحق (الرابع) قيل هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة (الخامس) قيل هم الخوارج ، فإنه عليه الصلاة والسلام قال فيهم : إنهم ينفقون من الدين كما ينفق السهم من الرمية ، وهذا ان لو جهان الأخيار في غاية البعد لأنها لا يلبثون بما قبل هذه الآية ، ولأن تخصيص غير دليل ، ولأن الخروج عن الإجماع لا يوجب الكفر لفتة .

﴿ السؤال الرابع ﴾ ما الفائدة في هذه الاستفهام في قوله (أنكرتم) ؟

(الجواب) هذا استفهام بمعنى الإيثار ، وهو مؤكد لما ذكر قبل هذه الآية وهو قوله (قل يا أهل الكتاب لم تكفروا بآيات الله والله شهيد على ما تعملون قل يا أهل الكتاب له

تصدون عن سبيل الله) .

ثم قال تعالى (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) .

وفيه فوائد (الأولى) أنه لو لم يذكر ذلك لكان الوعيد مخصصاً بمن كفر بعد إيمانه ، فلما ذكر هذا ثبت الوعيد لمن كفر بعد إيمانه ولمن كان كافراً أصلياً (الثانية) قال القاضي قوله (أكفرتم بعد إيمانكم) يدل على أن الكفر منه لا من الله وكذا قوله (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) (الثالثة) قالت المرجعة : الآية تدل على أن كل نوع من أنواع العذاب وقع معللاً بالكفر ، وهذا ينفي حصول العذاب لغير الكافر .

ثم قال تعالى (وأما الذين أبغضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون) وفيه سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ ما المراد برحمة الله ؟

(الجواب) قال ابن عباس : المراد الجنة ، وقال المحققون من أصحابنا : هذا إشارة إلى أن العبد وإن كثرت طاعته فإنه لا يدخل الجنة إلا برحمة الله ، وكيف لا نقول ذلك والعدو ما هامت داهيته إلى الفعل وإلى الترك على السوية يتنجس منه الفعل ؟ فإذا ما لم يحصل رجحان داعية الطاعة امتنع أن يحصل منه الطاعة وذلك الرجحان لا يكون إلا بخلق الله تعالى ، فإذا صدرت تلك الطاعة من العبد نعمة من الله في حق العبد فكيف يصير ذلك موجباً على الله شيئاً . فثبت أن دخول الجنة لا يكون إلا بفضل الله وبرحمته ويكرمه لا يستحقاقاً .

﴿ السؤال الثاني ﴾ كيف موقع قوله (هم فيها خالدون) بعد قوله (ففي رحمة الله) .

(الجواب) كأنه قيل : كيف يكونون فيها ؟ فقيل هم فيها خالدون لا يظلمون عنها ولا يموتون .

﴿ السؤال الثالث ﴾ الكفار مخلدون في النار كما أن المؤمنين مخلدون في الجنة ، ثم إنه تعالى لم ينص على خلود أهل النار في هذه الآية مع أنه نص على خلود أهل الجنة فيها فما الفائدة ؟

(والجواب) كل ذلك إشعارات بأن جانب الرحمة أغلب ، وذلك لأنه ابتدأ في الذكر بأهل الرحمة وختم بأهل الرحمة ، ولما ذكر العذاب ما أحاطه إلى نفسه ، بل قال (فذوقوا العذاب) مع أنه ذكر الرحمة مضافة إلى نفسه حيث قال (ففي رحمة الله) ولما ذكر العذاب ما نص على المخلود مع أنه نص على المخلود في جانب الثواب ، ولما ذكر العذاب ناله بفعلهم فقال

(فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) ولما ذكر الثواب عليه برحمه فقال (فصي رحمه الله) ثم قال في آخر الآية (وما الله يريد ظلماً للعالين) وهذا حار جري لا يعتذر عن الوعيد بالعقاب ، وكفى ذلك مما يشعر بأن جانب الرحمة مغلب ، يا أرحم الراحمين لا تحرمنا من برده رحمتك ومن كرامته عفوئك وإحسانك .

ثم قال تعالى (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق) وقوله (تلك) فيه وجهان (الأول) المراد أن هذه الآيات التي ذكرناها هي دلائل الله ، وإما جاز إقامة (تلك) مقام (هذه) لأن هذه الآيات المذكورة قد انقضت بعد الذكر . فصار كأنها معدت فقبل فيها (تلك) (والثاني) إن الله تعالى وعده أن ينزل عليه كتاباً مستملاً على كل ما لا بد منه في الدين ، فلما أنزل هذه الآيات قال : تلك الآيات الموعودة هي التي نتلوها عليك بالحق ، ونجم الكلام في هذه المسألة قد تقدم في سورة البقرة في تفسير قوله (ذلك الكتاب) وقوله (بالحق) فيه وجهان (الأول) أي ملتصق بالحق والمصل من إجراء المحسن والمسيء بما يستوجبانه (الثاني) بالحق أي بالمتنبي الحق ، لأن معنى التلو حق .

ثم قال تعالى (وما الله يريد ظلماً للعالين) وفيه مسائل

﴿ المسألة الأولى ﴾ إما حسن ذكر الظلم مهنا لأنه تقدم ذكر العنوبة الشديدة وهو سبحانه وتعالى أكرم الأكرمين ، فكأنه تعالى يحذر عن ذلك وقال إسم ما وقعوا فيه إلا بسبب أفعالهم المنكرة ، فإن مصالح العالم لا تستقيم إلا بتهديد المذنبين ، وإذا حصل هذا تهديد فلا بد من التحفيز دفعاً للكذب ، فصار هذا الاعتذار من أول الدلائل ، على أن جنب الرحمة غالب ، ونظيره قوله تعالى في سورة (عم) بعد أن ذكر وعيد الكفار (إنهم كانوا لا يرجون حساباً وكذبوا بآياتنا كذاباً) أي هذا الوعيد الشديد إنما حصل بسبب هذه الأفعال المنكرة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الجبائي : هذه الآية تدل على أنه سبحانه لا يريد شيئاً من القبيح لا من أفعاله ولا من أفعال عباده ، ولا يفعل شيئاً من ذلك ، وبيان : وهو أن الظلم إما أن يفرض صدور من الله تعالى ، أو من العبد ، ويتقدير صدره من العبد ، فإما أن يظلم نفسه وذلك بسبب إقدامه على المعاصي أو يظلم غيره ، فالقسم الظلم هي هذه الثلاثة ، وقوله تعالى (وما الله يريد ظلماً للعالين) نكرة في سياق النفي ، فوجب أن لا يريد شيئاً مما يكون ظلماً ، سواء كان ذلك صادراً عنه أو صادراً عن غيره ، فثبت أن هذه الآية تدل على أنه لا يريد شيئاً من هذه الأقسام الثلاثة ، وإذا ثبت ذلك وجب أن لا يكون فاعلاً لشيء من هذه

الأقسام ، ويلزم منه أن لا يكون فاعلاً للظلم 'صلاً ويلزم أن لا يكون فاعلاً لأعمال العباد ، لأن من جهة أعمالهم ظلمهم لأنفسهم وظلم بعضهم بعضاً ، وإما قلنا : إن الآية تدل على كونه تعالى غير فاعل للظلم المنة لأنها دلت على أنه غير مرید بشيء منها ، لو كان فاعلاً لشيء من أقسام الظلم لكان مريداً لها ، وقد بطل ذلك . قالوا : ثبتت هذه الآية أنه تعالى غير فاعل للظلم ، وغير فاعل لأعمال العباد ، وغير مرید للقبائح من أفعال العباد . ثم قالوا : إنه تعالى تصح بأنه لا يريد ذلك ، والتصح إذا تصح لو صح منه فعل ذلك الشيء وصح منه كونه مريداً له ، فدللت هذه الآية على كونه تعالى قادراً على الظلم وعند هذا تتجسروا وقالوا : هذه الآية الواحدة ولمية بتفسير جميع أصول المعتزلة في مسائل العدل . ثم قالوا : ولما ذكر تعالى أنه لا يريد لنفسه ولا يفعل الظلم قال بعده (والله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور) وإما ذكر هذه الآية عقيب ما تقدم لوجهين (الأول) أنه تعالى لما ذكر أنه لا يريد الظلم والقبائح استدلل عليه بأن فاعل التنبيح إنما يفعل التنبيح إما لتجهيل ، أو العجز ، أو الخلة ، وكل ذلك على الله محال لأنه مالك لكل ما في السموات وما في الأرض . وهذه التعلية ثنائي الجهتين والعجز والخلة . وإذا متنع ثبوت هذه الصفات في حقه تعالى امتنع كونه فاعلاً للتنبيح (والثاني) أنه تعالى لما ذكر أنه لا يريد الظلم بوجه من الوجوه كان لغاى أن يقول : وإنا نشاهد وجود الظلم في العالم ، فلا الم يكن وقوعه بإرادته كان عبي خلاف إرادته ، فيبزم كونه ضعيفاً عاجزاً مقهوراً وذلك محال .

فاجاب الله تعالى عنه بقوله (والله ما في السموات وما في الأرض) أي أنه تعالى قادر على أن يمنع الظلمة من الظلم على سبيل الإلجاء والنهر ، ولما كان قادراً على ذلك خرج عن كونه عاجزاً ضعيفاً لا أنه تعالى أراد منهم ترك المعصية اختياراً وضوعاً ليصيروا بسبب ذلك مستحقين للثواب فلم قهرهم على ترك المعصية لبطالت هذه الفائدة ، فهذا تمحيص كلام المعتزلة في هذه الآية ، وربما أوردوا هذا الكلام من وجه آخر ، هاتوا : المراد من قوله (وما الله يريد ظلماً للعالمين) إما أن يكون هو لا يريد أن يظلمهم أو أنه لا يريد منهم أن يظلم بعضهم بعضاً فان كان الأول فهذا لا يستقيم على قولكم ، لأن مذهبكم أنه تعالى لو عذب البريء عن الذنب بأشد العذاب لم يكن ظلماً ، وإن كان عادلاً ، لأن الظلم نصرف في ملك الغير ، وهو تعالى إنما يتصرف في ملك نفسه فاستحال كونه ظلماً وإذا كان كذلك لم يمكن حمل الآية على أنه لا يريد أن يظلم الخلق وإن حملت الآية على أنه لا يريد أن يظلم بعض العباد بعضاً ، فهذا أيضاً لا يتم على قولكم لأن كل ذلك بإرادة الله وتكوينه على قولكم ، فثبت أن على ما ذهبكم لا يمكن حمل الآية على وجه صحيح (واحواب) لم لا يجوز أن يكون المراد أنه تعالى لا يريد أن يظلم أحداً

من عباده» قوله الظنم منه محال على عذركم فامتنع التمدح به قل : الكلام عليه من وجهين (الأول) أنه تعالى تلمح بقوله (لا تأخذه سنة ولا نوم) وقوله (وهو يطعم ولا يطعم) ولا يلزم من ذلك صحة النوم والأكل عليه فكذلك ههنا (الثاني) أنه تعالى إن عذبت من لم يكن مستحقاً للعذاب فهو وإن لم يكن ظليماً في نفسه لكنه في صورة الظنم ، وقد يطلق اسم أحد المشبهين على الآخر كقوله (وحرأب مئة مئة مثلهما) ونظائره كثيرة في القرآن هذا تمام الكلام في هذه المناظرة.

❖ المسألة الثالثة ❖ احتج أصحابنا بقوله (والله ما في السموات وما في الأرض) على كونه حائفاً لأعيان العباد ، فقالوا لا شك أن أفعال العباد من حملة ما في السموات والأرض ، فوجب كونها له بقوله (والله ما في السموات وما في الأرض) وإنما يصح قولنا : إنها له لو كانت مخلوقة له فثبت هذه الآية على أنه خالق لأفعال العباد.

أجاب الجبائي عنه بأن قوله (لله) إضافة ملك لا إضافة فعل ، ألا ترى أنه يقال : هذا البناء لقولان فيه بدون أنه مخلوق لا أنه مفعول ، وأيضاً المقصود من الآية تعظيم الله لنفسه ومدحه لإفنية نفسه ، ولا يجوز أن يتعدج بأن ينسب إلى نفسه العواشش والقبائح ، وأيضاً فتوبه (ما في السموات وما في الأرض) إنما يتناول ما كان مظهر وقفاً في السموات والأرض وذلك من صفات الأجسام لا من صفات الأفعال التي هي أعراض.

أجاب أصحابنا عنه بأن هذه الإضافة إضافة الفعل بدليل أن القادر على القبيح والحسن لا يرجح الحسن على القبيح إلا إذا حصل في قلبه ما بدعوه إلى فعل الحسن ، وتلك الداعية حاصلة بتخليق الله تعالى دفعاً للسلسل ، وإذا كان المؤثر في حصول فعل العبد هو مجموع القدرة والدعوة ، وأثبت أن مجموع القدرة والداعية يخلق الله تعالى نست أن فعل مستند إلى الله تعالى خلقاً وتكويناً بواسطة فعل السبب ، فهذا تمام القول في هذه المناظرة.

❖ المسألة الرابعة ❖ قوله تعالى (والله ما في السموات وما في الأرض) زعمت الفلاسفة أنه إما عدم ذكر ما في السموات عن ذكر ما في الأرض لأن الأحوال السبائية أسباب للأحوال الأرضية ، فقدم السبب على مسبب ، وهذا يدل على أن جميع الأحوال الأرضية مستندة إلى الأحوال السبائية ، ولا شبهة أن الأحوال السبائية مستندة إلى خلق الله وتكوينه فيكون الجبر لازماً أيضاً من هذا الوجه.

❖ المسألة الخامسة ❖ قال تعالى (والله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور) فأعاد ذكر الله في أول الآيتين والغرض منه تأكيد التعظيم ، والمقصود أن منه مبدأ

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَلَوْ أَنَّمَنِ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ تَزُومُونَ وَكَثَرَهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٧٧﴾
لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُضْلِكُوكُمْ يَبْلُغُوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٧٨﴾

المنحرفات وإليه معادهم ، فقوله (بالله) في السموات وما في الأرض) إشارة إلى أنه سبحانه
هو الأول بقوله (وإلى الله ترجع الأمور) إشارة إلى أنه هو الآخر ، وذلك يدل على عظمة حكمه
وتعديده ونسبه بأولهم وآخرهم ، وأن الأسباب مشيئة إليه وإن الحاجات منتظمة عنده

﴿ المسألة السادسة ﴾ كلمة (إلى) في قوله (وإلى الله ترجع الأمور) لا تدل على كون
تعالى في مكان ووجه ، بل المراد أن رجوع الخلق إلى موضع لا ينفذ فيه حكم أحد إلا حكمه
ولا يجوز فيه قضاء أحد إلا فضله .

قوله تعالى ﴿ كتب خيرا أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وتؤمنون
بالله ولو أن أهل الكتاب لما كانوا خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون . لن يضروكم إلا أذى
وإن ضلواكم ولو لكم الأدبار ثم لا ينصرون ﴾

في النظم وجهان (الأول) أنه تعالى لما أمر المؤمنين ببعض الأشياء ونهاهم عن بعضها
وحذرهم من أن يكونوا مثل أهل الكتاب في النمر والمصيبة ، وذكر عقوبة ثواب المصيعين
وعقوبات الكافرين ، كان العرض من كل هذه الآيات حمل المؤمنين المكلفين على الانقياد والطاعة
ومنعهم عن النمر والمصيبة ، ثم إنه تعالى أورد ذلك بطريق آخر يقتضي حمل المؤمنين على
الانقياد والطاعة فقال (كتب خيرا أمة) والمعنى أنكم كنتم في البصير المنصوص خير الأمم
و فضلهم ، فاللآتي هذا أن لا تنصم على أنفسكم هذه القسيلة ، وأن لا تنزلوا عن مصيبتكم
هذه خصلة المنصودة ، وأن تكونوا متفادين مطيعين في كل . وينوجه عليكم من التكليف
(الثاني) أن الله تعالى لما ذكر كمال حال لاشقياء وهو قوله (فأما الذين سودت وجوههم)
وكمال حال السعداء وهو قوله (وأما الذين ابيضت وجوههم) فيه على ما هو السعداء (الوعيد
الاشقياء بقوله (وما الله يريد ظلما للعالم) يعني أنهم بما استحقوا ذلك بأنفسهم المبيحة ،

ثم فيه في هذه الآية على ما هو السبب لوعده السعداء بقوله (كنتم خير أمة أخرجت للناس) أي تلك السعادات والكمالات والكرامات إنما فازوا بها في الآخرة لأنهم كانوا في الدنيا (خير أمة أخرجت للناس) وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لفظة (كان) قد تكون تامة وناقصة وزائدة على ما هو مشروح في النحو واختلف المفسرون في قوله (كنتم) على وجوه (الأول) أن (كان) هنا تامة بمعنى الوقوع والحدوث وهو لا يحتاج إلى خبر ، والمعنى : حدثتم خير أمة وحدثتم وخلقتم خير أمة ، ويكون قوله (خير أمة) بمعنى الحال وهذا قول جمع من المفسرين (الثاني) أن (كان) هنا ناقصة وفيه سؤال :

وهو أن هذا يومهم أنهم كانوا موصوفين بهذه الصفة وأهم ما بقوا الآن عنها .

(والجواب عنه) أن قوله (كان) عبارة عن وجود الشيء في زمان ماض على سبيل الإيهام ، ولا يدل ذلك على انقطاع حاضه . يدل قوله (استغفروا ربكم إنه كان غفراً) وقوله (وكان الله غفوراً رحيماً) إذا ثبت هذا فنقول : للمفسرين على هذا التقدير أقوال (أحدها) كنتم في علم الله خير أمة (وثانيها) كنتم في الاسم الذين كانوا فيلكم مذكورين بأنكم خير أمة وهو كقوله (استمداء على الكفار رحمة بينهم) إلى قوله (فلك مثلهم في الثروة) فشدتهم على الكفار أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر (وثالثها) كنتم في اللوح المحفوظ موصوفين بأنكم خير أمة (ورابعها) كنتم منذ آمنتم خير أمة أخرجت للناس (وخامسها) قال أبو مسلم قوله (كنتم خير أمة) تابع لقوله (وأما الذين لبضت وجوههم) والتقدير : أنه يقال لهم عند الخلود في الجنة : كنتم في دنياكم خير أمة فاستحققت ما أنتم فيه من الرحمة وياض الوجه بسببه ، ويكون ما عرض بين أول لفظة وآخرها كما لا يزال يعرض في القرآن من مثله (وسادسها) قال بعضهم : لو شاء الله تعالى لقال (أنتم) وكان هذا التشريف حاصلًا لكلنا ولكن قوله (كنتم) يخصهم بقوم معينين من أصحاب الرسول ﷺ وهم السابقون الأولون ، ومن صنع مثل ما صنعوا (وسابعها) كنتم منذ آمنتم خير أمة تبيها على أنهم كانوا موصوفين بهذه الصفة مذ كانوا .

﴿ الإجمال الثالث ﴾ أن يقال (كان) هنا زائدة ، وقال بعضهم قوله (كنتم خير أمة) هو كقوله (واذكروا إذ كنتم قبلًا فكنتم) وقال في موضع آخر (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون) وإيضاح كان وإظهارها سواء إلا أنها تذكير للتأكيد ووقوع الأمر لا عمالة : قال ابن الأنباري : هذا القول ظاهر الاختلال ، لأن (كان) تلحق متوسطة ومؤخرة ، ولا تلحق

متقدمة ، تقول العرب : عبد الله كان قائم ، وعبد الله قائم كان على أن كان ملصقة ، ولا يقولون : كان عبد الله قائم على إنعائه ، وأن سبيلهم أن يبطوا بما تنصرف العناية إليه ، والملغى لا يكون في محل العناية ، وأيضاً لا يجوز إلقاء الكون في الآية لأن تصاب حيرة ، وإذا عمل الكون في الخبر فصبه لم يكن ملغى .

❖ الإختلال الرابع ❖ أن تكون (كان) بمعنى صار ، فقوله (كنتم حيرامة) معناه صرتم حيرامة أخرجت للناس زمرود بالمعروف ونهون عن المنكر ، أي صرتم غير أمة بسبب كونكم أميين بالمعروف وناهين عن المنكر ومؤيين بالله .

ثم قال : ولو آمن أهل الكتاب لكان حيراً لهم) يعني كم أنكم أكنستم هذه الحيرة بسبب هذه الاختلال ، فأهل الكتاب لو آمنوا لحصلت لهم أيضاً صفة الحيرة والله أعلم .

❖ المسألة الثانية ❖ احتج أصحابنا بهذه الآية على أن إجماع الأمة حجة ، وتفريره من وجهين (الأول) قوله تعالى (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق) ثم قال في هذه الآية (كنتم حيرامة) فوجب بحكم هذه الآية أن تكون هذه الآية أفضل من أولئك الذين يهدون بالحق من قوم موسى ، وإذا كان هؤلاء أفضل منهم وجب أن تكون هذه الأمة لا تحكم إلا بالحق إذ لو جاز في هذه الأمة أن تحكم بما ليس بحق لامتنع كون هذه الأمة أفضل من الأمة التي نهى بالحق ، لأن لمبطل يمتنع أن يكون غيراً من المحذور ، فثبت أن هذه الأمة لا تحكم إلا بالحق ، وإذا كان كذلك كان إجماعهم حجة .

❖ الوجه الثاني ❖ وهو (أن الألف واللام) في لفظ (المعروف) ولفظ (المنكر) بغيران الاستغراق ، وهذا يقتضي كونهم أميين بكل معروف ، وناهين عن كل منكر ومنى كلوا كذلك كان إجماعهم حقاً وصديقاً لا محالة وكان حجة ، والمباحث الكثيرة فيه ذكرناها في الأصول .

❖ مسألة الثالثة ❖ قال الزجاج : قوله (كنتم حيرامة) ظاهر الخطاب فيه مع أصحاب النبي ﷺ ، ولكنه عام في كل أمة ، ونظيره قوله (كتب عليكم الصيام) (كتب عليكم الفصاح) فإن كل ذلك خطاب مع الحاضرين بحسب اللفظ ، ولكنه عام في كل الكل كذا ههنا .

❖ المسألة الرابعة ❖ قال الفقهاء رحمه الله : أحمل الأمة لطائفة المجتمع على الشيء الواحدة فامة تبيهاهم هم الجماعة الموصوفون بالإيمان والإقرار بنبوته ، وقد يقال نكل من جمعهم دعوتهم أنهم أمية إلا أن لفظ الأمة إذا أطلقت وحدها وقع على الأول ، ألا ترى أنه إذا قول أجمعت الأمة على كذا فهم منه الأول وقال عليه الصلاة والسلام : أمية لا يجتمع على

ضلالة « وروي أنه عليه الصلاة والسلام يقول يوم القيامة : أمتي أمتي » فلفظ الأمة في هذه المواضع يشابهها يفهم منه تأمرون بنبوته ، فلما أهل دعوته فإنه إنما يقال هم . انهم أمة الدعوة ولا يطبق عليهم [لا امة الأمة بهذا الشرط .

أما قوله (أخرجت للناس) ففيه قولان (الأول) أن المعنى كنتم خير الأمم المخرجة للناس في جميع الأعصار ، فقوله (أخرجت للناس) أي أخرجت للناس حتى تحييت وعرفت وفصل بينا وبين غيره (والثاني) أنه قوله (للناس) من تقدم قوله (كنتم) والتقدير كنتم للناس خير أمة ، ومنهم من قال (أخرجت) صلة ، والتقدير : كنتم خير أمة للناس

لم قال (تأمرون بالمعروف والنهي عن المنكر) وتأمنون بالله ؟

واعلم أن هذا كلام مستأنف ، وانفصده منه بيان علة تلك التحريية ، كما نقول . زيد كريم يطعم الناس ويكسهم ويقوم بما يصلحهم ، وتحسين الكلام أنه ثبت في أصول الفقه أن ذكر الحكم مقرونا بالموصف المناسب له يدل على كون ذلك الحكم معللا بذلك الموصف ، فهما حكم تعالى بشئ وصف آخر به لهذه الأمة ، ثم ذكر عقيب هذا الحكم وهذه الطائفة ، أعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان ، فوجب كون تلك التحريية معللة بهذه المعادلات وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ من أي وجه يقتضي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله كون هذه الأمة خير الأمم مع أن هذه الصفات الثلاثة كانت حاصلة في سائر الأمم ؟

(والجواب) قال الثعالبي : تفصلهم على الأمم الذين كانوا قبلهم إنما حصل لأجل أنهم تأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بأكبر الوجوه وهو القتال . لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتب واللسان واليد ، وأقواها ما يكون بالقتال . لأن إنشاء النفس في خطر القتال وأعز لمروءات الدين الحق والإيمان بالرحمة والنبوة ، وأكبر المنكرات . انكسر بالله ، فكان الجهاد في الدين محملا لأعظم المضار لعرض إحصال الخير إلى أعظم المنافع ، وتماييد من أعظم المنصاع ، فوجب أن يكون الجهاد أعظم المعادلات ، ولما كان أمر الجهاد في شئنا أقوى من سائر الشرائع . لا يجرم صار ذلك مرجحا لتفصيل هذه الأمة على سائر الأمم ، وهذا معنى ما روي عن ابن عباس أنه قال في تفسير هذه الآية : قوله (كنتم خير أمة أخرجت للناس) تأمروهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ويقرروا أن الله عز وجل . وتقاتلوا في سبيله ، قاله ابن الله ، اعظم المعروف ، والكذب هو أكبر المنكر .

ثم قال النفاذ : قائلة القتال على الدين لا ينكره منصف ، وذلك لأن أكثر الناس يدينون أديانهم بسبب الآلف والعادة ، ولا يتأملون في الدلائل التي تورث عليهم فإذا أكره على المدحون في الدين التحويف بالقتل دخل فيه ، ثم لا يزال يصعب ما في قلبه من حب فدينه للظلم ، ولا يزال يصر في قلبه حب الدين الحق إلى أن ينتقل من أتباعه إلى الحق ، ومن استحققت العقاب الشاق في استحقاق الثواب الدائم .

في السؤال الثاني : لم قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله في الذكر مع أن الإيمان بالله لا بد وأن يكون مقدما على كل الطاعات ؟

(واخبر) أن الإيمان بالله أمر مشترك فيه بين جميع الأمم المحقة ، ثم به تعالى فضل هذه الأمة على سائر الأمم المحقة ، فيمنع أن يكون المؤثر في حصول هذه الخيرية هو الإيمان الذي هو الصمد المشترك بين الكل ، بل المؤثر في حصول هذه الزيادة هو كون هذه الأمة أقوى حالا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من سائر الأمم ، وهذا المؤثر في حصول هذه الخيرية هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأما الإيمان بالله فهو شرط لتأثير هذا الحكم لأنه ما لم يوجد الإيمان لم يصح شيء من الطاعات مؤثرا في صفة الخيرية ، فثبت أن المحجب عنه ، فإنه هو كونهم آمنين بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأما إيمانهم بذلك شرط للتأثير ، والمؤثر الصمد بالأمر من شرط التأثير ، فهذا السبب قدم الله تعالى ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ذكر الإيمان .

في السؤال الثالث : لم كتفي بذكر الإيمان بالله ولم تذكر الإيمان بالله مع أنه لا

منه .

(واخبر) أن الإيمان بالله يسلم الإيمان بالشدة ، لأن الإيمان بالله لا يحصل إلا بد حصول الإيمان بكونه صادقا ، والإيمان بكونه صادقا لا يحصل إلا إذا كان الذي أشهر المعجز عن وفاء دعواه صادقا ، لأن المعجز قائم مقام التصديق بالقول ، فبما شاهدنا ظهور المعجز على وفاء دعوى محمدية كان من ضرورة الإيمان بالله الإيمان بشدة محمدية ، فكان الاتصال على ذكر الإيمان بالله تسبها على هذه الدقة .

ثم قال تعالى (ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم) وفيه وجهان (الأول) ولو آمن أهل الكتاب بهذا الدين الذي لأخيه حصلت صفة الخيرية لأتباع محمد عليه الصلاة والسلام حصلت هذه الخيرية أيضا ، فالتقصير من هذا الكلام ترغيب أهل الكتاب في هذا الدين (الثاني) إن أهل الكتاب إنما أوردوا بينهم على دين الإسلام حبا لمرياسة واستنساخ العموم ولو

أمنوا لخصصنا لهم هذه الرياسة في الدنيا مع الثواب العظيم في الآخرة ، فكان ذلك خبرا لهم مما فتحوا به .

واعلم أنه تعالى أتبع هذا الكلام بجعلتين عن سبيل الابتداء من غير عاطف (إحداهما) قوله (منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون) (وثانيتهما) قوله (لن يضرركم إلا أذى) وإن مقابلةكم بولركم الأدبار ثم لا ينصرون (قال صاحب الكشف : هما كلامان واردان على طريق الاستطراد عند إجراء ذكر أهل الكتاب ، كما يقول القائل : وعلى ذكر فلان فلان من شأنه كبت ركبته ، ولذلك جاء (أمن) غير عاطف .

أما قوله (منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون) ففيه سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ الألف واللام في قوله (المؤمنون) للاستغراق أول للمعهود السابق ؟ .

(والجواب) بل للمعهود السابق ، والمراد - عبدالله بن سلام وروضة من اليهود ، والنجاشي وروضة من النصارى .

﴿ السؤال الثاني ﴾ الموصف إنما يذكر للمبالغة فأي مبالغة تحصل في وصف الكافر بأنه فاسق .

(والجواب) الكافر قد يكون عدلا في دينه وقد يكون فاسقا في دينه فيكون مردودا عند الطوائف كلها ، لأن المسلمين لا يقبلونه ككفره ، والكفار لا يقبلونه لكونه فاسقا في دينهم ، فكانه قيل أهل الكتاب فريقان : منهم من آمن ، والذين ما آمنوا فهم فاسقون في دينهم ، فليسوا بمن يجب الاقتداء بهم البتة عند أحد من العقلاء .

أما قوله تعالى (لن يضرركم إلا أذى) فاعلم أنه تعالى لما رغب المؤمنين في التصلب في إيمانهم وترك الالتفات إلى أقوال الكفار وأفعالهم بقوله (كنتم خير أمة) رغبهم فيه من وجه آخر ، وهو أنهم لا قوة لهم على الاضطرر بالمسلمين إلا بالقليل من القول الذي لا عبرة به ، ولو أنهم قاتلوا المسلمين صاروا منهزمين مختولين ، وإذا كان كذلك لم يجب الالتفات إلى أقوالهم وأفعالهم . وكل ذلك تدوير لما تقدم من قوله (إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب) فهذا وجه النظم ، فلما قوله (لن يضرركم إلا أذى) فمعناه : أنه ليس على المسلمين من كفار أهل الكتاب ضرر وإنما منتهى أمرهم أن يؤذوكم بالنساز ، إما بالضعف في محمد وعيسى عليهما الصلاة والسلام ، وإما باظهار كنمة الكفر ، كقوهم (عزيز ابن الله ، وانسح ابن الله ، والله ثالث ثلاثة) وإما بتحريف نصوص التوراة والإنجيل ، وإما مانع الشبه في الأسماح ، وإما

بتخريب الصلعة من المسلمين ، ومن الناس من قال : إن قوله (إلا اذى) استثناء منقطع وهو بعيد . لأن كل الوحوش المذكورة يوجب وقوع الغم في قلوب المسلمين والغم ضرر ، فالتعدير لا يصروكم إلا الضرر الذي هو اذى ، فهو استثناء صحيح ، والمعنى لن يصروكم إلا ضررا يبرأ ، والأذى وقع موقع الضرر ، والأذى مصدر أذيت الشيء أذى .

ثم قال تعالى (وإن يقاتلوكم يبرؤكم الأديار ثم لا يصرون) وهو إخبار باسم لو قاتلوا المسلمين لصاروا منزهين عن ذلهم (ثم لا يصرون) أي إنهم بعد صبر ورنههم مهزومين لا يحصل لهم شوكة ولا قوة انبث ، ومثله قوله تعالى (ولن يقاتلوا لا يصرون) ولئن نصرهم لنولين الأديار ثم لا يصرون) وقوله (قل للمدين كفروا مستغليون) وتحشرون إلى جهنم) وقوله (نحن جميع منتصر سيهزم الجمع ويولون الدبر) وكل ذلك وعد بالفتح والنصرة والظفر .

واعلم أن هذه الآية اشتملت على الإنذار عن غيوب كثيرة ، منها أن المؤمنين آمنون من ضررهم ، ومنها أنهم لو قاتلوا المؤمنين لانهزموا ، ومنها أن لا يحصل لهم قوة وشوكة بعد الانهزام وكل هذه الأحبار وقعت كـ " جرائد عنده " فان اليهود لم يقاتلوا إلا انهزموا ، وما أقدموا على محاربة وطلب رباسة إلا خذلوا ، وكل ذلك إخبار عن الغيب فيكون معجزا وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ هب أن اليهود كذلك ، لكن النصري ليسوا كذلك فهذا يفتح في صحة هذه الآيات قلنا : هذه الآيات مخصوصة باليهود ، وأسباب النزول على ذلك فرال هذا الإشكال .

﴿ السؤال الثاني ﴾ هلا جزم قوله (ثم لا يصرون) .

قلنا : عدل به عن حكم الخبراء إلى حكم الانذار ابتداء كلف قبل أخبركم أنهم لا يصرون ، والفائدة فيه أنه لو جزم لكان نفي النصر مقيدا بمقتلتهم كتولية الأديار ، وحين رفع كان نفي النصر وعدا مطلقا كانه قال : ثم شأنهم وقصته التي أخبركم عنها وأبشركم بما بعد لتولية لهم لا يجدون نصرة بعد ذلك قط بل يبقون في الخلة والمهالة أبدا دائما .

﴿ السؤال الثالث ﴾ ما الذي عطف عليه قوله (ثم لا يصرون) ؟ .

(الجواب) هو جملة الشرط والجزاء ، كانه قيل : أخبركم أنهم إن يقاتلوكم يهزموا ، ثم أخبركم أنهم لا يصرون وإما ذكر لفظ (ثم) لإفانة معنى التراخي في المرتبة ، لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوحيثهم الأديار .

فَصُرِّبَتْ عَلَيْهِمُ الْغُلَّةُ الْآثِنَةُ ، فَلَقَمُوا بِهِ جَحِيلَ مِنْ آثِهِ وَجَحِيلٌ مِنَ النَّاسِ وَآثُهُ يَنْصُوبُ
 مِنَ اللَّهِ وَصُرِّبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِقَائِلَاتِ اللَّهِ وَتَكْفُرُونَ
 بِالْآيَاتِ فَيَخِيرْهُمْ فِي ذَلِكَ فَيَفْعَسُوا وَأَكَلُوا بِعَدُوَّةٍ ۝

قوله تعالى ۝ سُورَتِ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ الْآثِنَةُ إِلَّا جَحِيلَ مِنْ آثِهِ وَجَحِيلٌ مِنَ النَّاسِ وَآثُهُ يَنْصُوبُ
 مِنْ اللَّهِ وَصُرِّبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ الْمَسْكَنَةُ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِقَائِلَاتِ اللَّهِ وَتَكْفُرُونَ بِالْآيَاتِ فَيَخِيرْهُمْ فِي ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
 كَانُوا يَكْفُرُونَ بِالْآيَاتِ فَيَخِيرْهُمْ فِي ذَلِكَ فَيَفْعَسُوا وَأَكَلُوا بِعَدُوَّةٍ ۝

وَأَعْنَمَ أَنَّهُ تَعَالَى طَائِفِينَ أَنَّهُمْ إِنْ قَاتَلُوا رَجَعُوا بِعَدُوَّةٍ عَنِ مَصْرُورٍ ذَكَرَ هَهُنَ مَعَ ذَلِكَ
 قَدْ صُرِّبَتْ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ ، وَفِي آيَةِ مِثَالٍ :

﴿ الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى ۝ قَدْ ذَكَرْنَا عَنِ هَذِهِ الْمَنْظُومَةِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَالْمَعْنَى سَمِعْتُ الْعَذَابَ
 مُنْصَفَةً ۝ كَثَلْتُ ، بِضَمِّهِ عَلَى النَّبِيِّ ، فَلَقَمُوا بِهِ ، وَمِنْ قِبَلِهِ ، مَا هُوَ ، عَلَى نَفْسِهِ لَا يَزِيدُ ،
 وَمِنْ تَسْمِيَةِ الْخَرَجِ ضَرِيحَ

﴿ الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةِ ۝ الْعَذَابُ هِيَ الْعَذَابُ ، وَفِي الْمَرْادِ هَذَا الْعَذَابُ : الْأَوَّلُ ۝ وَهُوَ الْأَوَّلُ
 أَنْ يَمُوتَ دُونَ الْخَرَجِ ، وَيَمُوتُوا رَتَمَ أَمْوَالِهِمْ ، وَتَسِي تَرَارِيهِمْ وَتَغْلُكُ أَرْضِيهِمْ هَهُنَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى
 (أَفَلَا تَعْلَمُونَ) ۝

لَمْ قَاتَلَ تَعَالَى (إِلَّا جَحِيلَ مِنْ آثِهِ) ، وَالْمَرْادُ إِلَّا جَحِيلَ مِنْ آثِهِ وَعَصَاةٍ وَتَعَالَى مِنْ آثِهِ وَمِنْ
 الْمَرْادِ لِأَنَّهُ ذَكَرَ وَلَاحِكَا ، فَلَا قِتْلَ وَلَا عَصَاةٍ وَلَا سِي (الْآثِي) أَنَّ هَذِهِ الْعَذَابُ هِيَ
 الْحَرِيَّةُ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ صَرَّحَ بِحَرِيَّةٍ عَلَيْهِمْ بِوَجْهِ الْعَذَابِ وَالصَّغَارِ (وَالْمَثَلِ) أَنَّ الْمَرْادَ مِنْ هَذِهِ
 الْعَذَابِ أَنَّهُ لَا تَرَى فِيهِمْ مَلِكًا قَاهِرًا وَلَا رُؤَسَاءَ مُعْتَبَرَةً ، بَلْ هُمْ مُسْتَعْتَبُونَ فِي جَمِيعِ الْبِلَادِ الْبُيُوتِ
 مَهِينُونَ .

وَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَمُوتَ الْمَرْادُ مِنَ الْعَذَابِ هِيَ الْحَرِيَّةُ فَقَطْ أَوْ هَذِهِ الْمَعْنَى فَقَطْ لِأَنَّهُ
 (إِلَّا جَحِيلَ مِنْ آثِهِ) مُقْصِي ، وَإِنَّ الْعَذَابَ الْمَرْادَ مِنْ هَذِهِ الْحَرِيَّةِ وَالصَّغَارِ وَالْعَصَاةِ
 لَا يَرُدُّ شَيْءًا مِنْهَا ، مَدَّ حَسْبُوكَ هَذَا الْخَمْلَ ، فَامْتَنَعَ حَمْلَ الْعَذَابِ عَلَى الْحَرِيَّةِ فَقَطْ ، وَبَعْضُ مَنْ

نصر هذا القول . أجاب عن هذا السؤال بأن قال : إن هذا الاستثناء منقطع ، وهو قول محمد بن جرير الطبري ، فقال : أتيهود قد ضربت عليهم الذلة ، سواء كانوا على عهد من الله أوله يكونوا فلا يخرجون هذا الاستثناء من الذلة إلى العزة ، فقوله (إلا بحبل من الله) تقديره ولكن قد يعتصمون بحبل من الله وحبل من الناس ، وأعلم أن هذا تعريب لأن حبل لفظ (إلا) على (لكن) خلاف الظاهر ، وأيضاً إذا حملنا الكلام على أن المراد : لكن قد يعتصمون بحبل من الله وحبل من الناس لم يتم هذا القدر فلا بد من إضمار الشيء الذي يعتصمون بهذه الأشياء لأجل الحذر عنه والإضمار خلاف الأصل ، فلا يصر إلى هذه الأشياء إلا عند الضرورة فإذا كان لا ضرورة ههنا إلى ذلك كان المصير إليه غير جائز ، بل ههنا رجة آخر وهو أن يحمل الذلة على كل هذه الأشياء أعني : القتل ، والأسر ، وسبي ، الذراري ، وأخذ المال ، وإغتياب الصغار ، والمهانة ، ويكون فائدة الاستثناء هو أنه لا يبقى مجموع هذه الأحكام ، وذلك لا يناقض بقاء بعض هذه الأحكام ، وهو أخذ القليل من أموالهم الذي هو مسمى بالخزبة ، وبقاء المهانة والمفارقة والصغار فيهم ، فهذا هو القول في هذا الموضع ، وقوله (أيتها نقضوا) أي وجنوا وصودقوا ، يقال : نقضت فلاناً في الحرب أي أدركته ، وقد مضى الكلام فيه عند قوله (حيث نقضتموه) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (إلا بحبل من الله) فيه وجوه (الأول) قال الفراء : التقدير إلا أن يعتصموا بحبل من الله ، وأنشد على ذلك :

رأيتني بحبلها قصدت غفاة وفي الحبل روعاء الغزو د فزوي

واعترضوا عليه ، فقالوا : لا يجوز حذف الموصول وإبقاء صلته ، لأن الموصول هو الأصل والصلة فرع فيجوز حذف الفرع لدلالة الأصل عليه ، أما حذف الأصل وإبقاء الفرع فهو غير جائز (الثاني) أن هذا الاستثناء واقع على طريق المعنى ، لأن معنى ضرب الذلة لزومها إليهم على أشد الوجوه بحيث لا تغارهم ولا تنفك عنهم ، فكأنه قيل : لا تنفك عنهم انذقة ، ولن يخلصوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس (الثالث) أن تكون الباء بمعنى (مع) كقوله : أخرج بنا ففعل كذا ، أي معنا ، والتقدير : إلا مع حبل من الله .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ المراد من حبل الله عهده ، وقد ذكرنا فيما تقدم أن العهد إنما سمي بالحبل لأن الإنسان لما كان قبل العهد غافلاً ، صار ذلك الخوف مانعاً له من الوصول إلى مطلوبه ، فلما حصل العهد توصل بذلك العهد إلى الوصول إلى مطلوبه ، فصار ذلك شبيهاً بالحبل الذي من تمسك به تخلص من خوف الضرر .

فان قيل : إنه عطف على جمل الله جلّ من الناس وذلك يقتضي المغالبة فكيف هذه المغالبة ؟

قلنا : قال بعضهم : جمل الله هو الإسلام ، وجبل الناس هو العهد والندمة ، وهذا بعيد لأنه لو كان المراد ذلك لقيل : أو جمل من الناس ، وقال آخرون : المراد تكلام الجبلير العهد والندمة والأمان ، وإنما ذكر تعالى الجبلير لأن الأمان المأخوذ من المؤمير هو الأمان المأخوذ بآذن الله وهذا عندني أبعث أصعب ، والذي عندني فيه أن الأمان حاصل للذي نفسان (أحدهما) الذي نفس الله عليه وهو أخذ الجزية (والثاني) الذي قوض إلى رأي الإمام فيزيد فيه ثاره ويقصر بحسب الاحتياج (فالأول) هو المسمى بجبل الله (والثاني) هو المسمى بجبل المؤمنين والله أعلم

ثم قال (وبنا) بضم من الله (وقد ذكرنا أن معناه أنهم مكتم ، ولبنوا وداموا في عصب الله ، وأصل ذلك مأخوذ من الجوء وهو المكان ، ومنه : تبوأ فلان منزلاً كذا وبنا أنه إيمان والمعى أنهم سكنوا في غضب من الله وحلوا فيه ، وسواء هؤلاء حل بهم الغضب وحلوا به .

ثم قال : وضرب عليهم المسكنة (وأكثرون حملوا المسكنة على الجزية وهو قول الحسن قبل وذلك لأنه تعالى أخرج المسكنة عن الاستثناء وذلك يدل على أنها باقية عليهم غير راتخة عنهم ، واليهي عليهم ليس إلا الجزية ، وقال آخرون : المراد بالمسكنة أن اليهودي يضر من نفسه لغير وإن كان غيب موسراً ، وقال بعضهم : هذا اختيار من الله سبحانه بأنه جعل اليهود أرواقاً للمسلمين فيصرون مساكين ، ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الأرواق من العبيد قال (ذلك أنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق) والمعنى أنه تعالى الحسن باليهود ثلاثة أنواع من المكروهات (أولها) جعل الذلة لازمة لهم (وثانيها) جعل عصب الله لازماً لهم (وثالثها) جعل المسكنة لازمة لهم ، ثم بير في هذه الآية أن العلة للإصاق هذه الأشياء المكروهة به هي : أنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ، وهما سؤالات :

(السؤال الأول) هذه الذلة والمسكنة إنما انصفت باليهود بعد ظهور دولة الإسلام ، والذين قتلوا الأنبياء بغير حق هم الذين كانوا قتل محمد ﷺ بأدوار وأعصار ، فعلى هذا الوضع الذي حصلت فيه العلة وهو قتل الأنبياء لم يحصل فيه المعلول الذي هو الذلة والمسكنة ، والموضع الذي حصل فيه هذا المعلول لم يحصل فيه العلة ، فكان الإنكسار لازماً

(والحوار عنه) أن هؤلاء المتأخرين وإن كان لم يصدر عنهم قتل الأنبياء عليهم السلام لكنهم كانوا راضين بذلك ، فإن أسلافهم هم الذين قتلوا الأنبياء وهؤلاء المتأخرون كانوا راضين بفعل أسلافهم ، فنسب ذلك الفعل إليهم من حيث كان ذلك الفعل الفبيح فعلا

لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ
يَسْجُدُونَ ﴿١١٧﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَيُسْرِحُونَ فِي النَّكَرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ
قَلَّ يُكْفَرُوا ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٩﴾

لأبائهم واسلافهم مع أنهم كانوا مصوبين لاسلافهم في تلك الافعال .

في السؤال الثاني : لم كرر قوله (ذلك بما عصوا) وما الحكمة فيه ولا يجوز أن يقال
التكرير للتأكيد ، لأن التأكيد يجب أن يكون بشيء أقوى من المؤكد ، والعصيان أقل حالا من
الكفر فلم يجر تأكيد الكفر بالعصيان ؟ .

(والجواب) من وجهين (الأول) أن علة الذلة والغضب والمسكنة هي الكفر وقتل
الأنبياء ، وعلة الكفر وقتل الأنبياء هي المعصية ، وذلك لأنهم لما نوعوا في المعاصي والذنوب
فكانت ظلمات المعاصي تتزايد حالا فعلا ، ونور الإيمان يضعف حالا فعلا ، ولم يزل كذلك
إلى أن بطل نور الإيمان وحصلت ظلمة الكفر ، وإليه الإشارة بقوله (كلا بل داه على قلوبهم
ما كانوا يكسبون) فقوله (ذلك بما عصوا) إشارة إلى علة العلة ولهذا المعنى قال أرباب
المعاملات ، من ابتلى بترك الآداب وقع في ترك السنن ، ومن ابتلى بترك السنن وقع في ترك
الفريضة ، ومن ابتلى بترك الفريضة وقع في استحقاق الشريعة ، ومن ابتلى بذلك وقع في الكفر
(الثاني) بمقتضى أن يريد بقوله (ذلك بأنهم كانوا يكفرون) من تقدم منهم ، ويريد بقوله
(ذلك بما عصوا) من حضر منهم في زمان الرسول ﷺ ، وعلى هذا لا يلزم التكرار ، فكانه تعالى
بين علة عفوته من تقدم ، ثم بين أن من تأخر فاقع من تقدم كان لأجل معصيته وعداوته
مستوجبا لمثل عقوبتهم حتى يظهر للخلق أن ما أنزله الله بالفرقيين من البلاء والمعنة ليس إلا
من باب العدل والحكمة .

قوله تعالى : ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله أناء الليل وهم
يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات
وأولئك من الصالحين وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين .

في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أعلم أن في قوله (لبسوا أسوأ) قولين (أحدهما) أن قوله (لبسوا أسوأ) كلام تام ، وقوله (من أهل الكتاب أمة قائمة) كلام مستأنف لبيان قوله (لبسوا أسوأ) كما وقع قوله (تأمرون بالمعروف) بيانا لقوله (كنتم خير أمة) والمعنى أن أهل الكتاب الذين سبق ذكرهم لبسوا أسوأ ، وهو تقرير لما تقدم من قوله (منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون) ثم ابتداء فقال (من أهل الكتاب أمة قائمة) وعلى هذا القول إحتيالان (أحدهما) أنه لما قال (من أهل الكتاب أمة قائمة) كان تمام الكلام أن يقال : ومنهم أمة مذمومة ، إلا أنه أضمر ذكر الأمة للمذمومة على مذهب العرب من أن ذكر أحد الضدين ينفي عن ذكر الضد الآخر وتحقيقه أن الضدين يعنيان معاً ، فذكر أحدهما يستقل بإفادة العلم بهما ، فلا جرم يحسن إعمال الضد الآخر .

قال أبو ذؤيب :

دعاني إليها للقلب إنني لأمرو مطيع فلا أدري أرشد طلابها

أراد (أم غي) فأكفى بذكر الرشد عن ذكر النفي ، وهذا قول الفراء وابن الأنباري ، وقال الزجاج : لا حاجة إلى إضمار الأمة المذمومة ، لأن ذكر الأمة المذمومة قد جرى فيها نيل هذه الآيات فلا حاجة إلى إضمارها مرة أخرى ، ولأننا قد ذكرنا أنه لما كان العلم بالضدين معاً كان ذكر أحدهما مغنياً عن ذكر الآخر ، وهذا كما يقال زيد وعبد الله لا يستويان زيد عاقل دين زكي ، فينفي هذا عن أن يقال : وعبد الله ليس كذلك ، فكذلك ههنا لما تقدم قوله (لبسوا أسوأ) أغنى ذلك عن الإضمار .

﴿ القول الثاني ﴾ أن قوله (لبسوا أسوأ) كلام غير تام ولا يجوز الوقف عنده ، بل هو متعلق بما بعده ، والتقدير : لبسوا أسوأ من أهل الكتاب أمة قائمة وأمة مذمومة ، فاعرف رفع بلبسوا وإنما قيل (لبسوا) على مذهب من يقول : أكلوني البراغيث ، وعلى هذا التقدير لا بد من إضمار الأمة المذمومة وهو اختيار أبي عبيدة إلا أن أكثر النحويين أنكروا هذا القول لانتفاء الأكثرين على أن قوله أكلوني البراغيث وأمثالها لغة ركيكة والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ يقال فلان وفلان أسوأ ، أي متساويان وفوم أسوأ ، لأنه مصدر لا بشئ ولا يجمع ومضى الكلام في (سواء) في أول سورة البقرة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ في المراد بأهل الكتاب قولان (الأول) وعليه الجمهور : أن المراد

من الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام ، روى أنه لا أسم جدد الله بن سلام وأصحابه قال فم بعض كبار اليهود : لقد كفرتم وخسرتم ، فأنزل الله تعالى لبيك فضليهم هذه الآية ، وقيل : إن تعالى لا وصف أهل الكتاب في الآية المتقدمة بالصفات المذمومة ذكر هذه الآية لبيان أن كل أهل الكتاب لبسوا كذلك ، بل فيهم من يكون موصوفاً بالصفات الحميدة والخصال المرضية ، قال الثوري : بلغني أنها نزلت في قوم كانوا يصلون ما بين المغرب والعشاء ، وعن عطاء : أن نزلت في أربعين من أهل نجران والذين ثلاثين من الحبشة وثلاثة من الروم كانوا على دين عيسى وحدهموا بمحمد عليه الصلاة والسلام

﴿ والقول الثاني ﴾ أن يكون المراد بأهل الكتاب كل من أوتى الكتاب من أهل الأديان ، وعلى هذا القول يكون المسلمون من جنسهم ، قال تعالى ﴿ ثم آتينا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ وما يدل على هذا ما روى من مسعود أن النبي ﷺ أخر صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد ، فإذا الناس ينتظرون الصلاة ، فقال : أما إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله تعالى هذه الساعة غيركم ، وقرأ هذه الآية ، قال الفقهاء : رحمه الله ، ولا يبعد أن يقال : أولئك الحاضرون كانوا مغرماً من مؤمني أهل الكتاب ، فقبل ليس بمنزلة من أهل الكتاب هؤلاء الذين آمنوا بمحمد ﷺ فأقاموا صلاة الصلوة في أسبوعه الثاني بنام فيها غمهم من أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا ، ولم يبعد أيضاً أن يقال : المراد كل من أسلم بمحمد ﷺ حسابه الله بأهل الكتاب ، كأنه قيل : أولئك الذين سمعوا أنصرتهم بأهل الكتاب حالهم وصفتهم تلك الخصال الذميمة والمسلمون الذين أسلمهم الله بأهل الكتاب حالهم وصفتهم هكذا ، يستويون؟ فيكون الغرض من هذه الآية تقرير فصيلة أهل الإسلام تأكيداً لما تقدم من قوله ﴿ كنتم خير أمة ﴾ وهو كقوله ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يسترور ﴾ .

ثم اعلم أنه تعالى مدح الأمة المذكورة في هذه الآية بصفات ثمانية .

﴿ الصفة الأولى ﴾ أنها قائمة وفيها أقوال (الأولى) أنها قائمة في الصلاة يصلون آيات الله أثناء الليل فغير عن تعهدهم صلاة القرآن في ساعات الليل وهو كقوله (والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً) وقوله (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل) وقوله (ثم اتل) وقوله (وقوموا لله خاشعين) والذي يدل على أن المراد من هذا الخيام في الصلاة قوله (وهم يسجدون) وانما ظاهر أن السجدة لا تكون إلا في الصلاة .

﴿ والقول الثاني ﴾ في تفسير كونها قائمة : أنها ثابتة على التمسك بالدين الحق ملازمة له غير مضطربة في التمسك به كقوله (لا ما دعيت عليه قائماً) أي ملازمة للاقتضاء ثباتاً على

المطالبة مستغنياً فيها ، ومنه قوله تعالى (فائياً بالقسط) .

وأقول : إن هذه الآية دلت على كون المسلم فائياً بحق العبودية وقوله (فائياً بالقسط) يدل على أن المولى قائم بحق الربوبية في العدد والإحسان فثبت المعاهدة بفضل الله تعالى كما قال (أوفوا بعهدي أوفى بعدكم) وهذا قول الحسن البصري ، واحتج عليه بما روي أن عمر بن الخطاب قال يا رسول الله : إن سائساً من أهل الكتاب يمدوننا بما يصحبنا فلموكتناهم ، فغضب الله وقال : أمتهوكون أشم يا ابن الخطاب كما تهوكت اليهود ، قال الحسن : منحرون مترددون ، أما والذي نفسي بيده لقد أتيتكم بها بغضاً نفية ، وفي رواية أخرى قال عبد ذلك ، إنكم لم تكلفوا أن تعصوا بما في التوراة والإنجيل وإن أمرتم أن تؤمنوا بها وتعرضوا علمها إلى الله تعالى ، وكلعتم أن تؤمنوا بما أنزل على في هذا الوحى عدوة وعشياً والذي نفس محمد بيده لو أدركني إبراهيم وموسى وعيسى لأمنوا بي وأتبعوني ، فهذا الخبر يدل على أن الثبات على هذا الدين واجب وعدم المتعلق بغيره واجب ، فلا حرم مدحه الله في هذه الآية بذلك فقال (من أهل الكتاب أمة قائمة) .

❖ القول الثالث ❖ « أمة قائمة » أي مستقيمة عادنة من قولك : أقممت العود فقام بمعنى استقام ، وهذا كالتقرير لقوله (كشتم حير أمة) .

❖ الصفة الثانية ❖ قوله تعالى (يتلون آيات الله آناء الليل) وفيه مسائل :

❖ المسألة الأولى ❖ (يتلون ويؤمنون) في محل الرفع صفتان لقوله (أمة) أي أمة قائمة يتلون مؤمنون .

❖ المسألة الثانية ❖ التلاوة القراءة وأصل الكلمة من الاتسع فكأن التلاوة هي تباع المفظ اللفظ .

❖ المسألة الثالثة ❖ آيات الله قد يراد بها آيات القرآن ، وقد يراد بها أصناف مخلوقاته التي هي دالة على ذاته وصفاته والمراد هنا الأولى .

❖ المسألة الرابعة ❖ (آناء الليل) أصلها في اللغة الأوقات والساعات وواحدتها إنا ، مثل : معي وأمعاء وإني مثل نحي وإنحاء ، مكسور الأول ساكن الثاني ، قال الفراء : هو الله ، كأن الثاني مأخوذة منه لأنه ، نظار الساعات والأوقات ، وفي الخبر أن النبي ﷺ قال للرجل الذي أصر النجى ، إلى الجمعة أدبت وأنيث ، أي دافعت الأوقات .

❖ الصفة الثالثة ❖ قوله تعالى (وهم يسجدون) وفيه وجوه (الأول) يحتمل أن يكون

حالاً من التلاوة كأنهم يقرؤن القرآن في السجدة مبالغة في الخضوع والخشوع إلا أن الغفال رحمه الله روي في تفسيره حديثاً : أن ذلك غير جائز ، وهو قوله عليه السلام : « لا ينبغي سبوت أن أقرأ راعياً وساجداً » (الثاني) يجعل أن يكون كلاماً مستغلاً والمعنى أنهم يقومون تارة يستنون الفضل والرحمة بأنواع ما يكون في الصلاة من الخضوع لله تعالى وهو كقولهم (والذين يبيتون لرجيم سجداً دونهما) وقوله (أمن هو قالت أنا الليل ساجداً أو فأنما يجنح الأحرار ويرجوه رحمة ربه) قال الحسن : يربح رأسه بقدومه وقدمه برأسه ، وهذا على معنى إرادة الراحة وإزالة التعب وإحداث النشاط (الثالث) يحتمل أن يكون المراد بقوله (وهم يسجدون) أنهم يصلون وصفهم بالتهجد بالليل والصلاة تسمى سجوداً وسجدة وركوعاً وركعة ونسجاً ونسيجة ، قال تعالى (واركعوا مع الرাকعين) أي صلوا وقال (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) والمراد الصلاة (الرابع) يحتمل أن يكون المراد بقوله (وهم يسجدون) أي يخضعون ويخشعون لله لأن العرب تسمى الخضوع سجوداً كقولهم (الله يسجد ما في السموات وما في الأرض) وكل هذه الوجوه ذكرها الغفال رحمه الله .

﴿ الصفة الرابعة ﴾ قوله (يؤمنون بالله واليوم الآخر) وأعلم أن اليهود كانوا أيضاً يقومون في الليل للتهجد وقراءة التوراة ، فلما مدح المؤمنين بالتهجد وقراءة القرآن أردف ذلك بقوله (يؤمنون بالله واليوم الآخر) وقد بينا أن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بجميع أنبيائه ورسوله والإيمان باليوم الآخر يستلزم الحذر من المعاصي ، وهؤلاء اليهود ينكرون أنبياء الله ولا يحترزون عن معاصي الله ، فلم يحصل لهم الإيمان بليلاً والمعاد .

وأعلم أن كمال الإنسان أن يعرف الحق نداته ، والخير لأجل العسل به ، وأفضل الأعمال الصلاة وأفضل الأذكار ذكر الله ، وأفضل المعارف معرفة المبدأ ومعرفة المعاد ، فقوله (يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) إشارة إلى الأعيان الصالحة الصادرة عنهم وقوله (يؤمنون بالله واليوم الآخر) إشارة إلى فضل المعرف الحاصلة في قلوبهم فكان هذا إشارة إلى كمال حالهم في القوة العملية وفي القوة النظرية ، وذلك أكمل أحوال الإنسان ، وهي المرتبة التي يقال لها : إنها آخر درجات الإنسانية وأول درجات الملكية .

﴿ الصفة الخامسة ﴾ قوله (ويأمرون بالمعروف) .

﴿ الصفة السادسة ﴾ قوله (يتهون عن المنكر) وأعلم أن الغاية القصوى في الكمال أن يكون تالماً وفوق التام تكون الإنسان تاماً ليس إلا في كمال قوته العملية والنظرية وقد تقدم

ذكره ، وكونه فرق التام أن يسمى في تكميل النقصين ، وذلك بطريقتين ، إما بإشادتهم إلى ما ينبغي وهو الأمر بالمعروف ، أو بنقصهم عما لا ينبغي وهو النهي عن المنكر ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : (يأمرون بالمعروف) أي بتوحيد الله ونبوة محمد ﷺ (وينهون عن المنكر) أي ينهون عن الشرك بالله ، وعن تكذيب نبوة محمد ﷺ ، وأعلم أن لفظ المعروف والمنكر مطلق فلم يميز تخصيبه بغير دليل ، فهو يشاؤل كل معروف وكل منكر .

﴿ الصفة السابعة ﴾ قوله (وسارعون في الخيرات) وفيه وجهان (أحدهما) أنهم يتسارعون إليها خوفاً الموت بالموت ، والآخر : يعملونها غير متأنقين . فان قيل : أليس أن العجلة مذمومة قال عليه الصلاة والسلام : العجلة من الشيطان والثاني من الرحمن ، فما الفرق بين التسرعة وبين العجلة ؟ قلنا : التسرعة مخصوصة بأن يقدم ما ينبغي تفتيته ، والعجلة مخصوصة بأن يقدم ما لا ينبغي تقديمه ، فالمسارعة مخصوصة بفرط الرغبة فيما يتعلق بالدين . لأن من رغب في الأمر ، أثر الفور على التراخي ، قال تعالى (وسارعوا إلى مقبرة ربكم) وأيضاً المعجزة ليست حذومعة على الإطلااق بدليل قوله تعالى (وعجلت إليك رب لترضى) .

﴿ الصفة الثامنة ﴾ قوله (وأولئك من الصالحين) والمعنى وأولئك الموصوفون بما وصفوا به من جملة الصالحين الذين صلحت أحوالهم عند الله تعالى ورضيهم ، وأعلم أن الموصوف بذلك عليه المدح ويدل عليه القرآن والمعقول ، أما القرآن ، فهو أن الله تعالى مدح بهذا الموصوف أكابر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقال : بعد ذكر إسرائيل وإدريس وذو الكفل وغيرهم (وأدخلناهم في رحمنا) ثم من الصالحين (وذكر حكايمة عن سليمان عليه السلام أنه قال (وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) وقال (هان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين) وأما المعقول فهو أن الصلاح ضد الفساد وكل ما لا ينبغي أن يكون فهو فساد . سواء كان ذلك في العقائد ، أو في الأعمال ، فإذا كان كل ما حصل من ماب ما ينبغي أن يكون ، فقد حصل الصلاح ، فكان الصلاح دالاً على أكمل الدرجات .

ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الصفات الشافية قال (وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم (وما يفعلوا من خير فلن يكفروه) بالياء على المذائية ، لأن الكلام متصل بما قبله من ذكر مؤمنين أهل الكتاب . يتلون ويسجدون ويؤمنون ويأمنون وينهون وسارعون . ولن يضيع لهم ما يعملون ، والمقصود أن جهال اليهود لما قالوا : لعبد الله بن سلام إنكم سترقم بسبب هذا الإيمان ، قال تعالى بل فازوا

بالدرجات العظمى ، فكان المقصود عظيمهم كثرة عن قلبهم أثر كلام أولئك الجهال ، ثم هذا وإن كان بحسب اللفظ يرجع إلى كل ما تقدم ذكره من مؤمن أهل الكتاب ، فإن سائر الخلق يدخلون فيه نظراً إلى العلة .

وأما البلغون فاهم قرؤا بالباء على سبيل المحطة فهو ابتداء خطاب لجميع المؤمنين على معنى أن أفعال مؤمنى أهل الكتاب ذكرت ، ثم قل . وما تفعلوا من خير معاشر المؤمنين الذين من حيثكم هؤلاء ، فلن تكفروا ، وانفاضة أن يكون حكم هذه الآية عاماً بحسب اللفظ في حق جميع المكلفين ، وما يؤكد ذلك أن نظائر هذه الآية جاءت عاطفة لجميع المخلائق من غير تخصيص بقوم دون قوم كقوله (وما تفعلوا من خير يعلمه الله) (وما تفعلوا من خير يوف إليكم) (وما تفعلوا من خير يحده عند الله) وأما آية عمر والمفقول عنه أنه كان يقرأ هذه الآية بالفراءتين

﴿ انفساً الثانية ﴾ (فلن تكفروا) أي لن تمنعوا ثوابه وجزائه وإجماعه مع الجزاء كفر لوجهين (لأول) أنه تعالى سمي بإيصال الثواب شكراً قال الله تعالى (فإن الله شاكراً عليم) وقال (فأولئك كان سعيهم مشكوراً) فلم يسمي بإيصال الجزاء شكراً سمي منعه كفراً (ولثاني) أن الكفر في اللغة هو السر فسمي منع الجزاء كفراً ، لأنه بمنزلة الخمد والستر .

فان قيل : لم قال (فلن تكفروا) معناه إلى مفعولين مع أن شكر وكفر لا يتعديان إلا إلى واحد يقال شكر السمعة وكفرها .

قلنا : لا نأبى أن معنى الكفر ههنا هو المنع والحرمان ، فكان كأنه قال طين محرم ، ولن تمنعوا جزاءه .

﴿ انفساً الثالثة ﴾ احتج القائلون بالموازنة من اذاعين إلى الإحاطة بهذه الآية فقال : صريح هذه الآية يدل على أنه لا بد من وصول أثر فعل العبد إليه ، فلو انحططوا من محيط من المحيط فقد دونه شيء لبطل مقتضى هذه الآية ، وتطبع هذه الآية قوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) .

ثم قال (والله عليم بالخفي) والمعنى أنه تعالى لما أخبر عن عدم الحرمان والجزاء أقام ما يجري مجرى الدليل عليه وهو أن عدم إيصال الثواب والجزاء إما أن يكون بنسيان وذلك محال في حقه لأنه غايهم بكل المعلومات ، وإما أن يكون للجهل والبخل وإخافة وذلك محال لأنه إله جميع المخلوقات ، فاسم الله تعالى يدل على عدم المعجز والمحل والحادثة ، وقوله

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٥﴾

(عليهم) يدل على عدم الجهل ، وإذا انتفت هذه الصفات امتنع المنع من الجزاء ، لأن منع الحق لا بد وأن يكون لأجل هذه الأمور والله أعلم ، إنما قال (عليهم بالمتقين) مع أنه عالم بالكل بشارة للمتقين بجزيel الثواب ودلالة على أنه لا يفوز عنده إلا أهل التقوى .

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

أعلم أنه تعالى ذكر في هذه الآيات مرة أحوال الكافرين في كيفية العقاب ، وأخرى أحوال المؤمنين في الثواب جامعاً بين الزجر والترغيب والوعيد والوعيد ، فلما وصف من نُس من الكفار بما تقدم من الصفات الحسنة أتبعه تعالى بوعيد الكفار . فقال (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ) وفي الآية مسائل .

﴿ المسألة الأولى ﴾ في قوله (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) قولان (الأول) المراد منه بعض الكفار فم القائلون بهذا القول ذكروا وجوها (أحدها) قال ابن عباس : يريد تويظة والنصب ، وذلك لأن مقصود رؤساء اليهود في معاندة الرسول ما كان إلا المال والدليل عليه قوله تعالى في سورة البقرة (وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمناً قليلاً) (وثانيها) أنها نزلت في مشركي قريش ، فإن أبا جهل كان كثير الانفتاح بجاهه ولهذا السبب نزل فيه قوله (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَنْثاً وَرِثاً) وقوله (فليدخ نخبة مستدع الزمانية) (وثالثها) أنها نزلت في أبي سفيان ، فإنه انفق مالا كثيراً على الشركين يوم بدر وأحد في عداوة النبي ﷺ .

﴿ والمحل الثاني ﴾ أن الآية عامة في حق جميع الكفار ، وذلك لأهم كلهم كانوا يتميزون بكثرة الأموال ، وكانوا يعيرون الرسول ﷺ وأتباعه بالفقر ، وكان من حملة شبههم أن قالوا - لو كان محمد علي الحق لما تركه ربه في هذا الفقر والبدة ، ولأن اللفظ عام ، ولا دليل يوجب التحصيل فوجب إجرؤه على عمومه . وثالوثين أن يقولوا : إنه تعالى قال بعد هذه الآية (مثل ما ينفقون) فالضمير في قوله (ينفقون) عائد إلى هذا الموضع ، وهو قوله (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) ثم إن قوله (ينفقون) مخصوص ببعض الكفار ، فوجب أن يكون هذا أيضاً مخصوصاً .

مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا
أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ، وَمَا ظَنَّهُمْ أَنَّهُ وَلَكِنَّ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٤١﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ : إنما خص تعالى الأموال والأولاد بالذكر لأن أنفع الحياتيات هو
الأموال وأنفع الحيوانات هو الولد ، ثم بين تعالى أن الكافر لا ينتفع بها البتة في الآخرة ،
ودلت يدل على عدم تنفعه بسائر الأشياء بطريق الأولى ، ونظيره قوله تعالى (يوم لا ينفع مال
ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) وقوله (واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً) الآية
وقوله (قلن يفتل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به) وقوله (وما أموالكم ولا
أولادكم بالنار تقرىكم عندنا زلفى) ولذا بين تعالى أنه لا انتفاع لهم بأموالهم ولا بأولادهم ، قال
(وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن ساق أهل الصلاة لا يبقون في النار أبداً فقالوا قوله
(وأولئك أصحاب النار) كلمة نفي لا تخصه بغيره ، وأولئك أصحاب زيد لا غيرهم وهم
المنتفعون به لا غيرهم ولما أفادت هذه الكلمة معنى الحصر ثبت أن الخلود في النار ليس إلا
للكافر .

قوله تعالى ﴿ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرت قوم
ظلموا أنفسهم فاهلكته وما ظنهم أنه ولكن أنفسهم يظلمون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين أن أموال الكفار لا تغني عنهم شيئاً ، ثم أنهم ربما أنفقوا أموالهم
في وجوه الخيرات ، فيخطر بهال الإنسان أنهم ينتفعون بذلك ، فزال الله تعالى بهذه الآية تلك
الشبهة ، وبين أنهم لا ينتفعون بذلك ، لإشغافهم ، وإن كانوا قد قصدوا بها وجه الله .

وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ : المثل النسخ الذي يصير كالعلم لكثرة استعماله فلما يشبه به وحاصل
الكلام أن كفرهم يظلم ثواب نفقتهم ، كما أن الربح الباردة تهلك الزرع .

فإن قيل : فعلى هذا التقدير مثل نفقتهم هو الحرث الذي هلك ، فكيف شبه الإثفاق

بالريح الباردة المهلكة .

قلنا : المثل قصبان منه ما حصلت فيه المشابهة بين ما هو المقصود من الخملتين وإن لم تحصل المشابهة بين أجزاء الخملتين ، وهذا هو السعي بالتشبيه المركب ، ومنه ما حصلت المشابهة فيه بين المقصود من الخملتين ، وبين أجزاء كل واحدة منهما ، فلذا جعلنا هذا المثل من القسم الأول زال السؤال ، وإن جعلناه من القسم الثاني فغيب وجوه (الأول) أن يكون التقدير : مثل الكفر في إهلاك ما ينفقون ، كمثل الريح المهلكة للحرث (الثاني) مثل ما ينفقون ، كمثل مهلك ريع ، وهو الحرث (الثالث) لعل الإشارة في قوله (مثل ما ينفقون) إلى ما أنفقوا في إيذاء رسول الله ﷺ في جمع العساكر عليه ، وكان هذا الإنفاق مهلكا لجميع ما أتوا به من أعمال الخير والبر وحينئذ يستقيم التشبيه من غير حاجة إلى إضمار وتقديم وتأخير ، والتقدير : مثل ما ينفقون في كونه مبطلا لا أتوا به قبل ذلك من أعمال البر كممثل ريع فيها صر في كونها مبطلة للحرث ، وهذا الوجه حطر ببلى عند كتابتي على هذا الموضع ، فإن إنفاقهم في إيذاء الرسول ﷺ من أعظم أنواع الكفر ومن أشدها تأثيرا في إبطال آثار أعمال البر .

❖ المسألة الثانية ❖ اختلفوا في تفسير هذا الإنفاق على فواين (الأول) أن المراد بالإنفاق ههنا هو جميع أمعي لهم التي يرجون الانتفاع بها في الآخرة سواء الله إنفاقا كما سمي ذلك ببعاء وشراء في قوله (إن الله يشتري من المؤمنين أنفسهم) إلى قوله (فتسبيحوا بحمك الذي يبعثهم به) ولها يدل على صحة هذا التلويل قوله تعالى (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما يحبون) والمراد به جميع أعمال الخير وقوته تعالى (لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) والمراد جميع أسواع الإنفعات .

❖ والقول الثاني ❖ وهو الأشبه أن المراد إنفاق الأموال ، والتدليل عليه ما قبل هذه الآية وهو قوله (لن تنفي عنهم أموالهم ولا أولادهم) .

❖ المسألة الثالثة ❖ قوله (مثل ما ينفقون) المراد منه جميع الكفار أو بعضهم ، فيه قولان : (الأول) المراد الإخبار عن جميع الكفار ، وذلك لأن إنفاقهم إما أن يكون لمنافع الدنيا أو لمنافع الآخرة فإن كان لمنافع الدنيا لم يبق منه أثر البتة في الآخرة في حق السلم فضلا عن الكافر وإن كان لمنافع الآخرة لم ينتفع به في الآخرة لأن الكفر مانع من الانتفاع به ، فثبت أن جميع نفقات الكفار لا فائدة فيها في الآخرة ، ولعلمهم أنفقوا أموالهم في الخيرات نحو بناء الرباطات والقنابر والإحسان إلى الضعفاء والأيتام والأرامل ، وكان ذلك المنفق يرجو من ذلك الإنفاق خيرا كثيرا فلذا قدم الآخرة رأى كفره مبطلا لانثار الخيرات ، فكان كمن زرع زراعا

وتوقع منه ضحا كثيرا عاصيته وريح فأحرقه فلا يبقى معه إلا الحزن والأسف . هذا إذا انتفخوا الأموال في وجوه الخيرات أما إذا انتفخوا فيها طغيه أنه الخيرات لكنه كان من المعاصي مثل إتفاق كاهنوا في إيذاء الرسول ﷺ وفي قتل المسلمين وتخريب ديارهم ، فالذي فيه فيه أسد وأسد ، ونصير هذه الآية قوله تعالى : (ولما إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) وقال (إن الذين كفروا يفتنون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فيسبقفون ما لم تكون عليهم حسرة) وقوله : (والذين كفروا أعمالهم كسراب مضية) فكل ذلك يدل على الحسرات من الكفر لا تستعذب الثواب ، وكل ذلك مجمع في قوله تعالى : (إنما يفتل الله من المؤمنين) وهذا القول هو الأقوى والأصح .

وأعلم أنا فسر الآية بحية هؤلاء الكفار في الآخرة ولا بعد أيضا تفسيرها بحيرتهم في الدنيا ، فانهم انتفخوا الأموال الكثيرة في جمع العساكر وتجهيز المشاق ثم انتفب الأمر عليهم ، وأظهر الله للإسلام وقوة فلم يبق مع الكفار من ذلك الإتفاق إلا الحية واخسرة .

﴿ والقول الثاني ﴾ مراد منه الإخبار عن بعض الكفار ، وعلى هذا القول فقي الآية وجوه (الأول) أن المناقض كانوا يفتنون أموالهم في سبيل الله ولكن على سبيل التفتية والحرف من المسلمين وعلى سبيل المداواة هم فالآية فيهم (الثاني) نزلت هذه الآية في أبي سفيان وأصحابه يوم بدر عند تفاهمهم على الرسول عليه السلام (الثالث) نزلت في يفتان سفلة اليهود على أخبارهم لأهل التعريف (والرابع) المراد ما يفتنون ويظنون أنه نصرت إلى الله تعالى مع أنه ليس كذلك .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اختلفوا في (الصر) على وجود (الأول) قال أكثر المفسرين وأهل اللغة . الصر المبرد لشديد وهو قول ابن عباس وقتادة والسدي وابن زيد (والثاني) أن الصر : هو السموم الحارة والبار التي تغلي ، وهو اختيار أبي بكر الأصم وأبي بكر بن الأنباري ، قال ابن الأنباري . وإنما وصفت النار بأنها (صر) لتصوبتها عند الالتهاب ، ومنه صرير الباب ، والصرصر مشهور ، والصرة الصيحة ومنه قوله تعالى (فأقبلت امرأته في صرة) وروى ابن الأنباري ما سلاه عن ابن عباس رضي الله عنهما في (فيها صر) قال فيها نار ، وعلى القولين فالظهور من التشبيه حاصل ، لأنه سواء كان برد مهلكا أو حرا محرقا فإنه يصير مبطلا للحرف والزور فبصح التشبيه به .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ لمعتزلة احتجوا بهذه الآية على صحة القول بالإحباط ، وذلك لأنه كما أن هذه الريح نهلك الحرث فكذلك الكفر يهلك الإتفاق ، وهذا إنما يصح إذا قلنا : أنه لولا الكفر لكان ذلك الإتفاق موجب خاتع الآخرة وحديث يصح انقول بالإحباط ، وأجاب

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَيِّنَاتٍ مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْتِ الْوَسْوَاسَ الْخَبِيرَ إِلَّا بِمَا مَنَعْتُمْ قَدْ
بَدَتْ الْبَيِّنَاتُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَحِثُّ سُدُورُهُمْ أَكْثَرُ قَدْ يَتْلَوُكُمْ أَكْثَرُ بِئْسَ كُفُلًا لِّمَن كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾

أصحابنا عنه بأن العمل لا يستلزم الثواب إلا بحكم الوعد ، والوعود من الله مشروطة بحصول
الإيمان ، فإذا حصل الكفر فانت الشرط فثبوت شرطه لأن الكفر أثره بعد ثبوته ، ودلائل
بطلان القول ، لا حيلة قد تقدمت في سورة الحرة .

ثم قال تعالى (أصابت حرث قوم ظلّموا أنفسهم) وفيه سؤال : وهو أن يقال : لم لم
يقصر على قوله (أصابت حرث قوم) وما العائدة في قوله (ظلّموا أنفسهم) .

فلما : في تفسير قوله (ظلّموا أنفسهم) وجهان (الأول) أنهم عصوا الله فاستحقوا
هلاك حرثهم عفوته لهم . والعائدة في ذكره هي أن الغرض تشبيه ما يفتنون به ، يذهب
بالكلية حتى لا يبقى منه شيء ، وحرث الكافرين الظالمين هو الذي يذهب بالكلية ولا يحصل
منه منفعة لا في الدنيا ولا في الآخرة ، فأما حرث المسلم المؤمن فلا يذهب بالكلية لأنه وإن كان
يذهب صورة فلا يذهب معنى ، لأن الله تعالى يريد في ثوابه لأجل وصول تلك الأجران إليه
(والثاني) أن يكون المراد من قوله (ظلّموا أنفسهم) هو أنهم رزخوا في غير موضع الروح أو
في غير وقت ، لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، وعلى هذا التفسير يتكاد وجه التشبيه ،
فإن من رزح لا في موضعه ولا في وقته يقسم ، ثم إذا أصابه الريح الباردة كان أولى بأن يصير
خائما ، فكذلك هم الكفار لما أتوا بالاتفاق لا في موضعه ولا في وقته ثم أصابه سؤم كفرهم امتنع
أن لا يصير ضائعا والله أعلم .

ثم قال تعالى (وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون) والمعنى أن الله تعالى ما ظلمهم
حيث لم يقبل بغيائهم ، ولكنهم ظلّموا أنفسهم حيث أتوا بها مبررة بالوجه المصلحة من كونها
مقبولة لله تعالى قال صاحب الكشف : قرئ (ولكن) بالثبوت ديد بمعنى ولكن أنفسهم
يظلمون ، ولا يجوز أن يروى ، ولكنه أنفسهم يظلمون على إسقاط ضمير الشأن ، لأنه لا يجوز
إلا في الشعر .

قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بظانكم دينا ﴾ لا يألوكم خيالا ودم ما عنتم قد
بدت البينات من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بدت لكم آيات إن كنتم تعقلون ﴿

اعلم انه تعالى لما شرح احوال المؤمنين والكافرين شرع في تحذير المؤمنين عن مخالطة الكافرين في هذه الآية وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختلقوا في أن الذين نهي الله المؤمنين عن مخالطتهم من هم ؟ على أقوال : (الأول) أنهم هم اليهود ذلك لأن المسلمين كانوا يشاورونهم في أمورهم ويؤثرونهم لما كان بينهم من الرضاخ ، والحلف ظناً منهم أنهم وإن خالفوهم في الدين فهم يصحون لهم في أسباب المعاش فنهىهم الله تعالى بهذه الآية عنه ، وحجة أصحاب هذا القول أن هذه الآيات من أوها إلى آخرها مخاطبة مع اليهود فتكون هذه الآية أيضاً كذلك (الثاني) أنهم هم المنافقون ، وذلك لأن المؤمنين كانوا يفترون بظاهر أقوال المنافقين ويظنون أنهم صدقون فيقتنون إليهم الأسرار ويطمعونهم على الأحوال الخفية ، فأنهى تعالى منعهم عن ذلك ، وحجة أصحاب هذا القول أن ما بعد هذه الآية يدل على ذلك وهو قوله (وإذا لقوكم فليؤاآمنوا) وإذا حلوا عضواً عنكم الأنامل من العيظ) ومعلوم أن هذا لا يلحق باليهود بل هو صفة المنافقين ، وتظهر قوله تعالى في سورة البقرة (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا حلوا إلى شيطانهم قالوا إن معكم عني نحن مستهزؤون) (الثالث) المراد به جميع أصناف الكفار والدليل عليه قوله تعالى (بطلنة من دينكم) فمنع المؤمنين أن يتخذوا بطلنة من غير مؤمنين فيكون ذلك سبباً عن جميع الكفار وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء) وما يؤكد ذلك ما روي أنه قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : ههنا رجل من أهل الحيرة نصراني لا يعرف أقوى حنظلاً ولا أحسن خطامته ، فإن رأيت أن نتخذك كسباً ، فامتنع عمر من ذلك وقال : إذن اتخذت بطلنة من غير المؤمنين ، فقد جعل عمر رضي الله عنه هذه الآية دليلاً على النهي عن اتخاذ بطلنة ، وأما ما تنسكوا به من أن ما بعد الآية يختص بالمنافقين فهذا لا يمنع عموم أول الآية ، فإنه ثبت في أصل الفقه أن أول الآية إذا كان عاماً وآخرها إذا كان خاصاً لم يكن خصوص آخر الآية مانعاً من عموم أوها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال أبو حنيفة عن الأصمعي : بطن فلان بقلان بطن به بطوناً وبطلانة ، إذا كان خاصته داخل في أمره ، فلبطلانة مصدر يسمى به الواحد والجمع ، وبطلانة لرجل خاصته الذين يعضون أمره وأصله من البطن خلاف الظهر ، ومنه بطلانة الثوب خلاف ظهره ، والحاصل إن نذري يخص الإنسان بمزيد التقريب يسمى بطلانة لأنه بمنزلة ما يلي بطنه في شدة القرب منه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (لا تتخذوا بطلانة) نكرة في سياق النفي فيفيد لعموم .

أما قوله (من دونكم) ففيه مسائل

❖ المسألة الأولى ❖ من دونكم أي من دون المسلمين ومن غير أهل ملئكم ولفظ (من دونكم) يحسن حمله على هذا الوجه كما يقول الرجل : قد أحسستم إلبنا وأنعمتم علينا ، وهو يريد أحسستم إلى إخواننا ، وقال تعالى (ويقتلون النبيين بغير حق) أي أبلؤهم ففعلوا ذلك .

❖ المسألة الثانية ❖ في قوله (من دونكم) احتمالان (أحدهما) أن يكون متعلماً بقوله (لا تتخذوا) أي لا تتخذوا من دونكم بطانة (والثاني) أن يجعل وصفاً للبطانة والتقدير : بطانة كانت من دونكم .

فإن قيل . ما الفرق بين قوله : لا تتخذوا من دونكم بطانة ، وبين قوله (لا تتخذوا بطانة من دونكم) ؟

قلنا : قال سيوطي : انهم يقدمون الأهم والذي هم بشأنه أعني وههنا ليس المقصود اتخذ البطانة إنما المقصود أن يتخذ منهم بطانة تكاد قوله : لا تتخذوا من دونكم بطانة أقوى في إفادة المقصود .

❖ المسألة الثالثة ❖ قيل (من) زائدة ، وقيل للنبيين : لا تتخذوا بطنة من دون أهل ملئكم . فإن قيل : هذه الآية تضمني الشيع من مصاحبة الكفار على الإطلاق ، وقال تعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم) (إن ينهاكم الله عن الذين قتلوكم) فكيف الجمع بينهما ؟ قلنا : لا شك أن الخاص يقدم على العام .

واعلم أنه تعالى لما منع المؤمنين من أن يتخذوا بطانة من الكافرين ذكر علة هذا النهي وهي أمور (أحدها) قوله تعالى (لا يأتونكم خيلاً) وفيه مسائل :

❖ المسألة الأولى ❖ قال صاحب الكشف : يقال (ألا) في الأمر يأتوا إذا قصر فيه ، ثم استعمل معدي إلى مفعولين في قولهم : لا ألتوك نصحاً ، ولا ألتوك جهداً على التضمين ، والمعنى لا امتحك نصحاً ولا أنتصك جهداً .

❖ المسألة الثانية ❖ الخيال الفساد والمقصان ، وأنشدوا :

لستم بيد إلا يداً غيولة المضد

أي مأسدة المضد متفوضتها ، ومع قيل : رجل غيول وغييل وغييل لمن كان ناصس

العقل ، وقال تعالى : (لم يخرجوا فيكم ما زادكم إلا خيالاً) أي فساداً وضرباً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (لا يأتونكم خيالاً) أي لا يدعون جهدهم في مضرتكم وفسادكم ، يقال : ما ألوته نصحاً ، أي ما قصرت في نصيحته ، وما ألوته شراً مثله .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ انتصب الخيال بلا يأتونكم لأنه يتعدى إلى مفعولين كما ذكرنا وإن شئت نصبته على المصدر ، لأن معنى قوله (لا يأتونكم خيالاً) لا يجهلونكم خيالاً (وثانيها) قوله تعالى (ودوا ما عنتهم) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ يقال وددت كذا ، أي أحببته و (العنت) شدة الضرر والمشقة قال تعالى (ولول شاء الله لأعنتكم) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما مصدرية كقوله (ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وما كنتم تفرحون) أي بفرحكم وبمرحكم وكقوله (والسماء وما بها والأرض وما طحاها) أي بنات إياها وطحها إياها .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ تقدير الآية : أحبوا أن يضروكم في دينكم ودياركم أشد الضرر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال الواحدي رحمه الله : لا عن لقوله (ودوا ما عنتهم) لأنه استئناف بالجملة وقيل : إنه صفة لبطنة ، ولا يصح هذا لأن البطنة وقد وصفت بقوله (لا يأتونكم خيالاً) فلو كان هذا صفة : أيضاً لوجب إدخال حرف العطف بينها .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الفرق بين قوله (لا يأتونكم خيالاً) وبين قوله (ودوا ما عنتهم) في المعنى من وجوه (الأول) لا يفصلون في إفساد دينكم ، فإن محضوا عنه ودوا إلقاءكم في أشد أنواع الضرر (الثاني) لا يفصلون في إفساد أموركم في الدنيا ، فإذا محضوا عنه لم يزل عن قلوبهم حسب اعتنائكم (والثالث) لا يفصلون في إفساد أموركم ، فإن لم يفعلوا ذلك فخرج من خارج ، فحب ذلك غير زائل عن قلوبهم (ورابعها) قوله تعالى (قد بدلت البغضاء من أفواههم) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ البغضاء أشد البغض ، فالبغض مع البغضاء كالضرر مع الضرر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الأتواء جمع الغم والغم أصبه فوه دليل أن جمعه أفواء ، يقال : مموء وأفواء كسوط بأسواط ، وطروق وأطرواق ، ويقال رحل مموء إذا أجاد الفون ، وأفواء إذا كان

هَاتُوا آلَاءَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا يُجِيبُهُمْ وَلَا يُحْيِيهِمْ وَلَا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِذَا قُلُوبُهُمْ مُلْكَتْ وَاسْتَأْذَنُوا لِمَا هُمْ يَفْعَلُونَ قُلْ أَعْمَلُوا لِلَّذِينَ أَنْتُمْ مُوَدِّعُونَ وَإِذَا تَوَلَّوْا فَعَلُوا الْفِعْلَ إِنَّا اللَّهُ عَالِمُ سِرِّكُمْ

واسع العلم ، فثبت أن أصل النعم فهو يوزن سوط ، ثم حذفت الهاء تخفيفاً ثم أضيف الميم مقام النوازل لاهيا حرفان شفوياً .

﴿ النسخة الثالثة ﴾ قوله (قد بدت البغضاء من أخواهم) إن حملاً على المنافقين صريحاً في تفسيره وجهان (الأول) أنه لا بد في المنافق من أن يجري في كلامه ما يدل على نفاقه ومغاباته لطريق المصلحة في النود والمصلحة ، ونظير ، قوله تعالى (ولنعرفهم في حق النور) (الثاني) قال قتادة : قد بدت البغضاء لأوليائهم من المنافقين والكفار لاطلاع بعضهم بعضاً على ذلك ، أما إن حملاً على اليهود فتفسير قوله (قد بدت البغضاء من أخواهم) فهو أنهم يظهر ون تكذيب فيكم وكتابكم ويسبونكم إلى الجهن والمسلون ، ومن اعتقه في غيره الإصرار على الجهل والحق المستحق أن يحبه ، بل لا بد وأن يبغضه ، لهذا هو المراد بقوله (قد بدت البغضاء من أخواهم) .

ثم قال تعالى (وما تخفي صدورهم أكبر) يعني الذي يظهر على لسان المنافق من علامات البغضاء أقل مما في قلبه من النفرة ، والذي يظهر من علامات الخذل على لسانه . قل بما في قلبه من الخذل ، ثم بين تعالى أن إظهار هذه الأسرار للمؤمنين من نعمه عليهم ، فقال (قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون) أي من أهل العقل والفهم والدراسة ، وقيل (إن كنتم تعقلون) الفصل بين ما يستحقه العدو والوحي ، والمقصود بعلمهم على استعمال العقل في تأمل هذه الآية وتذير هذه البيات ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ هَاتُوا آلَاءَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا يُجِيبُهُمْ وَلَا يُحْيِيهِمْ وَلَا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِذَا قُلُوبُهُمْ مُلْكَتْ وَاسْتَأْذَنُوا لِمَا هُمْ يَفْعَلُونَ قُلْ أَعْمَلُوا لِلَّذِينَ أَنْتُمْ مُوَدِّعُونَ وَإِذَا تَوَلَّوْا فَعَلُوا الْفِعْلَ إِنَّا اللَّهُ عَالِمُ سِرِّكُمْ ﴾

وعلم أن هذا نوح إحرمن تحذير المؤمنين عن مخالطة المنافقين ، وفيه مثل .

﴿ النسخة الأولى ﴾ قال السيد السرحني سلمه الله (هـ) للتنبيه و (أنتم) مبتدأ

و (أولاً) خبره و (تحببوا) في موضع نصب على الحال من اسم الإشارة ، ويجوز أن تكون (أولاً) بمعنى الذين و (تحببوا) صلة له ، والموصول مع الصلة خبر (أنتم) وفان المراء (أولاً) خبر و (تحببوا) خبر بعد خبر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه تعالى ذكر في هذه الآية أموراً ثلاثة ، كل واحد منها على أن المؤمن لا يجوز أن يشك غير المؤمن بظانته لنفسه (فالأول) قوله (تحببوا ولا يحببواكم) وفيه وجه : (أحدها) قال الفضل (تحببوا) يريدون لهم الإسلام وهو خير الأديان (ولا يحببواكم) لأنهم يريدون بقاءكم على الكفر ، ولأنه لا يجب الهلاك (الثاني) (تحببوا) سبب ما بينكم وبينهم من الرضاغة والمصاهرة (ولا يحببواكم) بسبب كونكم مسلمين (الثالث) (تحببوا) سبب أنهم أظهروا لكم الإيمان (ولا يحببواكم) بسبب أن الكافر مستقر في باطنهم (الرابع) قال أبو بكر الأصم (تحببوا) بمعنى أنكم لا تريدون إلقاءهم في الآفات والمحن (ولا يحببواكم) بمعنى أنهم يريدون إلقاءكم في الآفات والمحن وترى بصون بكم الدوائر (الخامس) (تحببوا) بسبب أنهم يظهرون لكم محبة الرسول ومحبة المحبوب محبوب (ولا يحببواكم) لأنهم يعلمون أنكم تحبون الرسول وهم يخشون الرسول ومحبة المخوض مبغوض (السادس) (تحببوا) أي تحفظواهم ، وتشتون إليهم أسراركم في أمور دينكم (ولا يحببواكم) أي لا يفعلوا مثل ذلك بكم .

واعلم أن هذه الوجوه التي ذكرناها إشارة إلى الأسباب الموجبة لكون المؤمنين يحببوا ولو كانوا يخشون المؤمنين ، فلكل داخل تحت الآية ، وقد عرفهم تعالى كرههم مبغضين فليؤمنوا وعرفهم أنهم مبطلون في ذلك البغض صار ذلك داعياً من حيث الطبع : ومن حيث الشرع إلى أن يصير المؤمنون مبغضين لهؤلاء المشافقين .

﴿ والسبب الثاني لذلك ﴾ قوله تعالى (وتؤمنون بالكتاب كله) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في الآية إشهار ، والتقدير : وتؤمنون بالكتاب كله وهم لا يؤمنون به ، وحسن حذف ما بين أن القديين يسمان معاً فكان ذكر أحدهما مغنياً عن ذكر الآخر .
﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر (الكتاب) بنقطة الواحد لوجه (أحدها) أنه ذهب به مذهب الجنس كقرآنهم : كثر النسخ في أيدي الناس (وثانيها) أن المصدر لا يجمع إلا على التأويل ، فلهذا لم يقل الكتب بدلاً من الكتاب ، وإن كان لو قاله جاز توسعاً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ تقدير الكلام : أنكم تؤمنون بكتبهم كلها وهم مع ذلك يخشونكم فما بالكم مع ذلك تحببواهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم ، وفيه توبيخ شديد بأنهم في

بأصلهم أصلب منكم في حكمكم ، وتظيره قوله تعالى (فانهم بألوان كما تأمنون وترجون من الله ما لا يرجون) .

﴿ السبب الثالث لتصح هذه الملاحظة ﴾ قوله تعالى (وإذا لمعكم أنوار) وإذا لمعكم قالوا أما وإذا خدوا عضوا عنكم الأنامل من الغيظ والمص : أنه إذا خلا بعضهم ببعض أظهر واحدة العداوة . وشدة الغيظ على المؤمنين حتى تبلغ تلك الشدة إلى عض الأنامل ، كما يفعل ذلك أجدنا إذا اشتد غيظه وعظم حزنه على فوات مهنوبه ، وما كثر هذا الفعل من العصب ، صار ذلك كتابة عن العصب حتى يقال في الغضب : إنه يعض يده غيظاً وإن لم يكن هناك عض . قال القسرون . وإنما حصل فيه هذا الغيظ الشديد لما رأوا من اختلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم وصلاح ذات بينهم .

ثم قال تعالى (قل موتوا بغيظكم) وهو دعاء عليهم بأن يرد غيظهم حتى يهلكوا به . والمراد من ازدياد الغيظ ازدياد ما يوجب هم ذلك الغيظ من قوة الإسلام وعزة أهله وما لهم في ذلك من الدل والحزني .

فإن قيل :

(قل موتوا بغيظكم) أمرهم بالإقامة على الغيظ ، وذلك الغيظ كفر ، فكان هذا أمرهم بالإقامة على الكفر وذلك غير جائز .

فتنا : قد بينا أنه دعاء بازدياد ما يوجب هذا الغيظ وهو قوة الإسلام فمضت المسألة .

وأيضاً فإنه دعاء عنهم بالموت قبل بلوغ ما ينموتون .

ثم قال (إن الله عليم بذات الصدور) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (ذات) كناية وصفت نسبة المؤث كما أن (ذو) كلمة وصفت

نسبة المذكر والمراد بذلك الصنوبر الحواطر القائمة بالقلب والدواعي والصورات الموجودة فيه وهي لكونها حالة في قلب متبعية إليه فكأن ذات الصدور ، والمعنى أنه تعالى علم بكل ما حصل في قلوبكم من الحواطر والنواحيث والصورات .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال صاحب الكشف يحتمل أن تكون هذه الآية داخلية في جملة

القول وإن لا تكون (أما الأولى) فالتقدير : أحرمهم مما يسرونه من عضهم الأنامل غيظاً إذا خدوا وقل لهم : إن الله عليم بما هو أخفى مما تسرونه سكم ، وهو مضمرات الصدور ، فلا تفتوا أن شيئاً من أسراركم يخفى عليه (أما الثاني) وهو أن لا يكون داخل في القول فمعناه : قل لهم ذلك يا محمد ولا تتعجب من اطلاعي إياك على ما يسرون ، فإني أعلم ما هو أخفى من

﴿ إِن تَتُكَّمُ حَسَنَةً تُسَوِّمُ ۖ وَإِن تَصِيْبَكَ شَيْئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصِيْرُوا وَتَفْعُوا لَا يَضُرَّكُمْ

شَيْءٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ يَخِيْطُ ۝ ٢٢٢ ﴾

ذلك ، وهو ما اضروه في صدورهم ولم يظهروه بالمتهم ويجوز أن لا يكون ، ثم قول وإن يكون قوله (قل موتوا بغيظكم) أمر الرسول ﷺ بطيب النفس وقوة الروح والاستئثار بوعده الله إياه أنهم سيكون عيشاً باعزاز الإسلام وإدلالهم به . كأنه قيل : حدث نفسك بذلك والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ إِن تَتُكَّمُ حَسَنَةً تُسَوِّمُ ۖ وَإِن تَصِيْبَكَ شَيْئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصِيْرُوا وَتَفْعُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ ٢٢٢ ﴾ .

واعلم أن هذه الآية من تمام وصف المنافقين ، فين تعالى أنهم مع ما لهم من الصفات الذميمة والأفعال المقيحة مترقبون نزول نوع من اللعنة والهلاك بالظنمين ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ : المراد أصلاً بالبدن ثم يعمى كل ما يصل إلى الشيء (ماساً) عن سبيل التشبیه فيقال : فلان مع الثعب والضب . قال تعالى (وما مسنا من لنوب) وقال (وإذا مسكم الضر في البحر) قال صاحب التفسير : المراد ههنا يعمى الإصابات . قال تعالى (إن تصيبك حسنة تسوهم وإن تصيبك مصيبة) وقوله (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من مصيبة فمن نفسك) وقال (إذ من الشر جزوعاً وإذا من الخير متوعاً) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ : المراد من الحسنة ههنا مفعلة اندبها على اختلاف أحوالها ، فمنها صحة البدن وحصول الخصب والفرح بالضيعة والاستبلاء على الأعداء ، وحصول الشجاعة والألفة بين الأحياء والمراد بالسبئية أمثالها ، وهي المرض والفقر والهزيمة والانحياز من العدو وحصول التفرق بين الأقارب ، والفشل والنهب والغارة . فين معنى أنهم يحزنون ويغصون بحصول نوع من أنواع الحسنة لمسلمين ويفرحون بحصول نوع من أنواع الحسنة لهم

﴿ المسألة الثالثة ﴾ : بقوله ساء الشيء يسوء وهو سىء ، والأتى شيئاً أي فجع ، ومنه قوله تعالى (ساء ما يعملون) والسوأت ضد الحسنى

ثم قال (وإن تصيروا) يعني على طاعة الله وعلى ما ينالكم فيها من شدة بغم (وتنفوا) كل ما نهاكم عنه وتوكلوا في أموركم على الله (لا يصركم كيدهم شيئاً) وفي مسائل :

المسألة الأولى ﴿قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو (لا يضركم) بفتح الباء وكسر الضاد وسكون الراء ، وهو من ضاربه يضره ، ويضوره ضوراً إذا ضربه ، والبقون (لا يضركم) بضم الضاد والراء المشددة وهو من الضر ، وأصله يضرركم جزماً ، فادغمتم الراء في الراء ونقلت ضمة الراء الأولى إلى الضاد وضمت الراء الأخيرة ، اتباعاً لأقرب الحركات وهي ضمة الضاد ، وقال بعضهم : هو على التقديم والتأخير تقديره : ولا يضركم كيدهم شيئاً إن نصبروا وتغفوا ، قال صاحب الكشف : وروى المفضل عن عاصم (لا يضركم) بفتح الراء .

المسألة الثانية ﴿الكيد هو أن يحتال الإنسان ليوقع غيره في مكروه ، وابن عباس قرر الكيد هنا بالمداورة . **المسألة الثالثة** ﴿ (شيئاً) نصب على المصدر أي شيئاً من الضر . **المسألة الرابعة** ﴿ معنى الآية : أن كل من صبر على أداء أوامر الله تعالى واتقى كل ما نهى الله عنه كان في حفظ الله فلا يضره كيد الكافرين ولا حيل المحتالين .

ومحقيق الكلام في ذلك هو أنه سبحانه إما خلق الخلق للعبودية كما قال (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) فمن وفى بعهد العبودية في ذلك فله سبحانه أكرم من أن لا يفي بعهد الربوبية في حفظه عن الآفات والمخافات ، وإليه الإشارة بقوله (ومن يق الله يجعل له هرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب) إشارة إلى أنه يوصل إليه كل ما يسره ، وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن تكذب من يمسد فاجتهد في اكتساب الفضائل

ثم قال تعالى (ان الله بما يعملون محيط) وفيه مسائل :

المسألة الأولى ﴿ قرئ بما يعملون بالياء على سبيل المغاية بمعنى أنه عالم بما يعملون في معاداتكم فيعانيهم عليه ، ومن قرأ بالياء على سبيل المخاطبة ، فالمعنى أنه عالم محيط بما تعملون من التصير والتفكر فيفعل بكم ما أنتم أهله .

المسألة الثانية ﴿ إطلاق لفظ المحيط على الله مجاز ، لأن المحيط بأشياء هو الذي يحيط به من كل جوانبه وذلك من صفات الأجسام ، لكنه تعالى لما كان عالماً بكل الأشياء قادراً على كل الممكنات ، جاز في مجاز اللغة أنه محيط بها ، ومنه قوله (والله من وراءهم محيط) وقال (والله محيط بالكافرين) وقال (ولا يحيطون به علماً) وقال (وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً) .

المسألة الثالثة ﴿ إنما قال (ان الله بما يعملون محيط) ولم يقل (ان الله محيط بما يعملون) لأنهم يفعلون الأهم والذي هم بشأنه ، أعني وليس المقصود هنا بيان كونه تعالى عالماً ، بينا أن جميع أعمالهم معلومة لله تعالى ومجزل بهم عليها فلا جرم قد ذكر السبل والله أعلم .

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٦﴾
طَائِفَتَانِ يَنْكُرَانِ نَفْسًا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١٧﴾

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ إِذْ غَدَوْتَ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ نَفْسًا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١٧﴾ .

اعلم أنه تعالى لما قال (وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتْلُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا) أنبه بما يعلم على سنة الله تعالى فيهم في باب النصرة والمعونة ودفع مضار العدو إذا هم صبروا وقاتلوا ، وخلاف ذلك فيهم إذا لم يصبروا فقال (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ) يعنى أنهم يوم أحد كانوا كثيرين للقتال ، فلما خالفوا أمر الرسول انهزموا ، ويوم بدر كانوا قليلين غير مستعدين للقتال فلما أطاعوا أمر الرسول غلبوا واستولوا على خصومهم ، وذلك يؤكد قولنا ، وفيه وجه آخر وهو أن الانكسار يوم أحد إقفا حصل بسبب تخلف عبد الله بن أبي بن سلول المنافق ، وذلك يدل على أنه لا يجوز المخاض هؤلاء المنافقين بطائفة وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ) فيه ثلاثة أوجه (الأول) تقديره وذكر إذ غدت (والثاني) قال أبو مسلم : هذا كلام معطوف بالواو على قوله (قد كان لكم آية في فتنة التفتا فتنه تقتل في سبيل الله وأخرى كافرة) يقول : قد كان لكم في نصر الله تلك الظاهرة القليلة من المؤمنين على الطائفة الكثيرة من الكافرين موضع اعتبار لتعرفوا به أن الله ناصر المؤمنين ، وكان لهم مثل ذلك من الآية إذ غدا الرسول ﷺ يئوى المؤمنين مقاصد للقتال (والثالث) العامل فيه محبط : تقديره والله بما يعملون محبط وإذ غدت .

﴿ المسألة الثانية ﴾ استلحقوا في أن هذا اليوم أي يوم هر ؟ فلاكثرون : أنه يوم ، أحد : وهو قول ابن عباس والسدي وابن إسحاق والربيع والأصم وأبي مسلم . وقيل : إنه يوم بدر ، وهو قول الحسن ، وقيل إنه يوم الأحزاب وهو قول مجاهد ومقاتل ، حجة من قال هذا اليوم هو يوم أحد روجه (الأول) أن أكثر العلماء بالمغازي زعموا أن هذه الآية نزلت في وقعة أحد (الثاني) أنه تعالى قال بعد هذه الآية (ولقد نصركم الله ببدر) والظاهر أنه معطوف على ما تقدم ، ومن حق المعطوف أن يكون غير المعطوف عليه ، وأما يوم الأحزاب ، فالقوم إنما

حالقوا امر الرسول ﷺ يوم أحد لا يوم الأحزاب ، فكانت قصة أحد التي بهذا الكلام لان المقصود من ذكر هذه القصة تقرير قوله (وإن نصبر واستبقوا) لا يضركم كيدهم شيئاً) فثبت ان هذا اليوم هو يوم أحد (الثالث) ان الانكسار واستيلاء العدو كان في يوم أحد أكثر منه في يوم الأحزاب لان في يوم أحد قتلوا جمعاً كثيراً من أكابر الصحابة ونم يفتى ذلك يوم الأحزاب فكان حمل الآية على يوم أحد أولى .

❖ المسألة الثالثة ❖ روى أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه ودعا عبد الله بن أبي بن سلول ولم يدعه قط قبلها فاستشاره فقال عبدالله وأكثر الانصر : يا رسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم والله ما خرجنا منها إلى عدم قط إلا أصحاب منا ولا دخل عدو علينا إلا أصبت منه . فكف وأنت فيما؟ فدعهم فإن أقاموا أقاموا بشر موضع وإن دخلو فتلهم الرجل في وجوههم ، ورماهم الساء والنصبان بالحجارة . وإن رجعوا رجعوا حائرين وقال أنسرون : أخرج بنا إلى هؤلاء الأكلب لئلا يظنوا أننا قد خفاهم ، فقبل عليه الصلاة والسلام : إني قد رأيت في منامي صفراً تدبح حولي فأولتها خيراً ورأيت في ذباب سيقي ثلماً فأولته هزقة ورأيت كأنني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم : فقال صوم من المسلمين من الذين فاتهم (بدر) وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد أخرج بنا إلى أحدنا مع يزالوا به حتى دخل فليس لأمته ، فيما ليس تدم المقوم ، وقالوا : بشياً صنعنا شير على رسول الله والوحي يأتيه ، فذللوا . له أصبح يا رسول الله ما رأيت ، فقال : لا ينبغي لشي أن يلبس لأمته فيضرب حتى يقتل ، فخرج يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة وأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال ، حمشي على رجليه وجعل يصف أصحابه لقتال كأنما يقوم هم الفدح إن رأى صفواً حارحاً قال له تأخر ، وكان نزوله في جنب الوادي . وجعل يلهو وعسكره إلى أحد وأمر عبدالله بن حبه عن الرماة ، وقال ادعوا عنا بأشبل حتى لا يأتونا من وراءنا ، وقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه : ألبسوا في هذا المقام : فلا عابيوكم ولوكم الأدمار ، فلا تظلموا المذربين ولا تخرجوا من هذا المقام ، ثم إن الرسول عليه الصلاة والسلام لما خالف رأى عبدالله بن أبي شق عليه ذلك ، وقال : اطاع الولد وعصاني ، ثم قال لأصحابه : إن محمداً إنما يظفر بعدوه بكم ، وقد وعد أصحابه أن أعداءهم إذا عابوهم انهمروا ، فإن رأيتم أعداءهم فاهزموا فهاجروكم . فبصر الأمر على خلاف ما قاله سمع عليه السلام ، فلما التقى الفريقان اهزم عبدالله بن النخعي ، وكان حلة عسكر المسلمين ألقاً . فاهزم عبدالله بن أبي مع ثلثائة ، فقبضت سبعمائة ، ثم فواف الله مع ذلك حتى هزموا المشركين ، فلما رأى المؤمنون انه رام القوم ، وكان الله تعالى يشرفهم

بذلك ، طمعوا أن تكون هذه الواقعة كواقعة بدر ، فطلبوا المدبرين ويكفوا ذلك الموضع ، وخالفوا أمر الرسول ﷺ بعد أن أراهم ما يجرون ، فأراد الله تعالى أن يعظمهم من هذا المعنى لئلا يقدموا على مخالفة الرسول عليه السلام ويعلموا أن نصرهم إنما يحصل يوم بدر بركة طاعتهم له ورسوله ، وحتى تركهم الله مع عدوهم لم يفروا منه . فترى الله الرعب من دعوت المشركين ، فكثر عليهم المشركون وتفرقوا بعدكم عن رسول الله ﷺ ، كما قال تعالى (زاد نصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم) وشجع وجه الرسول ﷺ وكسرت رماحيته وشلت يد طفلة تولى ، وأنه يجر معه إلا أبو بكر وعبيد الله وسعد ، ووقعت الصيحة في العسكر أن محمداً قد قتل ، وكان رجل يسمى أبو سبيك من الأنصار ينادي لأخبار وقال : هذا رسول الله ، مرجع إليه المهاجرون والأنصار ، وكان قتل منهم سبعون وكثر فيهم خراج ، فدناهم رحم الله رجلا شيب عن إخوانه ، وسد على المشركين من معه حتى كشفهم عن الفتى وأخرجوه وأعلم .

والمقصود من القصة أن الكفار كانوا ثلاثة آلاف والمسلمون كانوا ألفاً وأقل ، ثم رجع عبد الله بن أبي ثعلبة من أصحابه فمضى الرسول ﷺ مع سبعة . فدعاهم الله حتى هزموا الكفار ، ثم لما خالفوا أمر الرسول واستعصموا بطنهم انقلب الأمر عليهم وهزموا ووقع ما وقع وكل ذلك يؤكد قوة تعالى (وإن نصبر ولا نتفوا لا يصبركم كيدهم ذب) وإن القليل من مداه الله ، وتغير من خضاه الله .

في المسألة الرابعة : يقال : وأنه منزلاً وموات فيه منزلاً أي أنزله فيه ، والماء والماء المنزل وقوله (مقاعد لفتان) أي موضع وموضع ، وقد اتبعوا في استعصام المقعد والمقام بمعنى المكان ، ومنه قوله تعالى (في مقعد صدق) يقال (قل أن تقوم من مقامك) أي من محض وموضع حكمك ، وإلى غير من الأمكنة هي بالمقعد للوجهي (الأول) وهو أنه عليه السلام أمرهم أن يشتروا في مقاعدهم لا يتنقلوا عنها ، والمقاعد في مكان لا يتنقل عنه فمضى تلك الأمكنة بالمقعد ، نسيها عن أنهم مأمورون بأن يشتروا فيها ولا يتنقلوا عنها البتة (والثاني) أن القتاليين قد يقعدون في الأمكنة المنسية إلى أن يلاقيهم العدو فيقوموا عند الحاجة إلى منجزة فسميت تلك الأمكنة بالمقاعد لهذا الوجه .

في المسألة الخامسة : قوله (وإذ دعوت من أهلث سوى المؤمنين مقاعد للقتال) يروي أنه عليه السلام عد من منزله عائشة رضي الله عنها فمضى عن رجليه إلى أحد ، وهذا قول مجاهد والوليد ، فدل هذا النص على أن عائشة رضي الله عنها كانت أهلاً لشيء من ذلك ، فعلى (التطيبت لظبيين والتطيبتون لظبيتين) فدل هذا النص على أنها مطهرة براءة عن كل قبيح ، ولا

فرى أن ولد نوح لـ كان كاهراً قل (إله ليس من أهلك) وكذلك امرأة لوط .

ثم قال تعالى (والله سميع عليم) أي سميع لأقوالكم عليم بضمها المركب ونيقكم ، فانا ذكرنا أنه عليه السلام شاور أصحابه في ذلك الحرب ، فمنهم من قال له : أقم بالمدينة ، ومنهم من قال : أخرج إليهم ، وكان لكل أحد غرض آخر مما يقول ، فمن موافق ، ومن مخالف فقال تعالى : أنا سميع لما يقولون عليهم بما يصرون .

ثم قال تعالى (إذ هممت طائفتان منكم أن تفشلا) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ العامل في قوله (إذ هممت طائفتان منكم) فيه وجوه (الأول) قال الزجاج : العامل فيه النبوة ، والمعنى كانت النبوة في ذلك الوقت (الثاني) العامل فيه قوله (سميع عليم) (الثالث) يجوز أن يكون بدلاً من (إذ غدرت) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الطائفتان حيان من الأنصار : بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس لما انهزم عبد الله بن أبي هبم الطائفتان باتباعه ، فمضاهم الله ، فثبتوا مع الرسول ﷺ ، ومن العلماء من قال : إن الله تعالى أجهم ذكرهما وستر عليهما ، فلا يجوز لنا أن نهتك ذلك السر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الفضل الجين والخور ، فإن قيل : المهم بالشيء هو العزم ، فظاهر الآية يدل على أن الطائفتين عزمنا على الفضل والترك وذلك معصية فكيف بها أن يقال والله وليها ؟ .

(والجواب) المهم قد يراد به العزم ، وقد يراد به الفكر ، وقد يراد به حديث النفس ، وقد يراد به ما يظهر من القول الذاتي على قوة العدو وكثرة عدده وقوة عدده ، لأن أي شيء ظهر من هذا الجنس صح أن يوصف من ظهر ذلك منه بأنه هم بأن يفشل من حيث ظهر منه ما يوجب ضعف القلب ، فكان قوله (إذ هممت طائفتان منكم أن تفشلا) لا يدل على أن معصية وقعت منها ، وأيضاً فيجوز أن يقال : إن ذلك معصية لكنها من باب الصفات لا من باب الكبر ، بدليل قوله تعالى (والله وليها) فإن ذلك المهم لو كان من باب الكبر لما بقيت ولاية الله لها .

ثم قال تعالى (والله وليها) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ عبدالله (والله وليها) كقوله (وإن طائفتان من المؤمنين

اعتصموا) .

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ في المعنى وجوه (الأول) أن المراد منه بيان أن ذلك المم ما أخرجهما عن ولاية الله تعالى (الثاني) كلفه قيل : الله تعالى ناصرهما ومتبرل أمرهما فكيف يليق بها هذا الفضل وترك التوكل على الله تعالى ؟ (الثالث) فيه تنبيه على أن ذلك الفضل إنما لم يدخل في الوجود لأن الله تعالى وليها فأمددها بالتوفيق والعصمة ، والغرض منه بيان أنه لو لا توفيقه سبحانه وتسيده لا تحصل أحد عن ظلمات المعاصي ، ويدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى بعد هذه الآية (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) .

فان قيل : ما معنى ما روي عن بعضهم عند نزول هذه الآية أنه قال : والله ما يسرنا أنا لم نهم بما همت الطائفتان به ، وقد أخبرنا الله تعالى بأنه وليها ؟ .

قلت : معنى ذلك حرط الإستمشار بما حصل لهم من الشرف بثناء الله تعالى ، وإتزانه فيهم آية ناطقة بصحة الولاية ، وأن تلك الهمة ما أخرجهما عن ولاية الله تعالى .

ثم قال (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) توكل : ففعل ، من وكل أمره إلى فلان إن اعتمد فيه كفايته عليه ولم يوثق بنفسه ، وفي الآية إشارة إلى أنه ينبغي أن يدفع الإنسان ما يعرض له من مكروه وأفة بالتوكل على الله وأن يصرف الجزع عن نفسه بذلك التوكل .

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ﴾

في كيفية النظم وجهان (الأول) أنه تعالى لما ذكر قصة أحد أنبأهم بذكر قصة بدر ، وذلك لأن المسلمين يوم بدر كانوا في غاية الفقر والمجزر ، والكفار كانوا في غاية الشدة والقوة ، ثم أنه تعالى سلط المسلمين على المشركين فصار ذلك من أقوى الدلائل على أن التعامل يجب أن لا يتوصل إلى تحقيق غرضه ومطلوبه إلا بالتوكل على الله والاستعانة به ، المقصود من ذكر هذه القصة تأكيد قوله (وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً) وتأكيد قوله (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (الثاني) أنه تعالى حكى عن الطائفتين أنهما همتا بالقتل .

ثم قال (والله وليها) وعلى الله فليتوكل المؤمنون (يعني من كان الله ناصرهما ومعيناً له فكيف يليق به هذا الفضل والجبن والضعف ؟ ثم أكد ذلك بقصة بدر فإن المسلمين كانوا في غاية الضعف ولكن لما كان الله ناصرهم فازوا بمطلوبهم ونهروا خصومهم فكذا همتا ، لهذا تقرير وجه النظم ، وفي الآية مسائل :

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَيْسَ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَ رَبُّكُمْ بَشَنَةً مِنَ السَّمَاءِ

﴿ المسألة الأولى ﴾ في مدد أقوال (الأول) مدد اسم يتر لرحل يقال نه يدر صبيت لشر اسم صاحبها هذا قول الشعبي (الثاني) أنه اسم بشر كما يسمى الأسد باسم من عبه أن يقال إليه اسم صاحبه وهذا قول الوايدي وشيونك ، وأسكر وأقول الشعبي وهو ماء بين مكة والمدينة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (أدلة) جمع دليل قال الواحدي . الأصل في الفعلين إذا كان صفة أن يجمع على فعلا ، كطريف وظرفاء ، وكثير ، وكثير ، وشريك وشركاء ، إلا أن لفظ فعلا ، أجسده في التضمين ، لأنه أوقلوا : قبل وقلا ، وحلب وحلب ، لا جمع حرفان من جنس واحد معدن إلى أفعلة لأن ، من جمع الفعل . الأفعلة ، كحرب وأحربة ، وقفيز وأقزرة فعملوه جمع دليل أدلة ، قال صاحب الكشف : الأدلة جمع أدلة ، وإنما ذكر جمع الأدلة ليدل على أنهم مع دهم كانوا قبلين .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (وأنتم أدلة) في موضع الخفاء ، وإنما كانوا أدلة بوجوه (الأول) أنه معني قال (والله العزة برسوله وللمؤمنين) فلا بد من تفسير هذا اللفظ بمعنى لا ينافي مدلول هذه الآية ، وذلك هو تفسيره بقاء العدد وضعف الحار وقلة السلاح والمال وعدم القوة على مقاومة العدو ومعنى الفل الصعب عن المقاومة وتقصيه العر وهو القوة والغلبة . روي أن المسلمين كانوا اثنتا عشرة وبضعة عشر ، وما كان فيهم إلا فارس واحد ، وأكثرهم كانوا رجالة ، وربما كان الجمع منهم بركب جملا واحدا ، والكفار قريبين من ألف مقاتل ومعهم مائة فارس مع الأسلحة الكثيرة والعدة الكاملة (الثاني) لعل المراد أنهم كانوا أدلة في زعم المشركين واعتقادهم لأجل قلة عددهم وسلاحهم ، وهو مثل ما حكى الله عن الكفار أنهم قالوا : ليخرجن الأذن منها الأذن (الثالث) أن النصيحة قد شاهدوا انكسار في مكة في الفسوة والحرقة وإلى ذلك الوقت ما انقلع لهم استيلاء على أولئك الكفار ، فكانت هيبتهم بافية في قلوبهم واستعظمتهم مفررا في نفوسهم فكانوا هذا السب بهوسهم وخافون منهم .

ثم قال تعالى (فالتقوا الله) أي في الشك مع رسوله (لعلكم تشكرون) يتقواكم ما نسع به عليكم من نصرته أو لعل الله يسع عليكم نعمة أخرى تشكرونها ، هو وضع الشكر موضع الإتيان ، لأنه سب له .

ثم قال تعالى ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَيْسَ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ

مَنْزِلَيْنِ ﴿٢٢٩﴾

منزلين ﴿ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختلف المفسرون في أن هذا الوعد حصل يوم بدر ، أو يوم أحد ويتفرع على هذين القولين بيان العامل في (إِذْ) فإن قلنا هذا الوعد حصل يوم بدر كان العامل في (إِذْ) قوله (نصركم الله) والتقدير : إذ نصركم الله ببدر وأتم أدلة تقول للمؤمنين ، وإن قلنا إنه حصل يوم أحد كان ذلك بدلا ثانيا من قوله (وإذ غدت) .

إذا عرفت هذا فقول :

﴿ القول الأول ﴾ أنه يوم أحد ، وهو مروي عن ابن عباس والكلبي والواحدي ومثاقيل ومحمد بن إسحاق ، واحتجة عليه من وجوه :

﴿ احتجة الأولى ﴾ أن يوم بدر إنما أمد رسول الله ﷺ بألف من الملائكة قال تعالى في سورة الأنفال (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة) فكيف يليق ما ذكر فيه ثلاثة آلاف وخمسة آلاف يوم بدر (الحجة الثانية) أن الكفار كانوا يوم بدر ألفا . . . (الحجة الثانية) أن الكفار كانوا يوم بدر ألفا . . . ألفا وما يقرب منه والمسلمون كانوا على الثلث منهم لأهم كانوا ثلثمائة بضعة عشر ، ونزل الله تعالى يوم بدر أنعام من الملائكة ، فصر عدد الكفار مقابلا بعدد الملائكة مع زيادة عدد المسلمين فلا جرم وقعت الهزيمة على الكفار عند ذلك يوم أحد . كان عدد المسلمين ألفا ، وعدد الكفار ثلاثة آلاف ، فكان عدد المسلمين على الثلث من عدد الكفار في هذا اليوم ، كما في يوم بدر ، فوعدهم الله في هذا اليوم أن ينزل ثلاثة آلاف من الملائكة ليصير عدد الكفار مقابلا بعدد الملائكة مع زيادة عدد المسلمين ، فيصير ذلك دليلا على أن المسلمين هم يومهم في هذا اليوم كما هم يومهم يوم بدر ثم جعل الثلاثة آلاف خمسة آلاف لزيادة قوة قلوب المسلمين في هذا اليوم ويزول الخوف عن قلوبهم ، ومعلوم أن هذا المعنى إذا حصل إذا قلت إن هذا الوعد إنما حصل يوم أحد .

﴿ الحجة الثالثة ﴾ أنه تعالى قال في هذه الآية (ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) والراد ويأتوكم أعداؤكم من فورهم ، ويوم أحد هو اليوم الذي كان يأتوهم الأعداء فأما يوم بدر فالأعداء ما أتوهم ، بل هم ذهبوا إلى الأعداء .

قال قتيب : لو جرى قوله تعالى (أليس يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة) في يوم أحد ، ثم إنه ما حصل هذا الإمداد لم الكذب

(والحوار عنه من وجهين) (الأول) أن إزالة حسنة آلاف من الملائكة كان مشروطاً بشرط أن يصبروا ويتقوا في المعاصم ثم أنهم لم يصبروا ولم يتقوا في المعاصم بل خالفوا أمر الرسول ﷺ ، فلما فات الشرط لا حرم فات المشروط وأما إيراد ثلاثة آلاف من الملائكة فائتماً وعد الرسول بذلك للمؤمنين الذين موأهم مقامه للقتال وأمرهم بالسكون والثبات في تلك المقاعد ، فهذا يدل على أنه ﷺ إنما وعدهم هذا الوعد بشرط أن يثبتوا في تلك المقاعد ، فلما أهملوا هذا الشرط لا حرم لم يحصل المشروط .

﴿ الوجه الثاني ﴾ في الجواب : لا سلم أن الملائكة ما نزلت ، روى التوفيق عن مجاهد أنه قال : حضرت الملائكة يوم أحد وليكنهم لم يقاتل ، وروى أن الرسول الله ﷺ أعصى أنواء مصعب بن عمير فقتل مصعب ، فأحده ملك في صورة مصعب ، فقال رسول الله ﷺ : قد تقدم يا مصعب فقال الملك لست بمصعب ، فعرّف الرسول ﷺ أنه ملك أمه . وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال : كنت أرمي السهم يومئذ فبرده على رجل أحصى حسن الوجه وما كنت أعرفه ، فظننت أنه ملك ، فهذا ما نقوله في تقرير هذا الوجه .

إذا عرفت هذا فنقول : نعم الآية على هذا التأويل أنه تعالى ذكر قصة أحد ، ثم قال (وعلى الله فليؤكل المؤمنون) أي يجب أن يكون تركهم على الله لا على كثرة عددهم وعندهم فقد نصرهم الله بيدر وأنته فكذلك هو فادر على كل هذه النصرة في سائر الفواضع ، ثم بعد هذا أعاد الكلام في قصة أحد فقال (إذ يقول للمؤمنين أَلَيْسَ بِكُمْ عَمَلٌ يذكركم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة) .

﴿ القول الثاني ﴾ أن هذا الوعد كان يوم بدر ، وهو قول أكثر المفسرين ، واحتجوا على صحته بوجوده .

﴿ المحجة الأولى ﴾ أن الله تعالى قال (ولقد نصركم الله بدر وأنته أهلة) ، إذ يقول للمؤمنين أَلَيْسَ بِكُمْ عَمَلٌ ، فكذا وكذا ، فظاهر هذا الكلام يقتضي أن الله تعالى نصرهم بيدر حينئذ قال الرسول للمؤمنين هذا الكلام ، وهذا يقتضي أنه عليه الصلاة والسلام قال هذا الكلام يوم بدر .

﴿ الحجّة الثانية ﴾ أي فلة العدد وانعد كانت يوم بدر "كثرت" وكان الاحتياج إلى تقوية الغلب ذلك أيوم أكثر ، فكان صرف هذا الكلام إلى ذلك اليوم أول .

﴿ الحجّة الثالثة ﴾ أن الوعد ماتزال ثلاثة آلاف من الملائكة كان مطلقا غير مشروط بشرط ، فوجب أن يحصل ، وهو إنما حصل يوم بدر لا يوم "حد" ، وليس لأحد أن يقول إنهم نزلوا لكنهم ماقاتلوا لأن الوعد كان بأعداد ثلاثة آلاف من الملائكة ، وبمجرد الإزمان لا يحصل الإعداد بل لا بد من الإعانة ، والإعانة حصلت يوم بدر ولم تحصل يوم "حد" ، ثم انقائلون بهذا القول "جلبوا" عن دلائل الأولين فقالوا .

﴿ أما الحجّة الأولى ﴾ وهي قولكم : الرسول ﷺ إنما أمد يوم بدر بألف من الملائكة .

(فاجواب عنها) من وجهين (الأول) أنه تعالى أمد أصحاب الرسول ﷺ بألف ثم زاد فيهم "ألفين" فصاروا ثلاثة آلاف ، ثم زاد ألفين آخرين فصاروا خمسة آلاف ، فكانت عليه الصلاة والسلام قال لهم : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بألف من الملائكة فقالوا بل ، ثم قال : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف فقالوا بل ، ثم قال لهم : إن تصروا وتفتوا بمددكم ربكم بخمسة آلاف ، وهو كمن روي أنه ﷺ قال لأصحابه : أيسركم أن تكونوا ربيع أهل الجنة قالوا نعم قال "يسركم أن تكونوا ثلث أهل الجنة قالوا نعم قال فاني أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة" .

﴿ الوجه الثاني في الجواب ﴾ أن أهل بدر إنما أمدوا بألف على ما هو مذكور في سورة الأنفال ، ثم بلغهم أن بعض المشركين يريد إمداد قريش بعدد كثير فخلقوا وشق عليهم ذلك فقلة عندهم ، فوعدهم الله بأن الكفار إن جاءهم مدد فإن أمدكم بخمسة آلاف من الملائكة ، ثم إنه لم يأت قريش ذلك العدد ، بل انصرفوا حين بلغهم هزيمة قريش ، فاستغنى عن إمداد المسلمين بالزيادة على الألف .

﴿ وأما الحجّة الثانية ﴾ وهي قولكم : إن الكفار كانوا يوم بدر ألفا فانزل الله ألفا من الملائكة ويوم أحد ثلاثة آلاف فانزل الله ثلاثة آلاف .

(فاجواب) إنه قريب حسن ، ولكنه لا يوجب أن لا يكون الأمر كذلك ، بل الله تعالى قد يزيد وقد ينقص في العدد بحسب ما يريد .

﴿ وأما الحجّة الثالثة ﴾ وهي التمسك بقوله (وبأتوكم من فورهم) .

(فاجواب عنه) أن المشركين لما سمعوا أن الرسول ﷺ وأصحابه قد تعرضوا للعبث تار

الغضب في قلوبهم وأجمعوا وفسدوا النبي ﷺ ، ثم إن الصحابة لما سمعوا ذلك خافوا فأنبرهم الله تعالى : أنهم إذ يأتونكم من فورهم يمددكم ويحكم بخمسة آلاف من الملائكة فهذا حاصل ما قيل في تقرير هذين القولين . والله أعلم بمراوده .

في المسألة الثانية في اختلافوا في عدد الملائكة ، وضبط الأقوال فيها أن من الناس من صم العدد الناقص إلى العدد الرائد ، فقالوا : لأن الوعد بامداد الثلاثة لا شهده ، والوعد بامداد الخمسة مشروط بالتصير والتفوي وبجيء الكفار من فورهم ، فلا بد من التباين وهو ضعيف ، لأنه لا يلزم من كون الخمسة مشروطة بشرط أن تكون الثلاثة التي جزؤها مشروطة بذلك الشرط وسببهم من أدخل العدد ناقص في العدد الرائد ، أما على تقدير الأول : فإن حاشا الآية على قصة بدر كان عدد الملائكة تسعة آلاف لأنه تعالى ذكر الألف ، وذكر ثلاثة آلاف ، وذكر خمسة آلاف ، والمجموع تسعة آلاف ، وإن حملناها على قصة : أحد فليس فيها ذكر الألف ، بل فيها ذكر ثلاثة آلاف ، وخمسة آلاف ، والمجموع : ثمانية آلاف ، وأما على التقدير الثاني وهو إدخال الناقص في الرائد فقالوا : عدد الملائكة خمسة آلاف ، ثم ضم إليها الثمان أفران ، فلا حرم وعدوا بالألف ثم ضم إليه ألفا فلا جرم وعدوا بثلاثة آلاف ، ثم ضم إليها ألفان أفران فلا حرم وعدوا بخمسة آلاف ، وقد حكينا عن بعضهم أنه قال أمد أهل بدر بألف قتيل : إن كثر من جبر المحاربي يريد أن يمد المشركين فتمس ذلك على المسلمين ، فقال النبي ﷺ هم : ألي تكفيكم يعني بتقدير أن يمد المشركين مدد فأنه تعالى يمدكم أيضاً بثلاثة آلاف وخمسة آلاف ، ثم إن المشركين ما جاءهم بمدد ، فكذا هنا الرائد على الألف من جاء المسلمين فهذه وسوء كلها محتملة والله أعلم بمراوده .

في المسألة الثالثة في أجمع أهل التفسير والتأويل أن الله تعالى أنزل للملائكة يوم بدر وأنهم قاتلوا الكفار ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : لم قتال الملائكة سوى يوم بدر وبها سواء كانوا عدداً ومعدداً لا يفتلون ولا يضربون ، وهذا قول الأكثرين . وأما أبو بكر الأصم ، فإنه أنكر ذلك الشك الإنكار ، واحتج عليه بوجوه .

في حجة الأولى في أن الملك الواحد يكفي في إهلاك الأرض ، ومن المشهور أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت الشدائد الأربع لقرع لوط وبيع جناحه إلى أرض السامه ، ثم رفعها إلى السماء فصب عليها سقلا ، فإذا حضر هو يوم بدر ، فأي حاجة إلى مقاتلة الناس مع الكفار ؟ ثم بتقدير حضوره ، فأي فائدة في إرسال الملائكة ؟ .

في حجة الثانية في أن أكبر الكفار كانوا مشهورين وكل واحد منهم مقابله من الصحابة معلوم

وإذا كان كذلك امتنع إسناد قصته إلى الملائكة .

﴿ الحجة الثالثة ﴾ الملائكة لو قاتلوا نكثوا إما أن يصيروا بحيث يراهم الناس أو لا يراهم الناس فإن رآهم الناس فلما أن يقال أنهم رأوهم في صورة الناس أو في غير صورة الناس ، فإن كان الأول فعلى هذا التقدير صار المشاهد من عسكر الرسول ثلاث آلاف ، أو أكثر ، ولم يقل أحد بذلك ، ولأن هذا على خلاف قوله تعالى (ويقتلكم في أعينهم) وبما شاهدوهم في صورة غير صورة الناس لزم وقوع الرعب الشديد في قلوب الخلق فإن من شاهد الجن لا شك أنه يشند فزعهم ولم يقل ذلك أحد .

﴿ وأما القسم الثاني ﴾ وهو أن الناس ما رأوا الملائكة فعلى هذا التقدير : إذا حاربوا وحزوا الرزاس ، ومزقوا البطون واستقطوا الكفار عن الإغراس ، فحينئذ الناس كانوا يشاهدون حصول هذه الأفعال مع أنهم ما كانوا يمدوا أحدا من المقاتلين ، ومثل هذا يكون من أعظم المعجزات ، وحينئذ يجب أن يصير الجاحد مثل هذه الحالة كاهرا متمردا ، ولما لم يوجد شيء من ذلك عرف صمد هذا القسم أيضا .

﴿ الحجة الرابعة ﴾ أن هؤلاء الملائكة الذين نزلوا ، إما أن يقال : لهم كونا أجساما كثيفة أو لطيفة ، فإن كان الأول يجب أن يراهم لكن وأن تكون رؤيتهم كروية غيرهم ، ومعناه أن الأمر ساكن كذلك ، وإل كانوا أجساما ناعمة دقيقة مثل الهواء لم يكن فيهم صلابة وقوة ، ويمتنع كونهم راكبين على الخيول وكل ذلك مما تروونه .

وأعلم أن هذه الشبهة إنما سبق بمن ينكر القرآن والسورة ، فلما من بغير هذا ولا يلحق به شيء من هذه الكلمات ، فلما كان يلحق بأبي بكر لأحده إنكار هذه الأشياء مع أن نص القرآن ناض بها ووردها في الأخبار قريب من التواتر ، روي عبد الله بن عمر قال لما رجعت فرقة من أحد جمعوا يتحلفون في أنهم يسمعون ما تخفرون ، ويقولون : لم نر الخيل أبلى ولا الرجال البيض الذين كنا نراهم يوم بدر والشبهة المذكورة إذا قبلناها بكمال قدرة الله تعالى ، ليست وطاحت فإنه تعالى يفعل ما يشاء لكونه قادرا على جميع الممكنات وبحكمه ما يريد لكونه متزهيا عن الحاجات .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اختلفوا في كيفية نصره الملائكة قال بعضهم : بالقتال مع المؤمنين ، وقال بعضهم : بل بقوة نفوسهم وإشعارهم بأن النصرة لهم وبإلقاء الرعب في قلوب الكفار ، والظاهر في المذهب أنهم يشركون الجيش في القتال إن وقعت الحاجة إليهم ، ويجوز أن لا تقع الحاجة إليهم في نفس القتال وأن يكون مجرد حضورهم كافيا في تعوية القلب ، وزعم كثير من

بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَاتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فُورِهِمْ هَلَّا تَزِيدُ كُرْهًا تَكْرِمًا عَمَّسَةَ النَّفِ
مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢١﴾

المضمرين أنهم قاتلوا يوم بدر ولم يغفلوا في سائر الأيام .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله تعالى (ألي يكفكم) معنى الكفاية هو سد الخلة والقيام بالأمر ، يقال كفاه أمر كذا إذا سد خلته ، ومعنى الإمداد إعطاء الشيء حالا بعد حال قال المفضل : ما كان على جهة القوة والإعانة قيل فيه أمدده يده ، وما كان على جهة الزيادة قيل فيه مده يده ومنه قوله (والبحر يمد) .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قرأ ابن خنجر (منزلي) مشدد الرأي مفتوحة على الكثير ، واليقلون يفتح الرأي محققة وهما نعتان .

﴿ المسألة السابعة ﴾ قال صاحب الكشف : (إنما قدم هم الوعد بنزول الملائكة لتقوي قلوبهم ويحرموا على الثبات ويشعروا نصر الله ومعنى (ألي يكفكم) إنكار أن لا يكفكم الإمداد ثلاثة آلاف من الملائكة وإي جيء بلى التي هي لتأكيد المعنى بلا شعاع بأنهم كانوا لقلتهم وضعفهم وكثرة عددهم كالأيسين من النصر .

ثم قال تعالى ﴿ بلى إن تصبروا وتنفروا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾ وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ بلى : إيجاب لما بعد (لن) يعني بل يكفكم الإمداد فأوجب الكفاية ، ثم قال (بلى تصبروا وتنفروا ويأتوكم من فورهم هذا) يعني والمشتكون يأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بأكثر من ذلك لعدده وهو خمسة آلاف ، فجعل عي حصة آلاف من الملائكة مشروطة بثلاثة أشياء ، التصبر والتقوى ومحبة الكفار على الفور ، فلما لم توجد هذه الشرائط لا جرم لم يوجد الشرط .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الفور مصدر من : فارث القدر إذا غلب ، قال تعالى (حتى إذا جاء أمرنا وفار الثور) قيل إنه أول ارتفاع الماء ثم جعلوا هذه اللفظة استعارة في السرعة ، يقال جاء فلان ورجع من فوره ، ومنه قول الأصوليين الأمر للفور أو التفراحي ، والمعنى حدة محي ، العدو وحراوته وسرعته .

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَضْمِنَ قُلُوبُكُمْ بِهِ ، وَمَا الْغُرُوبُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٣١﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿٣٢﴾

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم (مسومين) بكسر الهمزة و أي معصومين . علموا أنفسهم بعلامات مخصوصة ، وأكثر الأخبار أنهم سوموا خوفاً من علامات جعلها عليهم ، والباقر بن فتح الوائلي ، أي سومهم الله أو بمعنى أنهم سرحو أنفسهم ، فكان في المراد من التسمية في قوله (مسومين) قولان (الأول) التسمية بالعلامة التي يعرف بها النبي ، من غيره ، ومضى شرح ذلك في قوله (وأخبر الله عنهم) وهذه العلامة يعلمها المارس يوم اللقاء ، ليعرف بها ، وفي الخبر أن النبي ﷺ قال يوم بدر سوموا فإن الملائكة قد سومت ، قال ليس عيسى : كلفت الملائكة قد سوموا أنفسهم بالعلامات المعصومين ، وجوههم وكانوا على حيل تلقى ، بأن خلفوا الصوف الأبيض في نواصبها وأذنانها ، وروى أن حنظلة بن عبد المطلب كان يعلم بريشة نعمة ، وإن عيباً كان يعلم بصوفة بيضاء وأن الربيع كان يعصب بعصابة صفراء وأن أبا دجانة كان يعلم بعصابة حمراء .

﴿ بقول الثاني ﴾ في تفسير المسومين إنه بمعنى المرسلين مأخوذاً من الهمزة الساتمة المرسل في الرعي ، فتبين أسعد الأيل إذا أرسلته ، ويقال في التنكير سومت كقوله أكرمته وكرمت ، فمن قرأ (مسومين) بكسر الهمزة فالقصد أن الملائكة أرسلت جبهتها على الكفار لقتلهم وأسرع ، ومن قرأ بفتح الهمزة فالقصد أن الله تعالى أرسلهم على لشركهم ليهلكهم كقوله تهللك الملائكة النيات والخشيش .

قوله تعالى : وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتضمنن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ، لينقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ﴿ ٣١ ﴾ .

الكتابة في قوله (وما جعله الله) عائدة على المصدر ، كأنه قال : وما جعل الله المدد والأيادي (إلا بشرى لكم) بأنكم تصبرون فلذلك (يمددكم) على الأمداء فكفى عنه ، كقوله قال (ولا تأكلوا أموالهم يذكركم الله عليه وإنه لفسق) معناه : وإن أكله لفسق فلذلك (تأكلوا) على الأكل فكفى عنه وقال الزجاج (وما جعله الله) أي ذكر المدد (إلا بشرى) والبشرى اسم من الإخبار ومضى الكلام في معنى التبشير في سورة البقرة في قوله (ومشر الذين آمنوا)

ثم قال (ولتطمئن قلوبكم به) وفيه سؤال :

وهو أن قوله (ولتطمئن) فعل وقوله (إلا بشرى) اسم وعطف الفعل على الاسم مستكثر ، فكان الواجب أن يقال إلا بشرى لكم وطمئنتنا ، أو يقال إلا لبشركم ولتطمئن قلوبكم به فلم ترك ذلك وعدل عنه إلى عطف الفعل على الاسم

(والجواب عنه من وجهين) (الأول) في ذكر الإمداد المطلوبان ، واحدهما أقوى في المطلوبة من الآخر ، فأحدهما إدخال السرور في قلوبهم ، وهو المراد بقوله (إلا بشرى) (الثاني) حصول الطمأنينة على أن إعانة الله ونصرته معهم فلا يجتنبوا عن المحاربة ، وهذا هو المقصود الأصلي ففرق بين هاتين العبارتين تنبيها على حصول التفاوت بين هذين الأمرين في المطلوبة فكونه بشرى مطلوب ولكن المطلوب الأقوى حصول الطمأنينة ، فلهذا أدخل حرف التعليل على فعل الطمأنينة ، فقال (ولتطمئن) ونظيره قوله (والحبل واليصال والحمبر لتركيوها وزيته) ولما كان المقصود الأصلي هو الركوب أدخل حرف التعليل عليها ، فكذا ههنا (الثاني) قال بعضهم في الجواب : السوا زائدة والتقدير وما جعله الله إلا بشرى لكم لتطمئن به قلوبكم .

ثم قال (وما النصر إلا من عند الله) والغرض منه أن يكون تركلهم على الله لا على الملائكة وهذا تنبيه على أن إيمان العبد لا يكمل إلا عند الإعراض عن الأسباب والإقبال بالكلية على مسبب الأسباب ، وقوله (التعزيز الحكيم) فالتعزير إشارة إلى كمال قدرته ، والحكيم إشارة إلى كمال علمه ، فلا يخفى عليه حاجات العباد ولا يعجز عن إجابة الدعوات ، وكل من كان كذلك لم يتوقع النصر إلا من رحمته ولا الإعانة إلا من فضله وكرمه .

ثم قال (ليقطع طرفاً من الذين كفروا) واللام في (ليقطع طرفاً) متعلز بقوله (وما النصر إلا من عند الله التعزيز الحكيم) والمعنى أن المقصود من نصركم بواسطة إمداد الملائكة هو أن يقطعوا طرفاً من الذين كفروا أي يهلكوا طائفة منهم ويقتلوا قطعة منهم ، قيل : إنه راجع إلى قوله (ولتطمئن قلوبكم به ، ليقطع طرفاً) ولكت ذكر بغير حرف العطف لأنه إذا كان البعض قريباً من البعض جاز حذف العاطف ، وهو كما يقول السيد لعبد : أكرمك لتخدمني لتستسي لتقوم بخدمتي حذف العاطف ، لأن البعض يقرب من البعض ، فكذا ههنا ، وقوله (طرفاً) أي طائفة وقطعة وإفا حسن في هذا الموضع ذكر الطرف ولم يحسن ذكر الوسط لأنه لا وصول إلى الوسط إلا بعد الأخذ من الطرف ، وهذا يوافق قوله تعالى (فقاتلوا الذين يلونكم) وقوله (أو لم يروا أنا أنزنا الأرض نقصها من أطرافها) .

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ۚ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٦﴾

ثم قال (أو يكفبهم) انكبت في اللغة صرع الشيء على وجهه ، يقال : كبته فانكبت هذا تفسيره ، ثم قد يذكر والمردية الآخر ، والإهلاك والمعن والمزينة والغيظ والإدلال ، فكأن ذلك ذكره المفسرون في تفسير الكبت ، وقوله (خاتمين) الخيبة هي الحرمان والفرق بين الخيبة وبين اليأس أن الخيبة لا تكون إلا بعد التوقع ، وأما اليأس فانه قد يكون بعد التوقع وقبله ، فنقيض اليأس الرجاء ، ونقيض الخيبة الظن ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ۚ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ .

في الآية مسائل :

في المسألة الأولى ﴿ في سبب نزول هذه الآية قولان (الأول) وهو المشهور : أنها نزلت في قصة أحد ، ثم الغائلون بهذا القول اختلفوا على ثلاثة أوجه (أحدها) أنه أراد أن يدعو على الكفار فنزلت هذه الآية والغائلون بهذا ذكروا احتمالات (أحدها) روى أن عتبة بن أبي وقاص شجبه وكسر ربايعته فجعل يمسح الدم عن وجهه ويسالم مولى أبي حذيفة يغسل عن وجهه الدم وهو يقول « كيف يغسل قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوه إلى رسمهم » ثم أراد أن يدعو عليهم فنزلت هذه الآية (وثانيها) ما روى سالم بن عبد الله عن أبيه عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ لعن أقواما فقال « اللهم العن أبا سفيان ، اللهم العن الحرث بن هشام ، اللهم لعن صفوان بن أمية » فنزلت هذه الآية (أو يتوب عليهم) فسأب الله على هؤلاء وحسن إسلامهم (وثالثها) أنها نزلت في حمة ابن عبد المطلب وذلك لأنه ﷺ لما رآه ورأى ما فعلوا به من القتل قال « لأمتين منهم بثلاثين » ، فنزلت هذه الآية ، قال القفال رحمه الله ، وكل هذه الأنبياء حصلت يوم أحد ، فنزلت هذه الآية عند الكل فلا يتبع حملها على كل الاحتمالات (الثاني) في سبب نزول هذه الآية أنها نزلت بسبب أنه ﷺ أراد أن يعلن المسلمين الذين خلفوا أمره والذين انهزموا فصنعه الله من ذلك وهذا القول مروى عن ابن عباس رضي الله عنهما .

﴿ الترجمة انشأت ﴾ أنه ﷺ أراد أن يستغفر للمسلمين الذين انهزموا وخلفوا أمره ويدعو عليهم فنزلت الآية ، بهذه الاحتمالات والوجوه كلها مفرعة على قولنا إن هذه الآية نزلت في

قصة أحد .

﴿ القول الثاني ﴾ أنها نزلت في واقعة أخرى وهي أن النبي ﷺ بعث جمعاً من خيار أصحابه إلى أهل بئر معونة ليعلموهن لقرآن فذهب إليهم عنصر بن الشقيط مع صسكره واخذهم وقتلهم فجزع من ذلك الرسول ﷺ فرعاً شديداً ودعا على الكفار أربعين يوماً ، فنزلت هذه الآية . هذا قول مقاتل وهو بعيد لأن أكثر العلماء اتفقوا على أن هذه الآية في قصة أحد ، وسباق الكلام يدل عليه وإلقاء قصة أخيه عن أول الكلام وآخره غير لائق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ظاهر هذه الآية يدل على أنها وردت في أمر كان النبي ﷺ يفعل فيه فعلاً ، وكذلك هذه الآية كائن منة ، وعند هذا يتوجه الإشكال ، وهو أن ذلك الفعل إن كان بأمر الله تعالى ، فكيف منته الله من ؟ وإن قلنا إنه ما كان بأمر الله تعالى وبإذنه ، فكيف يصح هذا مع قوله (وما ينطق عن الهوى) وأيضاً دلت الآية على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإلزام المتنوع عنه في هذه الآية إن كان حسناً فمن منته الله ؟ وإن كان قبيحاً ، فكيف يكون فاعله محصوماً ؟ .

(والجواب من وجوه) (الأول) أن المنع من الفعل لا يدل على أن المتنوع منته كان مشغولاً به فإنه تعالى قال للنبي ﷺ (لئن أشركت ليحبطن عملك) وأنه عليه الصلاة والسلام ما أشرك قط وقال (يا أيها النبي اتق الله) فهذا لا يدل على أنه ما كان يتقي الله ، ثم قال (ولا تطع الكافرين) وهذا لا يدل على أنه أماعهم ، والفائدة في هذا السمع أنه لما حصل ما يوجب الغم الشديد ، والغضب العظيم ، وهو مثله عمه حمزة ، وقتل المسلمين ، والظاهر أن الغضب يحل للإنسان على ما لا ينبغي من القول والفعل ، فلاجل أن لا تؤدي مشاهدة تلك المكاره إلى ما لا يليق من القور والفعل نص الله تعالى على المنع تقوية لعصمته وتأكيداً لطهارته (والثاني) تعلقه عليه الصلاة والسلام إن فعل لكنه كان ذلك من باب ترك الأفضل والأولى . فلا جرم أرشده الله إلى اختيار الأفضل والأولى ، وتظيره بقوله تعالى (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولنن صبرتم لحو حير للصابرين واصبر وما صبرك إلا الله) كأنه تعالى حال : إن كنت تعلم ذلك الظالم فاكثف بالمثل ، ثم قال ثانياً : وإن تركته كان ذلك أولى ، ثم أمره مرةً أخرى بما يتركه ، فقال (واصبر وما صبرك إلا بالله) .

﴿ الوجه الثالث ﴾ في الجواب : لعله ﷺ لما مال عليه إلى الغص عليه استأذن ربه فيه ، فنص الله تعالى على المنع منة ، وعلى هذا التقدير لا يدل هذا الهي على القدر في العصمة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (ليس لك من الأمر شيء) فيه قولان (الأول) أن معناه ليس

لك من قصة هذه الواقعة ومن شأن هذه الحادثة شيء وعسى هذا فنقل عن مفسرين عبارات (أحدهما) ليس لك من مصالح عبادي شيء ، إلا ما أوحى إليك (وثانيها) ليس لك من مسألة إهلاكهم شيء ، لأنه تعالى أعلم بالمصالح مربحاً نافع عليهم (وثالثها) ليس لك في أن يتوب الله عليهم ، ولا في أن يعذبهم شيء .

﴿ والقول الثاني ﴾ أن المراد هو الأمر الذي يقضاه الله ، والمعنى : ليس لك من أمر خلفي شيء إلا إذا كان على وفق أمري . وهو كفركم (إلا له الخكم) وقوله (الله الأمر من قبل ومن بعد) وعلى القولين فالقصد من الآية منعه ﷻ من كل فعل وقول إلا ما كان بأذنه وأمره وهذا هو الإرشاد إلى اكمل درجات العبودية ، ثم اختلفوا في أن المنع من اللعن لأي معنى كان ؟ منهم من قال الحكمة فيه أنه تعالى رجا علم من حال بعض الكفار أنه يتوب ، أو أن لم يبق لكنه علم أنه سيولد منه ولد يكون مسلماً برأ تقياً ، وكل من كان كذلك ، فإن اللاتق برحة الله تعالى أن يجهل في الدنيا وإن يصرف عنه الآفات إلى أن يتوب أو إلى أن يحصل ذلك الولد فإذا حصل دعاه المرسوق عليهم بالإهلاك ، فإن قبلت دعوته فأت هذا القصد ، وإن لم تقبل دعوته كان ذلك كالإستخفاف بالمرسول ﷺ ، فلأجل هذا المسمى منعه الله تعالى من اللعن وأمره بأن يفوض الكل إلى علم الله تعالى ، ومنهم من قال : القصد منه إظهار عجز العبودية وأن لا يخوض العبد في أسرار الله تعالى في ملكه وملكوته ، هذا هو الأحسن عندي والأوفق لمعرفة الأصول الدالة على حقيقة الربوبية والعبودية .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ذكر الفراء والزجاج وغيرهما في هذه الآية قولين (أحدهما) أن قوله (أو يتوب عليهم) عطف على ما قبله ، والتقدير : ليقطع طرفاً من الذين كفروا ، أو يكبتهم ، أو يتوب عليهم ، أو يعذبهم ، ويكون قوله (ليس لك من الأمر شيء) كان كلام الأجنبي الواقع بين المعطوف والمعطوف عليه ، كما تقول : ضربت زيداً ، فاعلم ذلك عمراً ، فعل هذا القول هذه الآية متصلة بما قبلها .

﴿ والقول الثاني ﴾ أن معنى (أو) ههنا معنى حتى ، أو إلا أن كفركم : لألزمك أو تعطيتي حتى والمعنى : إلا أن تعطيتي أو حتى تعطيتي ، ومعنى الآية ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم تنحرج بحالهم ، أو يعذبهم فتشقى منهم .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله تعالى (أو يتوب عليهم) مفسر عند أصحابنا بخلق التوبة فيهم وذلك عبارة عن خلق الندم فيهم على ما مضى ، وخلق العزم فيهم على أن لا يفعلوا مثل ذلك في المستقبل فإل أصحابنا : وهذا المعنى متأكد ببرهان العقل وذلك لأن الندم عبارة عن حصول إرادة في انقضي متعلقة بتبرك فعل من الأفعال في المستقبل ، وحصول الإرادات

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٥﴾

والكرامات في القلب لا يكون بفعل العبد ، لأن فعل العبد مسوق بالارادة ، فلو كانت الارادات صلا لتعبد لا تفسر العبد في فعل تلك الارادة إلى ارادة أخرى ويلزم النسل وهو محال ، فعلمنا أن حصول الآداة والكرامات في القلب ليس إلا سخلين الله تعالى وتكويه يتفاء ، وما كانت انوية عبارة عن القدم والعمز ، وكل ذلك من حصر الارادات والكرامات ، علمنا أن التوبة لا تحصل للعبد إلا بخمن الله تعالى ، فصار هذا البرهان مطالباً ما دل عليه ظاهر القرآن ، وهو قوله (أو يتوب عليهم) وأما المعزلة فانهم صروا قوله (أو يتوب عليهم) إما بفعل اللطاف ، أو ببول التوبة .

فما قوله تعالى (فانهم ظالمون) ففيه مسئلة

❖ المسألة الأولى ❖ إن كان تغرض من الآية معناه من لدعاء عن الكفر صح الكلام وهو أنه تعالى مبراهم ظالمين ، لأن الشرك ظلم قال تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) وإن كان لغرض منها منعه من الدعاء على المسلمين الذين حالقوا أمره صح الكلام أيضاً ، لأن من عصى الله فقد ظلم نفسه

❖ المسألة الثانية ❖ يحصل أن يكون المراد من العذاب المذكور في هذه الآية عذاب الدنيا ، وهو الفصل والاسم وأن يكون عذاب الآخرة ، وعلى التقديرين فعلم ذلك موقوف إلى الله .

❖ المسألة الثالثة ❖ قوله تعالى (فانهم ظالمون) جملة مستقلة ، إلا أن المقصود من ذكرها لتعليل حسن التعذيب ، والمعنى : أو يعذبهم فإنه إن عذبهم إنما يعذبهم لأنهم ظالمون .

قوله تعالى ❖ وَفِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ مَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ❖ فيه مسالتان :

❖ المسألة الأولى ❖ إن المقصود من هذا تأكيد ما ذكره أملاً من قوله (ليس لك في الأمر شيء) ، والمعنى أن الأمر إنما يكون لمن له الملك ، وملاك السموات والأرض ليس إلا الله تعالى فالأمر في السموات والأرض ليس إلا لله ، وهذا برهان قاطع .

في المسألة الثانية ﴿ إنما قل ﴾ ما في لسموات وما في الأرض ﴿ ونم يقل ﴾ عز ﴿ لأن المراد الإشارة إلى الخلق والمجاهدين ، فدخل فيه الكل .

أما قوله ﴿ يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ فأعلم أن أصحابنا يحتجون بهذه الآية على أن سبحانه له أن يدخل الجنة يحكم أهبة جميع الكفار والمردة . وله أن يدخل النار يحكم أهبة جميع الفريقين والمصدقين وأنه لا اعتراض عليه في فعل هذه الأشياء ، ودلالة الآية على هذا المعنى ظاهرة والبرهان العقلي يؤكد ذلك أيضاً ، وذلك أن فعل العبد يتوقف على الإرادة وتلك الإرادة مخلوقة لله تعالى ، فإذا خلق الله تلك الإرادة أصاح ، وإذا خلق النوع الآخر من الإرادة عصي ، فطاعة العبد من الله ومعصيته أيضاً ، من الله ، وفعل الله لا يوجب على الله شيئاً البتة ، فلا الطاعة توجب الثواب ، ولا المعصية توجب العقاب ، بل الكل من الله يحكم أهبة وقهره وقدرته ، فصيح ما ادعينا أنه لو شاء يعذب جميع الفريقين حسن منه ، ولو شاء يرحم جميع الفريقين حسن منه ذلك ، وهذا البرهان هو الذي دل عليه ظاهر قوله تعالى ﴿ يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾

فإن قيل - اليس أنه ثبت أنه لا يعز للمكفر ولا يعذب للملائكة والأنبياء .

قلنا : مدلول الآية أنه لو أراد لعمل ولا اعتراض عليه ، وهذا الغير لا يقتضي أنه يفعل أو لا يفعل ، وهذا الكلام في غاية الظهور .

ثم ختم الكلام بقوله ﴿ والله غفور رحيم ﴾ والمقصود بيان أنه وإن حسن كل ذلك منه إلا أن جود الرحمة والمغفرة غلب لا على سبيل الرجوع بل على سبيل الفصل والإحسان .

ثم الجزء الثامن ، ويليه إن شاء الله تعالى الجزء التاسع ، وأوله قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا ﴾ أعان الله تعالى على إكماله

فهرست

الجزء الثامن من التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي

صفحة	صفحة
قوله تعالى : فتاده الملائكة وهو قائم	٢٧
قوله تعالى : ان الله يشرك بهي	٢٨
قوله تعالى : قال رب انى يكون لى علام	١١
قوله تعالى : قال رب اجعل لى آية	١٢
قوله تعالى : واذكر ربك كثيراً ووسع للعالمين	١٥
والأشكال	
قوله تعالى : وإذا قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك	١٦
قوله تعالى : يا مريم انسى لربك	٢٨
قوله تعالى : ذلك من آياتنا عجب نوحه	١٩
قوله تعالى : إذا قالت الملائكة يا مريم إن الله يشرك بكلمة منه	٥١
قوله تعالى : اسمه المسيح عيسى بن مريم	٥١
قوله تعالى : وجيها فى الدنيا والآخرة	٥٥
قوله تعالى : وبكلمة الناس فى الهدى والهلكة	٥٦
قوله تعالى : قالت رب انى يكون لى ولد	٥٨
قوله تعالى : وورسل إلى بني إسرائيل أنى	٥٩
أخلق لكم من العطين كيمة الطير	
قوله تعالى : وأمرىء المأكمة والأمراض	٦٢
قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم	
بى بيوتكم	
قوله تعالى : ومصدقاً لما بين يدي من التوراة	٦٤
قوله تعالى : فيها أحسن عيسى منهم الكفر	٦٦
قوله تعالى : قل اللهم مالك الملك	١
قوله تعالى : وتتر من تشاء وتدبر من تشاء	٧
قوله تعالى : بيدك الخير إنك على كل شيء	٩
قادر	
قوله تعالى : ونخرج المحي من الميت ونخرج	١٠
الميت من الحي	
قوله تعالى : لا يشعذ المؤمنون الكافرين	١٦
قوله تعالى : إلا أن تنفوا منهم قتلة	١٧
قوله تعالى : ويحدركم الله بعينه	
قوله تعالى : قل إن تحقوا ما فى صدوركم	١٨
قوله تعالى : يوم تحد كل نفس ما عملت	١٩
قوله تعالى : قل إن كنتم تحبون الله	٢٠
قوله تعالى : قل أطيعوا الله وأطيعوا	٢١
قوله تعالى : إن الله صطفى آدم ونوحا	٢٢
قوله تعالى : ذرية بعضها من بعض	٢٣
قوله تعالى : إذا قالت امرأة عمران رب انى	٢٤
يكون لى ما فى بطنى	
قوله تعالى : فتصلها ربه بمولود حسن	٢٥
قوله تعالى : وأبنتها بطلاً حسناً	٢٦
قوله تعالى : كما دخل عليها ركبها لمحراب	٢٧
وجدت عندها رزقا	
قوله تعالى : قال يا مريم انى لك هذا	٢٨
قوله تعالى : هنالك دعا زكراً باره	٢٩

صفحة	صفحة
١١٣ قوله تعالى : يا عيسى إني متوفيك	٧٤ قوله تعالى : إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك
١١٤ قوله تعالى : إن الذين يشكرون بمحمد الله	٧٨ قوله تعالى : ثم إلى مرجعكم فأنكمم بكم
وإيمانهم ثمتاً قليلاً	فيا كنتم فيه تختلفون
١١٧ قوله تعالى : وإن منهم ق فريقاً يلبسون	٧٩ قوله تعالى : فلما الذين كفروا فأنعم عليهم
الستهم بالكتاب	٨٠ قوله تعالى : وأما الذين آمنوا وعملوا
١٢٠ قوله تعالى : ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب	الصلوات فيوفهم أجورهم
والحكم والنبوة	٨١ قوله تعالى : ذلك تنظروا عليكم من الآيات
١٢١ قوله تعالى : ولا يلمركم أن تتخفوا للائكة	والذكر الحكيم
والنبيين أرباباً	٨٢ قوله تعالى : إن مثل عيسى عند الله
١٢٥ قوله تعالى : وإذا أخذ الله ميثاق النبيين	٨٥ قوله تعالى : الحق من ربك
١٢٦ قوله تعالى : ثم جاءكم رسول مصدق لما	٨٦ قوله تعالى : لمن حاجبك فيه
معكم	٩٢ قوله تعالى : إذ هذا هو القصص الحق
١٢٩ قوله تعالى : قال آفروهموا عذبتهم على ذلکم	٩٤ قوله تعالى : قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى
إصري	كلمة سواء بيننا وبينكم
١٣٣ قوله تعالى : المقبر دين الله يفرقون	٩٦ قوله تعالى : يا أهل الكتاب لم تحاجون في
١٣٤ قوله تعالى : وله أسلم من في السموات	إبراهيم
١٣٥ قوله تعالى : قل إنما يالله وما أنزل علينا	٩٧ قوله تعالى : ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم
١٣٧ قوله تعالى : لا تفرق بين أحد منهم	به علم
١٣٨ قوله تعالى : ومن يتبع غير الإسلام ديناً	٩٩ قوله تعالى : إن أولى الناس بإبراهيم ومن
١٣٨ قوله تعالى : كيف يحبني الله يوماً كفروا	طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم
١٤١ قوله تعالى : أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة	١٠٠ قوله تعالى : يا أهل الكتاب لم تكفرون
الله	بآيات الله
١٤٢ قوله تعالى : إن الذين كفروا بعد إيمانهم	١٠٢ قوله تعالى : يا أهل الكتاب لم تلبسون الحز
قيله تعالى وأولئك هم الضالون	بالباطل
١٤٤ قوله تعالى : إن الذين كفروا وصفتوا وهم كفار	١٠٣ قوله تعالى : وقال طائفة من أهل الكتاب
١٤٦ قوله تعالى : لن نزالوا البر حتى تنفقوا بها	١٠٥ قوله تعالى : ولا تؤمنوا إلا لمن شئ منكم
نحيون	١٠٦ قوله تعالى : يختص بوجهه من يشاء
١٤٨ قوله تعالى : وما تنفقوا من شيء	١١٠ قوله تعالى : ومن أهل الكتاب من أن تلته
١٤٩ قوله تعالى : كل الطعام كان حلالاً لبني	يقتطار
إسرائيل	١١٢ قوله تعالى : ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في
٢٥٢ تعالى : إلا ما حرم إسرائيل على نفسه	الأميين سبيل

صفحة	صفحة
٢٠٧ قوله تعالى : يؤمنون بالله واليوم الآخر ويؤتوا من المال خيرا خافتا ٢٠٨ قوله تعالى : وما يفعلوا من خير ٢٠٩ قوله تعالى : إن الذين كفروا لن تغني عنهم ٢١١ قوله تعالى : مثل ما يفتنون في هذه الأعيان الدنيا كمثل ربح فيها ضرر ٢١٤ قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم ٢١٨ قوله تعالى : هذا اسم أولاء نخوهم ٢٢٤ قوله تعالى : إن نخسكم حسنة منا ٢٢٣ قوله تعالى : وإدخولنا من حيث ٢٢٦ قوله تعالى : إذ هممت صانفتكم مكم ٢٢٧ قوله تعالى : ولقد نصركم الله بدين ٢٢٨ قوله تعالى : إذ نفوذ المؤمنين ٢٣١ قوله تعالى : بلى إن نصير وإلنقوا ٢٣٥ قوله تعالى : وما جمعه الله إلا بشئى نكم ٢٣٧ قوله تعالى : ليس لك من الأمر شئ ٢٤٠ قوله تعالى : والله ما في السموات والأرض الأخر	١٥٥ قوله تعالى : إن أول بيت وضع للناس ١٦١ قوله تعالى : مقدم إبراهيم ١٦٦ قوله تعالى : والله على الناس حيع البيت ١٦٨ قوله تعالى : ومن كفر قال الله غشي عن السموات ١٧٠ قوله تعالى : قل يا أهل الكتاب لم تكفرون ١٧٣ قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا ربكم من الذين آمنوا الكتاب ١٧٥ قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ١٧٧ قوله تعالى : واعتصموا بحبل الله جميعاً ١٨٠ وقوله تعالى : وكفى منكم أمية يمدعون إلى الحج ١٨٤ قوله تعالى : ولا تكونوا كالذين تفرقوا ١٨٥ قوله تعالى : يوم يفيض وجوه ١٨٦ قوله تعالى : وأما الذين ابغضت وجههم ١٩٢ قوله تعالى : كنتم خير أمة أخرجت للناس ٢٠٠ قوله تعالى : نصرت عليهم الدنيا ٢٠٢ قوله تعالى : ليسوا سواء من أهل الكتاب